القلب المؤمن

(وهل يلحد القلب...؟!)

عبدالله محمد الغذامي

العبيكان

□□□□□ □□□□□□.indd 1 10/20/20 9:10 AM

ⓒ **عبدالله محمد الغذامي، 1442هـ**

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الغذامي؛ عبدالله محمد

القلب المؤمن./ عبدالله محمد الغذامي - ط1؛

-الرياض، 1442هـ

224 ص ؛ 14 × 21 سم

ردمك: 978-603-03-5094-0

1- التفكير - فلسفة   2- الاستدلال (منطق)

أ. العنوان

ديوي 153.42   1421/727

العبيكان للنشر
Obeikan Publishing
obeikanpub obeikan.reader
للحصول على كتبنا الورقية
نون noon
سوق إحدى شركات amazon
للحصول على كتبنا الإلكترونية
amazon kindle
Google Play

حقوق الطباعة محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى
1442هـ/2021م

لوحة الغلاف للفنانة رحاب الغذامي

يطلب من العبيكان Obeikan
المملكة العربية السعودية-الرياض
طريق الملك فهد-مقابل برج المملكة
هاتف: 4808654 11 966+، فاكس: 4808095 11 966+
ص.ب: 67622 الرياض 11517

جميع الحقوق محفوظة. ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ (فوتوكوبي)، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من المؤلف.

□□□□□ □□□□□□.indd 2   10/20/20 9:10 AM

□□□□□ □□□□□□.indd 3 10/20/20 9:10 AM

المقدمة

⊙ هل يلحد القلب...!؟

سؤال قد يكون صادمًا كونه سؤالًا افتتاحيًّا لكتاب يتحدث عن القلب المؤمن، ولكن الصدمة ستزول لو بدأنا بتحرير مفهوم الاستدلال القلبي، وهو استدلال يختلف جذريًّا عن الاستدلال العقلي، ويقوم على أن القلب يفكر، وتفكير القلب يأتي في صيغة مباغتة وغير محسوبة؛ كأن يحدث حدث يحرك معاني من غير معهود معانينا، ويدفعنا لإعادة النظر في أنفسنا وفي ظرفنا، وهذا ليس تفكيرًا عقلانيًّا، ولكنه تفكير تحفَّز بقوة تأثير وجدانية مصدرها القلب، وعبرها يتغير مجرى حياتنا من حيث لم نحتسب قط، وتتحول هذه لتشكل قصصنا الخاصة التي لن يفهمها العقل الخالص إلا لو أعاد صياغة تفكيره ليتسق مع الحالة الشعورية؛ شرط أن يتم ذلك دون معاندة عقلية، وحينها سيدخل العقل والقلب معًا في نوع من (الاستدلال العقلي الوجداني)[1]، وهو استدلال

(1) جمع روسو بين العقل والوجدان للوصول لدين الفطرة، وقد فصلت ذلك في كتابي **العقل المؤمن/العقل الملحد**، الفصل الخامس، العبيكان، الرياض 2020م، وكذلك أشار باسكال إلى أن براهين القلب تختلف عن براهين العقل، غير أن الإشكال العميق عند باسكال أنه أخرج العقل عن مبحث الإيمان، بينما تأتي نظرية روسو=

يختلف عن العقلنة الفلسفية، كما يختلف عن الاستشراف الصوفي الروحاني من حيث إنه استدلال يعتمد على دليل القلب ومنطق العقل معًا، في بنية منهجية تقيم نظرية للإيمان وللمعاني الكبرى الوجودية والعرفانية.

والمنهجية ستعتمد السؤال الآتي: هل نستطيع التعرف على قلوبنا عبر أفكار القلب وليس عبر نبضه فقط، وكيف نستطيع تمييز أفكار القلب عن أفكار العقل؟!

وأرى أن أهم دليل لنا على هذا النوع من التفكر سيأتي عبر علاقاتنا مع قصص حياتنا، وتخصيصًا القصص التي تتشبث بنا ولا تستسلم للنسيان؛ وهي نوعان من القصص، بعضها تختارنا؛ أي تقع لنا دون تخطيط ولا تعمُّد، وأخرى نحن نختارها بأن تكون لغيرنا ولكنها تتوثق فينا لسبب يخفى علينا ولا نعرف لماذا اخترنا بقاءها معنا، وهنا لن تكون القصص مجرد طرائف نستمتع بها أو نمتع بها مجالسنا؛ بل سنرى بالتمعن والتحليل أن هذه القصص ذات رسائل عميقة ليس مصدرها العقل؛ ولذا لن يكون تفسيرها محصورًا بالعقل؛ وإنما تحتاج إلى تأمل يتحرك فيه القلب بوظيفة التبصر والتفكر الذي يسمى في اللغة الاعتبار، ولكنه اعتبار بمعنى

= متسقة مع مفهوم (الاستدلال العقلي الوحداني) بركنيها العقل والقلب، وعن باسكال انظر كتابه خواطر، ترجمة إدوار البستاني، اللجنة اللبنانية للترجمة، بيروت 1971م، وهو الكتاب الذي نشر بعد وفاته ولم تكتمل فكرته وظلت في صيغة مسودات ونشرت مبتسرة كما وجدت في المسودة. وفي الفصل الثاني وقفة مع باسكال.

التعبير؛ أي تفسير دلالات القصة وإلغازاتها التي تحمل رسائل نغفل عنها عادة؛ ولذا فإن الوقوف المنهجي عليها سيغير نظام تفكيرنا معها بما أن القلوب تفكر عبر القصص التي نشعر أننا نحبها ولا نمل من ترددها، ومن ثم نحتاج إلى أن نقرأ قصصنا بوصفها أفكار قلوبنا، وهذا ما حاولته في الكتاب لأقف على محطات القلب مع الأسئلة الكبرى التي كثيرًا ما يتفرد فيها العقل دون القلب.

وقد كتبت من قبل كتابي (**العقل المؤمن/العقل الملحد**) لأقف على مفاهيم الإيمان والإلحاد ومداخلهما فلسفيًّا وعلميًّا، وهنا في هذا الكتاب أبحث عن القلب بين الأسئلة الحرجة في محطاته الحرجة التي يحتاج فيها إلى تفسير عن معنى الحياة ومعنى الوجود، وتوسلت لذلك بقصص فيها رمزيات لم تك من فعل أبطال القصص ولا من رواتها ولا مني حين مكنتها من نفسي، ولكنها معانٍ عميقة كنت أغفل عنها ثم أصبحت تلاحقني حتى جعلتني ألتفت إليها وأكتب عنها كتابًا هو كتاب عن قلبي أنا الذي أعرف نبضه حين يمر به معنى يحتاج لالتقاط ثم يحتاج إلى تأويل؛ وسأقف في هذا الكتاب على القصص التي شهدتها وتلك التي شهدتُ عليها، وسأستعرض عبرها كيف أن قصصنا هي لغة قلوبنا ونظام تفكير هذه القلوب.

على أن قصصنا هي أفكارنا، وهناك خيط رفيع يربط بين قصصك وأفكارك، فقصصك ليست ما يحدث لك، وإنما هي ما يبقى في ذاكرتك، أي أن القصة التي تبقى ولا تسقط بالنسيان إنما

تبقى لأن ذهنك اختارها لتبقى، وعادة نحن نردد قصصًا معينة في أحاديثنا مع غيرنا؛ لأننا نشعر أنها تعبر عن شيء فينا لا يريد أن يغوص في النسيان، وهذا البقاء ومعاودة الظهور يشير لمخزوننا الفكري والوجداني، وكلما أخذنا هذه القصص مأخذ التبصر فإننا سنكتشف مضمراتنا العميقة التي تتمرد على تقلبات الزمن وتصمد لكي تكوِّن شفرتنا الخاصة؛ ولذا فإن السيرة الحق لأي منا هي في أفكاره التي تأتي على هيئة قصص وحكايات، وليست في حوادث حياته العملية، والأفكار هنا تصبح سيرة لنا حين تتلبس بلبوس القصص لتكون جاهزة دومًا للسرد على من نحب أو في حال الرغبة بأن نكتب ذواتنا على ورق؛ ولذا فإن أدق تعبير عن الفكر هو عبر تحويله لسردية تجمع بين متعة السرد وتلقائيته، وبين توجيه الخطاب وجهة معرفية لتقديم رؤية شخصية عن تصورات ومفاهيم ذات بعد فكري، وهذا يختلف عن البحث العلمي وشروط البحث؛ ولذا فالتفكير عبر القصص يشبه ما يسمى بالتفكير بصوت مسموع، وهو تفكير يتخذ التلقائية وسيلة له ويحاذر الجدلية، وهذا النوع من التفكير يسهل تقبله من القراء بأسهل من الجدليات التي وصفها روسو بأن الفيلسوف يرى خطأه أحق من صواب غيره[1].

في هذا الكتاب اتخذت قصصي الخاصة إضافة إلى القصص التي شهدتها عن غيري؛ لتكون معبرة عن تصوراتي للإيمان القلبي بعد أن خصصت الكتاب الأول للعقل في حال إيمانه وفي حال

(1) انظر عن روسو الفصل الرابع من كتابي: **العقل المؤمن/العقل الملحد**.

إلحاده، وتجنبت هناك أي حديث عن القلب، لكي أخصه بحديث يخصه وكأنه حديث الروح، وتوسلت لذلك بقصص تشكل كل حزمة منها فصلًا من الفصول الخمسة لهذا الكتاب، ولهذا فإن قصصنا تختارنا ولسنا من يختارها، ولعلي في الكتاب حاولت أن أقرأ نفسي عبر قصص أراها اختارتني أولًا ثم قررت أن ألتفت إليها وأقف عليها وأتشبع بها، ومن ثم أهديها لكل قارئ وقارئة للكتاب[1].

(1) سأقف على سؤال هل يلحد القلب في الفصل الثالث.

كلمة شكر

أنوه بالجهد الشخصي للصديق العزيز الدكتور عبدالرحمن إسماعيل السماعيل على اقتطاعه من وقته لمراجعة مسودات الكتاب واستدراك ما فات على العين إذ تغفل، وعلى الإصبع إذ يخلط في ضرباته على لوحة المفاتيح، كما أسجل شكري وامتناني لبناتي العزيزات غادة ورحاب وأبرار وديما وبشاير على تخصيص أوقاتهن لمتابعة قراءة نصوص الكتاب أولًا بأول وطرح مقترحاتهن فيه وفي سابقه (**العقل المؤمن/العقل الملحد**).

الفصل الأول:

أحاديث الروح

□□□□□ □□□□□□.indd 11 10/20/20 9:10 AM

أولًا: نظام الاستدلال العقلي الوجداني

سأعرض في هذا الفصل مفهوم (الاستدلال العقلي الوجداني)، ويقوم ذلك على تمييز طريقة تفكير القلب واختلافها عن التفكير العقلي، وتفكير القلب تفكير وجداني لا يأتينا مباشرة ولكنه يتوسل إلينا عبر ما نظنها قصص حياتنا، وهي في الحق رسائل قلوبنا الفكرية، وأشد علاماتها هي القصص التي تظل متشبثة فينا، بينما تمر علينا غيرها دون اكتراث؛ لذا ترانا ننسى بعضًا ويعلق بذاكرتنا بعض آخر، والذي تعلَّق لم يتعلَّق بخيار منا، كما أن الذي نسيناه لم ننسه بقرار منا، وهذا يعني أن هناك أسرارًا للقصص الثابتة التي تقاوم الاضمحلال، وهذه هي التي تتغلف تحتها الأفكار القلبية، وقد تتوافق مع الأفكار العقلية، وهذا يبعث على الطمأنينة وهي الإيمان، وقد تتعاند أفكار القلب مع أفكار العقل؛ وهنا يأتي القلق المعرفي، وفيما يأتي سأعرض قصصًا جاء فيها التوافق بين القلب والعقل عبر حدث برز في لحظة غير متوقعة فألَّف تلاقيًا بين القلب والعقل، وتولد عنه نوع من الطمأنينة القلبية مع القناعة العقلية، وهي اللحظة التي يولد فيها مفهوم الاستدلال العقلي الوجداني، والذي صنعه هو حدث طرأ وقابله تبصر عقلي صنع منه بصيرة تعيد صياغة المعاني التي كانت متضاربة قبل بلوغها حالة التبصر، وسأعرض هنا

لقصص رأيتها اختارتني واعترضت طريقي؛ ففُرِضَت أسئلتُها عليَّ عقليًّا ووجدانيًّا في تآلف بين القوتين، وفي خاتمة الفصل سأعرض نماذج تصف حال المفاهيم في وضعها التطبيقي العلمي.

1. الهارب من إيمانه

في منتصف مارس 2012م ذهبت مع صديق لعزاء أسرة كريمة في جنوب الرياض، كان بيتهم عائليًّا جدًّا بالمعنى الذي نتوقعه لكلمة عائلي، بدءًا من استقبالهم لنا وفرحتهم بنا وكأننا جئنا لعرس وليس لعزاء، وكانت صالة الاستقبال صغيرة وملمومة، ولكن القلوب فسيحة والعيون فضاء مفتوح وكأنه يحلق بك خارج القيود والشروط، فرح بنا والد تلميذتنا وهي زوجة المتوفى ومن أجلها جئنا للعزاء، وشرع الرجل يروي لنا محبة ابنته لنا نحن الاثنين وقد درست عندنا في مرحلة الماجستير، وكانت حيوية وذكية ومتعطشة للمعرفة مع أنها تنتمي لجيل الصحوة، وطبعًا تحمل في نفسها صورًا سلبية عني وعن أفكاري تبعًا للحملات الشرسة التي كانت أدبيات الصحوة ترسمها لحاخام الحداثة حسب وصف سعيد ناصر الغامدي[1] أول من تولى تشويه الحداثة في شريط مسجل حظي ليس بانتشار رهيب فحسب؛ بل أيضًا بتصديق رهيب من شباب وشابات الصحوة، وكانت تلميذتنا هذه بطبيعة الحال

(1) عن ذلك كله انظر كتابي: **حكاية الحداثة في المملكة العربية السعودية**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضا/ بيروت 2004م.

متشبعة بصور سلبية عن أستاذها الذي سيلقي عليها مع زميلاتها محاضرات في (نظرية الأدب)، وحتمًا ستكون الطالبة الصحوية في مواجهة مع النظريات النقدية والفكر الحداثي وليس مع الأستاذ الحداثي فحسب، وهي غير مخيرة هنا بما أن المادة مقرر رسمي لا مناص لها من أخذه، ولا مناص لها من أن تصغي لهذا الحداثي الذي تشبع ذهنها على التخوف منه والتوجس من أي قول يقوله، خشية أن يتعرض دينها لخطر يمسه، وهي التي لم تتصور قط أن تقع في هذه المواجهة القسرية، كما ذكرت لي بعد انتهاء الفصل الدراسي وحصولها على علامة امتياز مستحقة على جهدها ومجمل أعمالها الفصلية وبحثها النهائي.

هاتفتني بعد حصولها على النتيجة، وذكرت لي حكاية تجربتها معي من التوجس والشك إلى التفهم والتعلم، وأخيرًا إلى الاقتناع بأني لست عبدًا للشيطان، كما وصفني شيخ فاضل في محاضرة عامة حضرها آلاف وبثت في شريط كاسيت انتشر كما هو المتوقع في أوساط الصحويين الذين لا يشتري الواحد منه نسخة واحدة من أي شريط أو كتاب؛ بل يتطوع بشراء أعداد تظل تتزايد بمقدار ما يوزع منها متطوعًا لوجه الله؛ ولذا شاع بينهم اسم حاخام الحداثة وعبد الشيطان لهذا الأستاذ الذي تواجهت معه طالبة ماجستير مرغمة عليه، وانتهت بأن رأته بشرًا مثل غيره من البشر.

ومن أجل هذه الطالبة المكلومة ذهبنا لبيت أهلها للعزاء في وفاة زوجها الشاب الذي تعرض لحادث مروري توفي على إثره.

ظل والدها يروي لنا تقدير ابنته لنا، وكنا نسأله عن حال ابنته ووضعها مع هذا الفقد الحزين، والجو من حولنا كله جو لعائلة بدا عليهم طيب النفس وكرم المحبة لضيفيْهم، وظهر الامتنان عليهم لدرجة أن ألم المصاب تحول ليكون صفاء وحسًّا إيمانيًّا بأن رحمة الله أكبر من المصيبة، وكأننا لسنا في خبر عن وفاة وإنما في خبر عن مواعيد للرحمة والقبول لما كتب الله.

***

خرجنا من البيت في حال من النضوج الروحاني، وسرنا نمشي وكأننا لا نطأ على الأرض وإنما نطير، وغشانا الصمت والسكينة وكأن كل مفردات اللغة تعجز عن التشكل على ألسنتنا لما شهدناه من مشاعر التصبر والاعتبار عند تلك العائلة الآسرة بشاشة وإيمانًا بقدر الله.

وفجأة أحسسنا بشاب يسير بجانبنا وكأنه كان معنا طوال الوقت وتنبهنا له للتو، قاربني الشاب وكأنه يريد أن يهمس في أذني، وهنا لاحظ زميلي بذكاء سريع أن الشاب يريد الحديث معي وحدي منفردًا؛ ولذا تقدم زميلي خطوات إلى الإمام وظل يبتعد عنا مما ترك مجالًا للشاب أن يفتح معي موضوعًا يثقل قلبه ويريد أن يتخفف منه بطرحه علي.

روى لي الشاب قصته مع حالة إلحاد شديدة احتلت عقله وكبست على قلبه وعجز أن يحسمها بجهده الخاص، وقد قرأ كثيرًا وناقش

زملاء يثق بهم، وظل يقرأ ويناقش ولم يجد مخرجًا، وتمنعت عليه الأجوبة واحتدت عليه الحالة، وبدأت تؤثر على حالته النفسية وعلى علاقاته مع أهله ومحبيه بين أن يكتم إلحاده وبين أن يطرح أسئلة شكوكية بصيغة لا تكشف إلحاده ولكنها تمتحن قناعات غيره ليقيسها على شكوكه، ولم يخرج من ذلك بنتيجة تريحه.

ذكر لي الشاب حالته هذه وهو يرتجف وكأنه يغرق أو يستنجد، وكنت أستمع له بإصغاء وتقدير يستحقه وتستحقه حالته العاطفية وهو يروي لي قصته.

تغيرت حال الشاب حينما بدأ يروي لي نهايات قصته، والسبب الذي من أجله استوقفني ليخبرني بما حدث.

والذي حدث أنه قرر قرارًا شبه مجنون، وهو أن يذهب لأشد المشايخ تشددًا وأن يرمي نفسه عليه وكأنما يقدم جسده فدية لقلقه بمواجهة تقضي عليه وتخلصه، دخل على الشيخ وكان الشيخ جالسًا في الملحق بعد العصر، وعنده (ترامس) القهوة والشاي، وهو منكب متربعًا على الأرض وبيده كتاب يقرأ فيه ومن حوله كتب منثورة ما بين كتاب مقلوب على وجهه في الأرض وكتاب في وسطه ورقة تحدد صفحة الوقوف، وكتب أُخر بأوضاع مختلفة، وجلس الشاب بعد أن أجلسه الشيخ وأمره بأن يخدم نفسه مع القهوة، وفعل ذلك وهو يشرع بالحديث إلى الشيخ ويقص عليه قصة إلحاده ويستعرض شكوكه وأسئلته، وهو يرتجف توقعًا لما قد يفعله الشيخ معه كأن

يضربه على رأسه بالكتاب الذي يقرأ فيه، أو أن يطرده أو ما هو أشد من ذلك مما يظن حدوثه من شيخ متشدد أمام ملحد جلس بين يديه، ولكن الشيخ ظل مغروسًا في كتابه الذي يقرأ فيه ولم يرفع عينيه عن الكتاب، بينما الشاب يروي ويقص خبره، وحين توقف الشاب عن الكلام سأله الشيخ: «هل خلصتَ»، قال: «نعم»، فقال له: «أخبرني لماذا جئت إلي...؟!».

يقول صاحبي هنا تعجبت واستغربت ولم أصدق ما أسمع، لكني رددت عليه وقلت: «جئت لأسمع منك جوابًا ينهي مشكلتي أو أنهيها بنفسي وأخلص من هذا الشقاء»، وهنا رد عليه الشيخ مبتسمًا: «لا يا ولدي... أنت لم تأت بنفسك ولا بمرادك؛ بل جاء بك إيمانك الذي يطاردك حيث توجهت وساقك إليَّ سوقًا، كما قادك لغيري من قبل، وسيظل إيمانك يجري خلفك حتى تلتفت إليه، إنه خلفك يلاحقك وأنت من يهرب منه، ولكنه فيك، ولولا أنه فيك لما جئت لحمود التويجري، وأنت تعرف من هو حمود التويجري وتعرف شدته في الله ولله. أليس كذلك...؟!، ولماذا لم تخف مني...؟!، نعم لم تخف مني؛ لأن الذي قادك إليَّ أقوى منك وقادك بالعصا وأنت مستسلم له، وإيمانك هذا سيلحق بك وستراه بعينك، إن أنت سمحت له بالمثول أمامك بعد أن ظل يجري ويلهث خلفك».

يقول خرجت من عند الشيخ لا أعي خطاي وأتعثر في طريق مستوٍ لا مطبات فيه، ولكن جسدي كان يرتعش، وأحسست حقًّا أنني كنت أهرب من نفسي، وأن لدي إيمانًا يتحرك تحت ركام

شكوكي ويحاول أن يتواصل معي، وأنا أصده وأغلق الطرق عليه، كنت أفر منه فعلًا، وكلام الشيخ أيقظني من معاناتي مع نفسي وجعلني ألتفت لنداء شفيف كان شفيفًا لحد أني لم أك أسمعه، وشرعت بتوجيه عيوني إلى ضميري وكأني أراه من تحت جوانحي، وصرت أخاطب نفسي وأسمع أنين روحي، وآمنت، آمنت وكأني أولد من جديد وأخرج من الغشاء الجنيني الذي كان يغلفني، وبسببه كنت أمشي مغمض العينين؛ ولذا لم أكن أتبصر مساري، وكنت أحاول طرق أبواب لم تك لبيتي، ولكنها مغارات تلتهم من يلج فيها، تحررت أخيرًا وتخلصت من وجعي، وها أنا أمامك أروي قصتي وأنا فخور بنفسي وشجاعتي مع حالتي؛ وهي الشجاعة الوحيدة في سيرتي الخاصة التي أستطيع أن أرويها دون أن يتهمني أحد بادعاء بطولات خيالية.

هنا وجد الشاب نفسه، أما أنا فوجدت قصة تخدم فكرتي في نظرية (الاستدلال العقلي الوجداني)، وستتوالى الوقفات على هذه النظرية وعلى صيغها المتنوعة مع مباحث الكتاب.

2. حكاية الركب

من التقاليد المكية القديمة في شهر رجب أن يجتمع الناس مجاميع كبيرة ليذهبوا لزيارة المدينة المنورة؛ فيتواعدون على الخروج في موكب واحد، ووسيلتهم هي الحمير أو الجمال، وكانوا يتهيؤون للمسيرة قبل شهرين من الموعد؛ ولذا يُعِدُّون الحمير

ويعلفونها تقويةً لأجسامها لتتحمل مشاق السفر وحمل الناس ومستلزمات الرحلة عبر الصحراء، وكل واحد منهم يعتني بحماره عناية فائقة، ويحرص أن يأخذه إلى أماكن (الدرمغة)؛ وتعني الأرض التي يتوافر فيها الرمل الناعم النظيف، ولا بد أن يتزين الحمار بأقصى زينة تكللها الألوان والأصباغ والأقمشة المزركشة، ويزينون الحمار بالحناء ويلبسونه بردعة جميلة تتدلى منها القلائد ذات اللون الأحمر مع ألوان أخرى تكون براقة وجذابة، وكان أهل مكة يجتمعون من حارات عدة حسب التعارف والتآلف بين هذه المجموعات، ثم تتجه كل مجموعة في موكب إلى حي الزاهر حيث يأتي الناس لوداعهم والدعاء لهم بالقبول والعودة سالمين.

ولا تخلو أماكن التجمع من بسطات بائعي البليلة والمكسرات والخيار بالشرش وكباب الميرو والكبدة والسوبيا والزبيب ودوارق مياه زمزم، ثم يقف المنشدون في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس كلهم يصغون لترديد الصلاة والسلام عليه، ثم يتحرك الركب وتبدأ وجهتهم من وادي فاطمة فعسفان ثم القضيمة، وعادة تبدأ مسيرة الركب قبل صلاة العصر وتستمر حتى بعد العشاء، ثم ينيخون دوابهم للراحة، ويأخذون في إعداد الطعام، وحينما يحين الفجر يؤدون صلاتهم ثم ينامون ويقضون الضحى للراحة ثم إعداد طعام الغداء، وفي المدينة يقيمون مدة ستة عشر يومًا، وتقدر مصاريف الرحلة بحدود عشرين ريالًا، وعند اقتراب الركب من (المفرحات) وتعني الأماكن التي تمكن الزائر من رؤية

القبة الشريفة، وبرؤيتها تتعالى التكبيرات والصلوات على الرسول عليه الصلاة والسلام.

وقد انقطعت هذه المواكب بعد تيسر سبل التنقل، ولكن كانت هناك قصة تُروى من قصص هذا الركب حدثت لشابين مكيين؛ أحدهما صالح تقي له صديق مفرِّط وغير مهتم بأمر دينه، ورغب الفتى الصالح بالذهاب مع الركب إلى المدينة غير أنه تخلف عن الاستعداد بسبب رغبته باصطحاب صديقه الأثير الذي ظل يرفض فكرة الرحلة التي لا تعني له شيئًا، ولكنه لم يمانع من المشاركة في توديع الركب في حي الزاهر بمكة من باب حضور مهرجان الوداع الأهلي للمغادرين، وبعد انتهاء مراسم التوديع وتحرك الركب تغيرت حال الشاب التقي وبان عليه الحزن ونزلت الدموع من عينيه ويزيد تلفته نحو وجهة الركب الذي مضى في زيارة البركات دون أن يكون معهم، وهنا أحس صديقه بتأنيب الضمير وقرر أن يذهب معه إلى المدينة، ولكنهما احتاجا للتجهز والبحث عن حمار وتأمين مستلزمات الرحلة، ولم يتمكنا من التحرك إلا بعد ثلاثة أيام من تحرك الركب، وهذا يعني أنهما لن يلحقا بالقافلة؛ ولذا تجهزا بما يحتاجانه في رحلة ذهاب ليس معهما رفاق، وتشجعا على مواجهة المغامرة لوحدهما مع ما يعتري الرحلة من مخاطر قطاع الطريق ومغبات الصحراء وجهلهما بالطريق، غير أنهما سيتبعان أثر الركب الذي سبقهما، ولابد أن الأثر لن يتلاشى في ثلاثة أيام، وتحركا بالرغم من المخاطرة، وبعد مضيهما بيوم وليلة أصابت

الفتى الشقي حمى حادة، وزادت الحمى حتى اضطرا للتوقف تحت شجرة يحتميان بها ويتبصران بأمر هذه الحمى التي أعاقت مسارهما، ولكن الحمى اشتدت على الفتى وأخيرًا مات بين يدي صديقه التقي، ولم يتوان التقي أن يجهز جنازة صديقه، ثم أخذ يستطلع المكان من حوله لعله يجد أحدًا يعينه على إتمام مراسم الصلاة والدفن؛ فوجد بدويًّا يرعى غنمه، فهب البدوي للمساعدة والتكفين وحفر القبر، وشارك بالصلاة على الميت، ثم غادر البدوي ليسير خلف غنمه وقد حان وقت غروب الشمس، وفي هذه اللحظة جلس الفتى التقي غير قادر على الحراك وانتابته الأحزان على الفقد مع وحدته والظلام يتغشاه وزميله مدفون بجانبه ميتًا، وازداد حزنه على صديقه الذي لم يك له شيء من العمل يشفع له عند الحساب، وبدأت تحاصره الظنون عما وقع فيه صاحبه وما يجري له في قبره، ولم يك بيده غير البكاء يسح الدمع عبر خده وينسكب منحدرًا ليغطي جسده وملابسه، ويزيد ظلام الليل ليكون ظلمات، وفي قلبه أسى على صديق مات من أجله فزعة ومروءة فقط ليصحبه في هذه الرحلة ويؤنس طريقه ويخفف وحدته، ولكن هذا الصديق أصبح تحت الثرى، وأحس بألم شديد يتغشى روحه في أنه السبب فيما جرى لصاحبه ونهايته المبكرة وفي غير توقيتها ولم تدركه التوبة ولم يتسن له إصلاح أمر دينه قبل المنية، وظل الشاب التقي عاجزًا عن التحرك؛ فالظلام يقيده ويحجره، وتحت الشجرة يرمق قبر صديقه ويبكي، ثم غلبه النوم ودخل في نومة عميقة رأى

فيها صديقه هاشًّا مبتسمًا، وقال له في المنام: أبشرك قد غفر لي ربي بسبب شفاعة البدوي الذي صلى عليَّ معك.

هنا تيقظ التقي مذعورًا ومرتبكًا من هذا الحلم العجيب، وصار جسمه ينتفض، ويزيد الظلام من خوفه وتوحش المكان من حوله، مع ما يتسرب إليه من أصوات لا يعرفها، أصوات لحيوانات صحراوية لم يألفها في حارات مكة العامرة ليلًا ونهارًا بالناس وأصوات التلبية والدعاء وأحاديث البشر التي لا تنقطع، مع الترحيب بضيوف بيت الله والبيع والشراء وأجواء الحارة المكية التي تعبق صوتًا وحياة، بينما هو الآن بين صوت جاءه من القبر وأصوات لكائنات لا يعلم ما هي ولا كيف يتقيها لو هجمت عليه، وأشد من هذا كله هو منظر صديقه في الحلم وهو يبلغه بمغفرة الرحمن بسبب شفاعة البدوي، وأحس بحاجته لهذا البدوي ليسأله عن شفاعته ولكن الليل يقيده، والبدوي رحل مع غنمه، وبينه وبين الصبح وقت تبدى له أنه يمتد لدهور، وطار النوم كما طارت الراحة، وعم الخوف والتوتر وسطوة الندم على تسببه بموت صاحبه، (لكن صاحبي ذهب إلى الجنة)، هكذا راح يردد في نفسه؛ مما جعله يشعر أنه قد فعل خيرًا لصديقه الذي انتهى به إلى المغفرة، وتمنى لو حصل هو على المغفرة مثل صاحبه، وهذا خفف عليه مواجع الحدث وظلمة الليل وصراخ وحوش الصحراء، وقرر أن يبحث عن البدوي ليعرف منه الخبر، وما إن انبثق بصيص ضوء الفجر حتى تحرك لينظر في أثر غنم البدوي مع انبثاق النور وتميز الرؤية، وظهرت له آثار الغنم على الأرض جلية فتتبعها حتى وصل إلى

البدوي، وكان البدوي قد جلس على ضوء نار بسيطة أشعلها من بعض عيدان الأرض ليصنع منها قهوته، وتعجب البدوي حين رأى الفتى في حال يرثى لها تعبًا وتأثرًا وارتباكًا، حتى إنه سقط بين يدي البدوي وانفجر في البكاء وهو يطلب منه ألا يتخلى عنه في هذه المتاهة، ثم ذكر له حلمه وسأله كيف شفعت لصاحبي عند الله...؟!

قال البدوي: «لا أعرف أني شفعت، لكني فقط حين وقفت معك للصلاة عليه ما كنت أعرف (القراية) ولا ما ذا أقول في الصلاة على الميت؛ فتوجهت لربي وقلت له: يا رب لو تركته حيًّا لكانت ضيافته عليَّ، أما وقد أخذته فضيافته عليك يا رب؛ هذا كل ما قلته ولا أعرف غير ذاك».

هكذا هي جملة بريئة من قلب بريء ونظيف فتحت أبواب المغفرة لصديقه الآثم الذي شملته رحمة الرحمن بدعاء رجل بدوي جهل القراءة، لكنه لم يجهل رحمة ربه، فخاطب ربه بلغة قلبه؛ فبلغت دعوته بأعمق من كل الدعوات.

وقد سمعت القصة من رجل مكي وعى قصص الركب الرجبي، وهذه من أهم ما روى لي عن الركب وذاكرة الرحلة.

3. إيمان العجائز

عدت من بعثتي في بريطانيا في مايو 1978م بعد سبع سنوات إلا أشهرًا، وما كنت راغبًا بالعودة، وكنت أريد مد بقائي لأكمل

عشر سنوات، وكانت أنظمة البعثة وقتها تتيح فرص التمديد، وفي بريطانيا حينها الكثير مما يغريني بالبقاء؛ إذ كنت منهمكًا بالتزود العلمي في غير تخصصي الذي ابتعثت من أجله، وكنت أتردد على أقسام الدراما والأدب المقارن والفلسفة لأتتبع أي نشاط غير صفي عندهم، من ندوات وبعض دورات مصغرة في الفلسفة أيام السبت مدفوعة الثمن، كما كنت مفتونًا بالتجربة البرلمانية البريطانية ومناقشات البرلمان ولقاءات التلفزيون ونقاشات اتحاد الطلاب، والاتحاد مكون من مجاميع طلابية ذات انتماءات حزبية، وكانت النقاشات تتم كل يوم فترة الغداء، حيث يحضر الواحد ومعه قهوته وفطيرة الغداء، وتحتشد الكراسي حسب الموضوع المعروض للنقاش، وتحتد النقاشات في الاتحاد تبعًا لاحتداداتها في البرلمان الرئيس، واتحادات الطلاب هي انعكاس للبرلمان ومسايرة لأحداثه، حيث يتولى شباب كل حزب طرح موقف حزبهم، وكانت القاعة دروسًا ثقافية ليس في الوعي السياسي وتوابعه الاقتصادية والاجتماعية فحسب؛ بل أيضًا -وهذا هو الأهم عندي- هو عن المهارات الحجاجية وتمايز الأذهان وسرعة الإجابة وحضور المعلومة، وكانت متعة عظيمة لي أن أرى العقول تتبارى في الجدل، ولا شك أن ميولي الذاتية تنشط معهم من حيث عواطفي الإنسانية مع بعض القضايا المطروحة ومن حيث انتماءاتي كلما جرى أمر يمس فلسطين، وكان موضوع فلسطين حاميًا ذلك الحين بسبب نشاط الفصائل الفلسطينية في الأعمال الفدائية وبروز اسم ليلى خالد مدويًا في

القاعة بين يساريين يمجدون بطولاتها، ومحافظين يشتمونها ومعها فلسطين مشتومة أو مُدافعًا عنها، وهنا كنت أشترك في النقاش بدوافع ذاتية، كما أسعى لتجميع الطلاب العرب والمسلمين حين يأتي موعد للتصويت على أي موقف يطرح حول فلسطين، لم نفلح قط في كسب موقف رسمي لاتحاد طلاب الجامعة؛ ولكننا حشدنا ما يكفي من أصوات حقق لنا الخروج بقرار سلبي، لا هو مؤيد لإسرائيل ولا هو مع فلسطين، وكان هذا قرارًا بمثابة انتصار كبير لنا؛ لأن المعتاد في الاتحاد هو خروجه بشجب صارخ ضد الفلسطينيين، وكل الذي يحتاجه مثل هذا الموقف هو أن نستقطب أكبر عدد ليصوتوا معنا فقط بأن يرفعوا أيديهم بكلمة لا أو نعم بعد انتهاء النقاشات ومن ثم طلب التصويت، والتصويت حق لأي طالب يحضر وقت التصويت، ولم تك المهمة صعبة إلا حين يتمنع بعض الزملاء العرب بحجة ألا جدوى فلا يحضرون بالرغم من دورانا من حولهم لجلبهم من المطعم والمقهى فقط ليرفعوا أيديهم، وكم هي صعبة عند بعض السلبيين الذين يبخلون برفعة يد قد تدير اتجاه اتحاد الطلاب من حال إلى حال.

كانت بريطانيا في تلك الحقبة جنة الدنيا التي لا أريد أن أفرِّط بها، ولكني قررت إنهاء أطروحتي وتقديمها للمناقشة لسبب يخص والدي رحمه الله؛ وذلك أن أخواتي تلك السنة تخرجن من الثانوية وليس أمامهن فرص في عنيزة للدراسة الجامعية، وجاءني إحساس أن والدي سيقع بمشكلة بسبب هذا الوضع، وأن حل المشكلة يكمن

في عودتي إلى المملكة وأحضر أهلي للعيش في مكة ومن ثم دراسة أخواتي، هذا الإحساس أعادني للمملكة، ولكن تغير الأمر كله حين فتح معهد عال لإعداد المعلمات في عنيزة وذلك فور وصولي لأرض الوطن؛ ولذا قررت البقاء في جدة ولم أطلب تعييني في مكة.

هذه قصة توضح دقة العلاقة الوجدانية بيني وبين الوالد رحمه الله، ولم أبلغه قط عن خطتي تلك، وإنما اكتفيت بالامتنان لنفسي وضميري إذ عملت ما يرضي مشاعري، ولكن فرحي بعملي ظل ناقصًا؛ لأن بقائي في جدة كان يقلل فرصي في العناية بوالدي، خاصة بعد أن أصيب بجلطة في الدماغ كانت تحتاج للمتابعة في مستشفيات الرياض، وكنت أحس بالتقصير في هذه المسالة، ولم أكره كثيرًا ما حدث لي في جدة حين تأزمت أموري بسبب موجة الهجوم على الحداثة في الثمانينيات ودخول زملائي في قسم اللغة العربية بمواقف ضدي جعلت استمرار مقامي معهم محالًا، مما دفعني للانتقال إلى الرياض، وفرحت بالرغم من وجعي من تكالب الزملاء ضدي، فرحت أنني سأقترب من والدي وأخدمه في الرياض ومتابعات حالته الصحية، ولكنه رحمه الله توفي بعد شهر واحد من وصولي إلى الرياض، وهنا عوضت مشاعري المكلومة بالاعتناء بوالدتي، وقد كسبت معها سنين امتدت لخمس عشرة سنة كنت معها في كل أمراضها، وقد تعددت عليها الأمراض وعرفتها مستشفيات الرياض كلها واحدًا واحدًا، وكنت بصحبتها في كل مستشفى تقيم فيه، وتسهلت لي أمور كثيرة بسبب مواقف

كريمة من أطباء أصدقاء بذلوا كل جهد لتسهيل علاجات أمي، وقد أحسست بالشبع العاطفي بعد إحساسي أني قصرت في حق والدي، فكانت أمي دواء لروحي جعلني أشعر بأن تركي لبريطانيا قبل أن أتشبع منها جاءني أخيرًا بجدوى تطيب بها روحي.

أهم شيء لأمي لم يك علاجها، ولكن أن تتردد على الحرم المكي والحرم النبوي، وهذا أعظم الهدايا التي ظلت تفرح بها؛ ولذا نظمت لها برنامجًا امتد خمس عشرة سنة لتكون على صلة ممتدة مع الحرمين الشريفين، في رمضان وفي الصيف، أما في رمضان فقد تعودت أن آخذ أمي وعائلتي لنقضي العشر الأواخر بجوار الحرم الشريف، وحينها كنت أرى أمي تعود صبية فتية وتنسى أمراضها كلها، وتتفوق علينا كلنا في علو همتها وخفة بدنها وكأن روحها تحركت من أسر الجسد وعيوبه وأمراضه ووهنه، فتنطلق روحها محركة جسدها لتطوف وتسعى وتكمل عمرتها قبلنا كلنا، وفي تعاقب الأيام كانت تمضي الليل كله في الحرم ولا تنام سوى بضع ساعات بعد الفجر بساعة، وتنهض لصلاة الظهر في البيت، على أن تصلي العصر في الحرم وتعود لتفطر في الشقة، ثم تتحرك مباشرة بعد الإفطار وتبدأ ليلتها إلى وقت السحور مؤدية التراويح والقيام؛ فتصلي واقفة مع كل أمراضها وأدويتها للضغط والغدة وأدوية القلب، إلا أن الأوجاع والأدوية تبدو وقد تصالحت معها ومنحتها إجازة روحية لتنشط وتنطلق متجاهلة كل اشتراطات الأطباء وتعليماتهم، مع أنها صائمة النهار كله وقائمة الليل كله،

وكنت أنا الفتى الشاب أجد جسدي لا يسلس معي لدرجة أنني ألجأ للبحث في أدوار الحرم العليا عن مكان يقل فيه الناس فأسحب إحدى سجادات الحرم وأحاول أن أسترخي في فترات ما بين التراويح والقيام، وأحس جسدي منهكًا ومحتاجًا لأقساط من الراحة، وأتعجب من حال أمي ونشاطها المفاجئ والمثير للدهشة لنا كلنا منذ لحظة دخولنا حدود الحرم، حيث تشهق متنفسة بصوت الفرحة مع اقترابنا من مبنى الحرم لدرجة أني أمازحها وأقول ما رأيك يا أمي أن تنزلي من السيارة وتكملي المشوار مشيًا إلى الحرم، كنت أقولها وأعلم أنها لن تمانع في ذلك لولا ضعف بصرها الذي يصعب عليها المشي في الشوارع ليلًا مع قوة الإضاءات الساطعة التي تبهر عيونها فتعيق مسارها، كانت روحها تكركر طربًا وهي تلبي وتتلفت يمنة ويسرة للتمعن في معالم مكة، وتتعرف على الشوارع ونحن نمر بها شارعًا شارعًا؛ فتذكر كل شارع وما فيه من دكاكين، ولا تنسى أن تتذكر بيت خالتي عائشة ومنطقة العتيبية والريع وذلك الجوار وساكنيه وذاكرة الأحبة، وإذا شارفنا منائر الحرم شهقت أمي وانهالت دموعها فرحًا بذلك البهاء، وإني لأرى كيف تتحرك وكأنها تريد القفز من السيارة لتطير وتلمس الأرض والأرصفة وتحضن المنارات وكلها محبة وصلوات ودعاء وتكبير وتلبية، وهنا تظهر فاطمة الفتية البهية وتخلع أمراضها وآلامها وتعود صبية تعمرها محبة الله وطعم العبادة والصلاة وزمزم والحجر والأسود والركن اليماني، هنا تنسى الدنيا كلها وتصبح من أهل الآخرة وأهل التبتل

والخشوع، وفرحة الكون كلها التي تشملني معها؛ لأني أحس حينها أني أكرمت أمي وأبي معًا؛ لأن والدي كان في حياته إذا زرنا مكة معًا يأمرني دومًا أن أمسك بيد أمي وأسقيها من ماء زمزم، ويروي لي دومًا أن أمنية أمي حين كانت ترضعني أن أكبر وأسقيها من زمزم؛ ولذا يأمرني بتحقيق هذه الأمنية لها كلما ذهبنا لمكة، وإذا شربت وتروت من زمزم التفت أبي إليها وقال: هل سقاك من زمزم...؟! وكنت حينها ألتفت خلفي كي أتلافى مشاهدة دمعتها وهي تسيل على خدها الطاهر، وهذا ما يجعلني أشعر أنني أبر بأبي وأكرمه كلما أخذت أمي لمكة؛ لأنها وصيته لي، والأمر الأهم الذي كان يشدد عليَّ لتطبيقه.

تلك رحلة العشر الأخيرة من رمضان، وتوازنها رحلة صيفية نبدؤها من الرياض لنمر على عنيزة ونمكث أسبوعًا في بيت أمي في حي الأشرفية، ثم نتحرك مع أمي باتجاه المدينة المنورة وقد تعودت على التحرك بعد الفجر مباشرة لتصيد وقت البرودة قبل حمأة الشمس، وكم كان الطريق مبهجًا ما بين المزارع والقرى والنفوس فيه رخية وطرية، والشمس حين تشرق فلن تكون في وجهي وأنا أقود السيارة التي تكتظ بركابها، حيث عائلتي كلها مع حقائبنا ومستلزماتنا كلها، ولكن لطف الجو يخفف من وعثاء السفر، وكلما سافرنا فجرًا تسهلت الرحلة وتسامحت لدرجة أننا نصل إلى المدينة بسرعة على النفوس وكأننا في طيارة وليس في سيارة تدب على الأرض دبًّا، وفي المدينة المنورة نجلس أسبوعًا حيث

خالتي مريم تقيم هناك، ومن ثم تتصاحب الأختان أمي وخالتي إلى الحرم مشيًا لقرب بيت خالتي من الحرم، ولرغبة النفوس في التشبع من القربى من الروضة الطاهرة وخاصة في (الضحويات)، حيث تفتح الروضة للنساء، ولم يفت على أمي أي (ضحوية) في الحرم النبوي والروضة الشريفة، وبعد أسبوع في المدينة نتجه لمكة وتصحبنا خالتي مريم، ونمضي في مكة أسبوعين كاملين، وتظل أمي كما هي في مواعيدها مع الحرم الشريف؛ فما إن تصل إليه حتى تعود لها صحتها وتسكت عنها كل أمراضها، وتعود فطيمة الصغيرة كما تلقبها خالتي مريم، ولا تأتي كلمة فطيمة إلا إذا دخلتا إلى الحرم معًا؛ وذلك لما تشاهده مريم من عودة الروح لأختها فطيمة، وتتآمر الأختان علينا لتهربا من وصايتنا وتنطلقان في ساحات الحرم وكأنهما الطفلتان الصغيرتان في مزرعة جدي صالح الجهني تلعبان وتأنسان دون مسؤوليات عائلية ولا منزلية، لم تدم هذه الصحبة لوفاة خالتي مريم، وهي الوفاة التي تركت جرحًا عميقًا في نفس أمي، ولم تنقطع عين أمي من الدمع كلما أخذناها في رحلة لمكة لتذكرها مريم معها في ساحات الحرم.

ظلت رحلاتنا الصيفية على هذا المنوال، ولكن مع تغير واحد، حيث حلت (سيليا) محل خالتي مريم لتصحب أمي في الحرم، وأمي تحب أن تكون في الحرم بعيدًا عنا لأمر في نفسها تخفيه عنا ولكننا نعرفه وسأذكره بعد أن أشير إلى (سيليا)، وهي فلبينية تعمل في بيتنا ونصحبها معنا في زياراتنا لمكة، عاشت عندنا لسنين حتى

أصبحت من أفراد العائلة في الشعور وفي المعاملة، ونشأت بينها وبين أمي محبة وحسنى في التعامل والتقدير، وكانت أمي تحبها وتأتمنها في كل أمر، من المال إلى الرغبات والتفضيلات الخاصة في المأكل والمشرب واختيار الأماكن في الحرم وطرق التحرك والتصرف؛ ولهذا وقعت لنا قصة أرعبتنا لنصف نهار كامل حيث اختفت أمي وسيليا معها منذ ذهابهما إلى الحرم في الضحى، واستمر الاختفاء إلى منتصف العصر، وهنا تحركنا كلنا أنا وزوجتي وبناتي ولم نترك ركنًا في الحرم لم ننظر فيه مرة ومرتين وثلاثًا ونعاود العودة لكل ركن بحثًا عن أمي، ولا خبر، وذهبت إلى شرطة الحرم وللإدارة الصحية ثم إلى مكاتب الإدارة العليا في الحرم ولم نجد أي شيء يشير إلى أي خبر عن مفقودتين أو سيدتين فيما سجل في المحاضر في فترة الضحى والظهر، وظلت تلك حالنا في قلق وفي ربكة وتخوف وصدمة عنيفة للغياب ولعدم وجود أي مؤشر يعيننا على التحري والبحث، وتعاطف معنا العاملون في الحرم، وشهدوا الخوف والتوتر في وجوهنا، ولكن لم يكن بيدهم شيء يمكنهم مساعدتنا فيه، عجزنا عن تناول الغداء وعن الشرب وفقدنا الاطمئنان، ومر الوقت وانتهت صلاة العصر وذهبت للطواف مع الطائفين وبناتي من حولي، وقررنا التفرق بين صفوف الطواف أملًا في أن نرى أمي تطوف، ومن عادتها أن تطوف بعد العصر، ولكن لا أحد، وهنا قررت العودة للشقة والسعي للتواصل مع إمارة مكة المكرمة مستخدمًا هواتف بعض الأصدقاء لإيصالي لأي مسؤول يحرك

لنا قضية بحث عن أمي وصاحبتها، وما هي إلا لحظة وضج بيتنا كله بالصراخ والبكاء...، ها هي أمي تدخل علينا في الشقة ومعها (سيليا)، وأمي تلهث وكأن حيويتها ونشاطها في مكة طارتا وعادت لها الأمراض وتحركت مباشرة لسريرها وتمددت عليه وجسمها كله يرتجف، وكل ما ظلت تقوله أنها تريد أن ترتاح، وركزت على رغبتها في الارتياح وكأنها تريد منا فقط أن نتركها ونعفيها من الكلام، وهذه هي الحقيقة، المهم أننا ارتحنا الآن وانقشع همنا، وعرفنا أن أمي بخير وهذا هو المهم، كما أدركنا أنها تريد منا ألا نجرجرها في الكلام، وهنا فعلًا عادت أمي صبية، ولكنها في هذه اللحظة أصبحت صبية شقية لا تريد من أهلها أن يسألوها عن شغبها عليهم، وضحكنا كلنا على هذا الشعور بأن فطيمة تضحك علينا، ولكن كيف لنا أن نعرف...!

لاحظت (سيليا) حالنا وحيرتنا فأشفقت علينا وانفردت بزوجتي وقصت عليها القصة شريطة ألا نبلغ أمي بأنها كشفت السر لنا، وكانت أمي قد طلبت من (سيليا) ألا تبلغنا بالقصة، وكانت تنوي كتم الخبر لولا ما رأته علينا.

قالت لنا (سيليا): إن أمي قررت الطواف وقت الظهيرة بعد صلاة الظهر، وحاولت منعها بسبب شدة الحر وصقعة الشمس في حين صحتها لا تسمح بهذه المغامرة لمن لديها ارتفاع في الضغط واختلال في الغدد ومشاكل في القلب، وتعليماتنا كلنا هي في تجنب الطواف في الظهيرة الصغير منا والكبير، ولكن أمي خيرت (سيليا)

بين الطواف معها أو المكث في الرواق حتى تعود إليها، واستصعبت (سيليا) ترك أمي لوحدها، فمضت معها وطافتا معًا، وأحستا معًا بوقع الشمس على الهامات مع مشاكل اللباس النسائي وانكتام التنفس مع (الغطوة) والعباءة السوداء، حيث تزداد الحرارة حرارة وكتمًا وتعرقًا ورهقًا، وبعد الطواف ذهبت السيدة الوالدة لتنزل تحت لتشرب من زمزم وتهبط الدرج وتصعده مع تقطع نفسها ومعاناة ساقيها وقدمها الحافي وإرهاقها من بعد الطواف، وعادت للرواق حيث صلت ركعات السنة واتجهت للكعبة تتأمل وتبتهل لربها وتعود لتذكر الماضين والماضيات من أحبتها، حتى اقترب العصر فرغبت بتجديد وضوئها ولم تشأ الذهاب للشقة المجاورة للحرم مباشرة خشية أن تضطر للبقاء فتفوت صلاة العصر في الحرم، ومرت بدورة معقدة من نزول الدرج لمنطقة الوضوء وصعوده باللهاث والتعب لتلحق بصلاة العصر ولتبقى بعدها لبعض الوقت قانتة داعية خاشعة، ثم عادت للشقة بالحالة التي شهدناها فيها، وحالنا كانت مثلها ليس في رهق الجسد ولكن في وجع الانتظار وحرقة الأسئلة التي لا جواب عليها، عرفنا القصة، وحين ارتاحت أمي وعادت لها أنفاسها وتناولت غداءها وأخذت في ارتشاف الشاي بالنعناع المدني كما تحبه، جلست معها ممازحًا لأزيح عن روحي روعتها فقلت لها: هاه يا أمي إيش القصة، قالت ما فيه قصة يا وليدي، بس ضعنا وما عرفنا نرجع للشقة وتعبنا نبحث عن العمارة...، لم يك بيدي إلا أن أضحك ويضحك الجميع

معي، ونردد الحمد لله على سلامتك يا أمي، والحق على (سيليا) كيف ضيعت مدخل العمارة، وتركنا القصة تمضي ما دمنا جميعنا سالمين غانمين ولله الحمد.

وبعد أسبوعين في مكة رجعنا إلى المدينة المنورة لنجلس فيها أسبوعًا ونعود لعنيزة.

في طريق عودتنا لعنيزة لاحظنا أن الطريق كان خفيفًا بعد أن ابتعدنا عن حدود المدينة المنورة مما أغرى بنتي رحاب في أن تسوق السيارة بنا، ووافقتْ فورًا وألبستها (شماغي) وعقالي وسلمتها المفاتيح، وكانت قد تدربت على السياقة في البر وفي أمريكا ولم تك لديها مشكلات في مهارة القيادة، ولكن المشكل في الأنظمة ذلك الحين (عام 2000م)، وتعد هذه مخالفة تجري المحاسبة عليها وبشدة، وهذا ما جعل أمي تتوتر ولكنها لم ترغب أن تكسر خاطر حفيدتها، وأوشكت أن أمازح أمي وأقول ترى حفيدتك مشاغبة مثل جدتها، ولكني منعت النكتة في منتصف حنجرتي كي لا أحرج (سيليا) التي لن تكون سعيدة إن علمت أمي أنها كشفت السر، وساقت بنا رحاب طول الطريق حتى مشارف مدينة الرس.

وفور وصولنا لعنيزة سقطت أمي على سريرها لتعود لها أمراضها وأوجاعها وأدويتها، تلك الأوجاع الكريمة النبيلة التي منحت فطيمة الجهنية إجازة اضطرارية تمارس فيها حبها الأكبر والأعمق بأسبوعين في بيت الله الحرام، ومثلهما في حرم نبيه حيث الروضة

المطهرة هنا والكعبة المشرفة في مكة وبئر الحياة والإيمان زمزم تطوف بين جوانح المغفرة وتحت مظلة رضوان الرحيم الرحمن؛ فتعود صبية فتية تعطيها جرعات الإيمان والتقوى ما يغنيها عن جرعات الأدوية، دواؤها المحبة لله وبالله، ودمعات على أبواب الله، حيث مقام العائذين بالله، وهناك لن تخاف من ارتفاع الضغط ولا من توترات الغدد ولا لفح الشمس ولا وعثاء الترحال، تختار لنفسها ما يريح روحها فتمنحها روحها وقودًا يخلص جسدها من أوجاعه وقيوده وإعاقاتهم، وتمنحني أنا وفوزية وبناتنا رضًا روحيًّا بأننا وفينا بوصية أبي، «اسق أمك من زمزم يا عبدالله»، تلك كانت مواعيدي ووعودي لأبي ومع أمي، وهي تعدل عندي الأرض وما عليها، وكم ظللت ممتنًا لنفسي كما لم أمتن لها من قبل ولا من بعد؛ لأني خدمت أبي وأمي بأهم وصية ائتمناني عليها، شربنا من زمزم كلنا، وبقيت زمزم في قلوبنا تطهرنا كلما احتجنا إلى التطهير.

وانتهت رحلتنا الصيفية بعد أسبوع في عنيزة حيث عدنا إلى الرياض، وظلت تلك حالنا صيفًا وفي رمضان، حيث نصحب أمي إلى البركة والقداسة والمحبة، وتوفيت أمي عام 1424هـ/ 2004م، ولوفاتها قصة رويتها في مقالتي (يسمونها الجهنية وأسميها أمي)[1].

(1) نشر في **جريدة الرياض**، بعنوان: (الجهنية، يسمونها الجهنية وأسميها أمي)، اطلبها في جوجل بالعنوان نفسه، والمقال يتصدر كتابي: **الجهنية**، نادي مكة الأدبي.

4. مجاورة النبي

في عام 1980م حصلنا على هبة مبهجة، حيث علمنا عن سيدة جداوية فتحت روضة للأطفال، وتقوم هي نفسها بأمر الروضة بدءًا من أخذ أطفالنا من البيت صباحًا على أن نتولى نحن إعادتهم ظهرًا، حيث تظل هي في الروضة لتعتني بكل طفل عندها، وهي مثقفة وراقية التعامل، مما جعل هذا خبرًا مبهجًا لبنتي غادة، وكانت وحيدتنا حينها، وليس في بيتنا أي متعة لبنت في سنها غير أن تشاهد افتح يا سمسم، ونحن نحاول ترفيهها بين وقت وآخر في رحلات للبحر، ولكن لم يكن لديها جو طفولي لتعيش مرحلتها مع أطفال مثلها، بعد دخولها للروضة بأيام حضرت قبل موعد خروجها مما اضطرني للبقاء في السيارة انتظارًا للموعد، وشغلت نفسي بالقراءة، وقد فتحت نافذة السيارة، حيث كنت في ظل شجرة ويتسلل لي هواء عذي في شهر ديسمبر، حيث يتلطف الجو في جدة، وهنا أصبحت نافذة سيارتي تسرب لي حديثًا لفت انتباهي بين مصري هو سائق حافلة الروضة، ويماني هو حارس الروضة، وكان المصري منهمكًا في الحديث مع اليماني يصف له مصر بنيلها وخضرتها وفواكهها وقمحها وبركات أرضها ورخاء عيشها، ولم يفته أن ينوه أنه لم يحضر لجدة طلبًا للمال، ويركز منبهًا صاحبه ألا يذهب به الظن ذاك المذهب، وما كان من اليماني إلا أن سلم له بذلك وأكثر له من ترديد تبريكاته بمصر ورفاه عيشها، فزاده المصري نفحة من خيال جميل وأكمل بالقول: أنا جئت هنا لمجاورة

النبي، أما مصر فكلها خير ومال ولا أحتاج إلا لبركة النبي، وبارك له اليماني قوله وزاده تماهيًا مع قصته.

وسأقف هنا على القصة عبر موقف اليماني، وهل عجز عن كشف (الفهلوة) في القصة أم أن للأمر وجهًا آخر غير وجه (الفهلوة)، وسأفترض أن المصري صادق مع نفسه، بمعنى أنه يصوغ روايته بحبكة متقنة التقطها اليماني وتماهى معها؛ فالمصري يريد أن يترجم غربته من رحلة لطلب الرزق فقط، ومن رحلة في التعب والكدح ويحولها إلى رحلة في المحبة، وإن نجح في حبكته الخيالية هذه فسيخفف عن نفسه وقع الغربة ووعثاء الاغتراب، وسيجعلها رحلة في محبة النبي، ولكي يؤكد هذه المحبة لا بد أن يقول لنفسه قبل غيره إنه يحب مصر، وإنها بلد خيرات وبلد غنية تشبع أهلها وتجمِّل حياتهم؛ ولذا فهو لم يتركها لأنه محتاج أو طالب مال، ولكنه جاء محبة للنبي، وغامر في تفويت سؤال عن كون جدة بعيدة عن المدينة المنورة؛ لأنه سيقول حينها إن السعودية كلها دار النبي، ومن دخل ضمن حدودها فهو جار للنبي، وقرر اليماني مجاراة هذا المعنى بدليل أنه لم يجادل المصري ولم يسخر من حبكته، وظل يردد ما شاء الله، ما شاء الله، وكنت ألمح وجه اليماني مجللًا بالبشاشة، ولسانه يلهج بالصلاة والسلام على رسول الله، وهنا يتوافق الطرفان على معالجة غربتهما وتماثلها في الظرف، وسيجد اليماني متعته هنا في فرضية مجاورة النبي؛ لأنه محتاج لهذا العلاج الروحي مثله مثل المصري؛ ولذا تمت الحكاية بسلام وجداني بينهما ولم تقع في جدل عقلاني يفسد المعاني ويشوه السردية.

هذه حالة إيمانية وقودها الخيال، وشفيعها تصديق القلب للقلب، ولو فرضنا وجود شخص آخر غير اليماني أو لو أن فضوليًّا تدخل وسخر من القصة ولو بمجرد ضحكة مجلجلة لتهشمت المعاني كلها وتحول قلبان فرحان إلى كدر يظل معهما كلما رأياني أحضر للروضة ويذكرهم وجهي بهذا الرجل الذي قتل الفرحة في قلبيهما.

كان حديثهما حديث القلب مع القلب، والقلوب تصدق بعضها وتلتقط نبضات بعضها، ولو تحرك العقل هنا لتشابكا في جدل وربما سخر اليماني من المصري، وقد تنتهي بخصام وتعنيف وتباعد، لكنهما ظلا متآلفين، وقبل أحدهما الآخر وتماهى معه في لحظات صنعتها المحبة وتراضي النفوس على تكاذب جميل ومبدع جمَّل لحظات حياتهما وزودني بنفحة محبة نالني بعض أثرها، إذ تحرك قلبي وأسكت عقلي هنيهة، فعشت متعتهما معهما دون تنكيد ينعكس عليَّ بمثل ما يشوه جلستهما.

***

ثانيًا: الأفكار القلبية

1. الخشوع/فإن لم تكن تراه فإنه يراك

أعظم وأعمق تفسير للقرآن هو الخشوع، فهو لغة القلوب التي لا تنتظر إذنًا من أحد، فقط يتحرك القلب فيتحرك معه البدن قشعريرة وتنهمر العيون دموعًا بأوامر داخلية، ويتوارى العقل وأحكام المقام والسن والظرف، وأنت لا تعلم متى يخشع قلبك ولو أمرته لما استجاب؛ لأنه ليس طوعك ولا تحت خيارك، وكما ينبض ويضخ الدم في عروقك دون سلطة منك عليه فإنه يخشع أيضًا دون توجيه منك، ولو تخشعت فإن قلبك سيعرف أنك تتصنع ذلك؛ لأنه يعرف توقيتات الخشوع بغير ما تعرفها ويفهمها بغير ما تفهمها، والتخشع سيكون أمرًا عقلانيًّا يصدر برغبات واعية، ويكون سببه عادة هو الحس بنقص الخشوع الذاتي للقلب، وقد يحاول المرء ذلك، وستكون هذه علامة على رغبة واعية، وقد تقود مع المداومة والدربة إلى إحداث نوع من الخشوع يرضي رغبات الوعي، ولكنه ليس الخشوع العميق الذي يأتي دون توجيه خارجي؛ وذلك لأن القلب حين يستقبل الآيات عبر حاسة الأذن الصاغية وترسله إلى داخل الروح هنا تحدث استجابات تلقائية لا يتحكم فيها العقل ولا

يتحكم فيها الخارج، والفاعل هنا هي الروح الداخلية العميقة؛ إذ تلتقط فقط ما يناسبها؛ وهي تعي كيف تختار نصوصها المحركة وتختار توقيتها المناسب؛ ولذا فالخشوع لغة خاصة للروح التي تختار الصيغة ودرجة الخشوع ومدته، وخشوع هذا غير خشوع ذاك، ولو جربنا أن نتتبع الكاميرة وهي تنتقل بين صفوف المصلين في الحرم الشريف وقت التراويح في رمضان، حيث سنشاهد الناس يختلفون في خشعاتهم ولا يتوافقون على آية واحدة يخشعون معها؛ بل سترى رجلين متجاورين أحدهما مغمور بدموعه وينتفض جسده مرتعشًا مع صوت القراءة؛ بينما جاره يظل ساكنًا هادئًا مصغيًا بتمعنٍ يظهر عليه ولكن دون خشوع، ثم مع مواصلتك في قراءة المشهد سترى تنقلات حالات الخشوع بين الوجوه والكاميرة التي تدور حول ساحات الحرم؛ فيخشع ذاك ويسكن هذا.

تستمر رحلة الخشوع بين الوجوه في تمايز عجيب ومدهش، وهذا يعني أن للقلوب تنوعاتها في الاستقبال وفي التفاعل والانفعال، ولن تجد رابطًا واضحًا لماذا خشع هذا لهذه الآية ولم يخشع ذاك لها، وكيف لآية واحدة أن تحرك بعض أناس ولا تحرك آخرين، وكيف يتبدل الدور؛ حيث ترى واحدًا كان ساكتًا منصتًا ثم ينفجر خشوعًا، بينما ذاك الذي كان خاشعًا قبل لحظات هدأ وسكنت نفسه وعاد للإنصات الصامت، وهذا يعني أن لكل أنسان قرآنه الخاص، وكأن بعض آيات نزلت له تخصيصًا فيتجاوب معها، ولغيره آيات أخر يتجاوب معها، ولا شك أننا نلمس في حياتنا مع القرآن أن هناك

آيات كأنها تخصنا مباشرة، ومثل ذلك تكون حالنا مع القراء؛ فهناك قراء يحركون مشاعرنا وتهتز معهم أرواحنا ونسمع معهم الآيات، وأحيانًا نسمع آية وكأننا نسمعها لأول مرة مع أننا قرأناها من قبل كثيرًا ولم تستوقفنا، وفجأة نشعر أنها تيقظت فينا والتقطت إحساسنا بها، وسيظل هذا النوع من الآيات ملازمًا لنا بعد أن كنا غافلين عنه، وربما تُفتح لنا علاقة خاصة مع كتاب الله، وسيحرك هذا النوع خشوعنا وكأن ذلك تأنيب منا لأنفسنا على غفلتنا مع آية لها علاقة خاصة مع قلوبنا لكننا تأخرنا في اكتشافها، وحتمًا فإن مشاعر الناس في الحرم تتنوع حسب لغاتهم وظروفهم، ومع أن كثيرًا منهم لا يجيدون اللغة العربية ولكنهم يحفظون القرآن ويعرفون معاني القرآن، ولكنهم قد يخشعون حتى لغير ما يعرفون معانيه بسبب تأثيرات لصوت المقرئ ولمعنى المكان والحشود وجو الروحانية؛ وكأنه يستقبل المطر يهطل عليه، والمطر لا يحتاج لترجمان، وللقرآن وقع على النفوس بلفظه وترتيله وتجويده ونبر القراءة وتوقيعاتها، وهذه كلها مؤثرات صوتية تتضافر مع روح المكان وروح اللحظة إن كانت لحظة حج أو عمرة، أو لحظة توقيت له علاقة روحية مع النفس ومع الظرف والحال النفسية، وهنا فالخشوع هو لغة القلوب في أدق لحظاتها مع الاستقبال والصفاء الذي يطرأ علينا أحيانًا بتلقائية وكأنه مفاجأة تدهشنا حسب توقيتاتها المختارة منها وليس منا، وفيها تنضج اللحظة لدمعة تتحدر من العين دون استئذان.

في صغري كنت أتحين ليلة سورة يوسف وبكاء النساء مع القراءة، وهذا موعد رمضاني كل سنة، ويأتي في الليلة الثانية عشرة من رمضان في تراويح المسجد، وكنت أتسمع لأصوات النساء خاشعة متكسرة مع صوت القارئ وهو يقرأ قصة يوسف وما جرى لأبيه حيث ابيضت عيناه من الدمع، فتنهمر دموع النساء على حال أب فقد فلذة كبده، ولاشك أنهن يعرفن معنى فقد فلذات الكبد وأثرها على الروح، ثم يستمر نشيجهن مع الآيات المتتابعة بتأثر متصل عن مأساة الفقد والضياع مع بقاء الأمل، ويشعل بقاء الأمل قلوب النساء وكأنهن ينتظرن آمالهن الخاصة ويحسسن بفقدهن الخاص، وهذا موعد سنوي أضبط مواقيتي له لأستمتع بأصوات النساء الباكيات، وقد كتبت عنه قصيدة حين كنت أكتب الشعر في صغري، ولكني تركت الشعر بعد أن استغنيت بالنقد والخطاب المعرفي بديلًا عن الخطاب البلاغي، وتظل أصوات النساء التي اختزنتها في صغري تشع في ذاكرتي لتمنحني دروسًا في المعاني والتأمل في النفس البشرية ولغاتها المتنوعة، وأعمق ما في هذا التنوع هو لغة القلوب حين تخشع مع لغة الإله، وتتحد الروح منتجة لغتها الخاصة متجاوبة مع لغة الوحي والتنزيل في تماهٍ لا تتدخل فيه شروط المعاني؛ فالقلوب تفهم النص العظيم دون ترجمان، وهذه أعلى درجات الفهم وأعلى درجات تفسير القرآن حين تفسره القلوب، ويتأتى معناه من الروح ويتحرك على الجسد دمعًا في العين وانتفاضة في البدن.

2. هل يخشع العقل...؟!

سؤال غريب بكل تأكيد ولا يتسق مع فرضيات البحث المنهجي؛ فالعقل جاف وبارد، هكذا نتصوره، ولكننا لن نعدم فرضيات تنسب للعقل نوعًا من النشاط العاطفي، وتعريف معجم (كيمبردج) يعرف العقل بأنه «جزء في الشخص يجعله/ها قادرين على أن يفكرا، ويحسا بالمشاعر، ويفهما الأشياء»، كما أن معجم أكسفورد يعطي تعريفًا مماثلًا[1]، وفي التعريفات تخصيص لوظيفة الإحساس بالمشاعر، إضافة إلى وظائفه العقلانية، وسنرى أمثلة لعقول علمية وفلسفية تربت وتدربت وأنتجت حسب شروط العلم والفلسفة، ثم دخلت بتجارب تجمع بين العقل والقلب، وتمارس أنواعًا من الخشوع الصافي، وقد اكتشف فرانسيس كولينز المعاني العميقة للدعاء بتمييزه بين دعاء هدفه جلب المنفعة وكأن الداعي يحاول أن يجعل دعواته تغري ربه بأن يعطيه ما يتطلبه في تلك اللحظة، وتتجدد الطلبات وتتنوع مع كل حالة من حالات الدعاء، بحيث يكون توقيت الدعاء مع توقيت الاحتياجات ودرجتها ونوعها، ولكن هناك دعاء يترقى ليكون وسيلتنا للتعرف على الله والارتباط معه في علاقة معمقة تجعلنا نفهم حياتنا وألغازها، فيما يثير تعجبنا أو ما يلتبس علينا، أي أنها علاقة تتأسس على الارتباط مع الله لحظة الدعاء

(1) عن تعريفات العقل المعجمية والمفاهيمية انظر كتابي **العقل المؤمن/العقل الملحد** ص ص 150-160 العبيكان، الرياض 2020م.

وفهم رسائله لنا، وكلما تعمقنا في الوصل مع لحظة الابتهال إليه فهمنا رسائله أكثر وأعمق[1].

وهذه درجة من الإيمان لم يبلغها كولينز إلا بعد رحلة طويلة ابتدأت بالإلحاد الذي ورثه عن والديه أولًا، وتواصل مع جيله ومدارسه وتعليمه في مراحله كلها، فهو ينتمي أصلًا لثقافة الإلحاد، ولم يكن الإيمان موضع سؤال عنده ولا عند وسطه المعاشي والعلمي، ومر بفترة من عدم الاكتراث يغلب عليه فيها مفهوم (اللاأدري agnostic)، ثم أصبح يميل للقطع بالإلحاد مع ترقيه في المعرفة والعلم في العلوم الطبيعية وإيمانه بالعلم الطبيعي وأنه يفسر سر الكون، ولكن وفي مطلع العشرينيات من عمره بدأ يشعر بالملل من تخصصه العلمي الجاف، ولجأ لضم تخصص الرياضيات بما أنها تحرك فيه حاسة الفهم والتحدي مع الفرضيات، ثم تحركت نفسه نحو تخصص الطب، وتمكن من الحصول على قبول لدراسة الطب، وتمكن من قتل حالة الملل بجمعه بين الرياضيات التي يحبها والطب الذي سيمنحه معنى إنسانيًّا في خدمة البشر المحتاجين لخدمته، وحين وصلت دراسته لمرحلة التدريب ومباشرة المرضى دخل المستشفى مزودًا بأخلاقيات المهنة؛ وأولها أن يحترم خصوصيات المرضى ولا يقحم نفسه بعلاقات تؤثر على مهنيته، وكان متأكدًا تمام التأكد أنه لن يفرط بمهنيته، ولكن أمورًا أخذت تحدث أمامه حين لاحظ مرضاه وعلاقتهم مع الإيمان، وكلما تعزز إيمان أحدهم

(1) F.collins: The Language Of God 220. Pocket Books. London 2007.

ظهرت عليه علامات الرضا وتحمل مأساته الصحية، وظل يعبر عن محبة لله تتعمق مع تعمق الآلام، وتعجب من هذه العلاقة الغريبة بين الإيمان والرضا ومن ثم السعادة وقت الشقاء، وهنا تحرك عقله لطرح الأسئلة، وجاءه أول سؤال فلسفي مما لم يخطر بباله من قبل: إن كان الإيمان يمنح سندًا معنويًّا يقوي معنويات المريض في أحلك لحظات حياته فهذا يعني أن الإيمان قوة جبارة لها تأثير قوي يتغلب على حال الوهن والانكسار البشري، والا فما معنى ألا ينتكس إيمان المرضى مع انتكاس حالتهم الصحية فيصابوا بخيبة الظن بإيمانٍ لم يسعفهم وقت الحاجة...!؟[1]

هذا سؤال تحدى عقل كولينز وفتح له ما كان قاله الغزالي من قبل: «ميزة العقل في قدرته على كشف عجزه»[2]، وزادت حيرته وعجزه حين تواجه مع سيدة مريضة تسأله من باب الفضول وهي طريحة السرير: هل لديك رب تعبده...؟، ولم يجد لديه جوابًا، فهو حينها بلا رب، ولم يسبق أن سأل نفسه عن رب يعبده.

وابتدأت لكولينز رحلة تختلف جذريًّا عن رحلاته العلمية طلبًا للعلم في ردهات الجامعات، هي رحلة أخذته لطرق أبواب الكنيسة، لكنه بعلمه ونظرياته العلمية وعقله العنيد لم يجد لأسئلته فرصًا كافية في الكنيسة، ولكن قسيسًا فهم متانة عقل كولينز فأهدى له كتابًا للويس[3]، هو ملحد سابق تحول إلى مؤمن متوسلًا بالفلسفة

(1) Ibid 19-20.

(2) عن الغزالي وتعريفه للعقل انظر: **العقل المؤمن/العقل الملحد**، ص149.

(3) C.S. Lewis: Mere Christianity.Harper Colins. London 1952.

وركز على نظرية الأخلاق (Moral Law)، وأخذ كولينز يتعمق في نظريات الأخلاق وفلسفاتها، ولكن ظل عقله منشغلًا بالعلم ونظرياته، وهي نظريات ذات قوة جبارة في تأثيرها على العقل الملحد تبعًا للمعنى العام بأن العلم الطبيعي يغني عن الله، وهنا واجه كولينز علمه ونظريات العلم وتتبع النظريات العلمية واحدة واحدة؛ ليبحث هل يتعارض العلم مع الإيمان، وهل نحن بخيار حتمي بين أن نؤمن بالعلم أو نؤمن بالله، أم يمكننا الجمع بين العلم والإيمان، ووصل في نهاية البحث ليحسم السؤال بأن العلم والإيمان لا يتعارضان، وقد عرضت بتفصيل لمستخلصاته العلمية التي وصل عبرها لكشف لغة الإله، وبما أنه رئيس الفريق العلمي الأمريكي الذي عمل لسنوات على كشف الخريطة الجينية البشرية وشارك بالإعلان عنها مع رئيس أمريكا بيل كلينتون في مشهد عالمي من الغرفة البيضاوية في البيت الأبيض، وغطت فضائيات العالم الخبر، ومعه خبر مصاحب يمثله وجه فرانسيس كولينز لحظة نطق كلينتون بجملة تفيد عن معجزة الخالق، مع أن اللحظة لحظة انتصار كبرى للعلم البشري والبيولجي بأعلى صيغها، لكن كولينز هو من وافق على الجانب العلمي لخطاب كلينتون، وهو من أكد على عبارة معجزة الخالق، ومن لحظتها تأكد لكولينز أن الخارطة الجينية والـ DNA هي اللغة التي يخاطبنا بها الله، وأن من فهم الرسالة فسيعرف المرسل.

وعزز نظريته بفرضية فلسفية تحسم عنده سؤال الخالق عبر خلاصات بحثية، وانطلاقًا لهذه الخلاصات يطرح التصور الآتي:

- إن كان الله موجودًا فلابد أنه متعالٍ وما فوق الطبيعي.
- وإن كان ما فوق الطبيعي فلن يكون خاضعًا لقوانين الطبيعة.
- وإن كان غير مقيد بقوانين الطبيعة فهو لن يكون مقيدًا بقوانين الزمن.
- وإن كان غير مقيد بقوانين الزمن فهو في الماضي، وفي الحاضر، وفي المستقبل، بما أن هذه الأزمنة تخصنا ولا تلزمه، وهو كلها وأكثر منها. وهذا معنى كونه متعاليًا وما فوق الطبيعي.

ومن ثم فإن الله كما يستخلص كولينز:

- سيكون سابقًا على الانفجار الكبير، وسيبقى بعد فناء الكون إن وصل الكون لنقطة نهاية من نوع ما.
- ستكون لديه خاصية المعرفة عن حال الكون قبل نشوء الكون، وسيعرف حال الأكوان كلها قريبها وبعيدها، وسيعرف أيضًا شروط فرص الحياة في كل واحد منها.
- سيكون لديه علم عن فرص التطور لكل المخلوقات، وفرص الانتقاء وقوانين البقاء، وحتمًا سيعلم أفكار مخلوقاته حتى مع وجود حرية الإرادة عند هذه المخلوقات[1].

(1) Francis Collins: p 81-82.

هذه خلاصة لم يستعن كولينز فيها بالكتب السماوية، ولكنه يصل إليها عبر المنطق العلمي، أي اللحظة التي تلتقي فيها الفلسفة مع العلم.

***

هنا سنكون على حال من البرهنة العقلية لمساندة الشعور القلبي، وهي صيغة من صيغ (الاستدلال العقلي الوجداني)، ولكن كولينز احتاج لشفاعة البرهنة العلمية؛ لأنه بسبب تخصصه ومقامه الأكاديمي والمهني يشعر أن البرهان العلمي هو الحجة، كما في الطب البرهاني[1]، والعلم خلاصة بحثية، وأراد كولينز أن يكون إيمانه خلاصة بحثية كذلك، وإن كان أمره شبه محسوم منذ مواجهته للموت على وجوه مرضاه مما جعله يرى الموت رسالة يقرؤها لتدله على سبب قوة الإيمان لهؤلاء المرضى الذين يؤمنون أن هناك حياة بعد الموت، ومن ثم فهم لا يموتون وإنما ينتقلون من حياة إلى حياة.

وهنا فحالة الخشوع العقلي تعني ليونة العقل وانكسار غلوائه، وهي المسألة التي وقف عليها روسو بتوسع[2]، وهناك تصور ثقافي بقوة العقل وكماله ورجحانه، مع أن كانط أشار إلى خطر البذخ العقلي، وأن العقل الخالص يصاب بالعجز، وقبله كانت تلك رؤية

(1) Evidence Based Medicine.

(2) عن روسو ونظرياته في علاقة العقل بالوجدان، انظر: الفصل الرابع من كتابي **العقل المؤمن/العقل الملحد**.

أبي حامد الغزالي بأن ميزة العقل هي في قدرته على كشف عجزه [1]، كما أن الشواهد تشير إلى أن العقل يلين حتى يقارب القلب أحيانًا في مستوى الشعور، على أن العقل والقلب يختلفان وظيفيًّا وإن لم يك نوعيًّا، بمعنى أن وظيفة العقل استدلالية، ووظيفة القلب خشوعية، وفي نهاية المطاف يلتقيان؛ لأن الفروق بينهما وظيفية فحسب، ولكل واحد منهما وظيفته التي تخدم المعنى المستهدف، وتعريفات معجم (أكسفورد وكيمبردج) تعطي حيزًا لتجاور الوظيفتين مع تمايزهما.

وكما يستطيع العقل أن يؤمن وأن يلحد، وتلك هي أطروحة كتابي (**العقل المؤمن/العقل الملحد**) وهو شقيق هذا الكتاب...؛ فإن العقل يستطيع أن يشعر، كما ينص على ذلك تعريفه المعجمي في أهم معاجم اللغة الإنجليزية، وكما هو الاستقراء البحثي في سير فلاسفة كبار اعتمدوا العقل أساسًا لبحوثهم واستخلاصاتهم على أن التجربة الحية للواقع البشري تعطي أمثلة لذلك.

ويحسن بنا أن نستجلب نظرية العقلنة في الثقافة الإسلامية والمنسوبة إلى التبصر القلبي وتعقل القلب في تعريف الجرجاني للعقل: «العقل جوهر مجرد عن المادة، مقارن لها في فعله، وهي النفس الناطقة التي يشير إليها كل أحد بقوله: أنا»[2]، وكون العقل معادلًا للنفس كما في تعبير الجرجاني وهو النفس التي نشير إليها

(1) توسعت في عرض نظريات كانط والغزالي في الفصل السادس من كتابي: **العقل المؤمن/العقل الملحد**.

(2) الجرجاني: **التعريفات**، ص78، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، 1986.

بضمير أنا، مما يجعله متغيرًا وناقصًا بسبب مكوناته البنيوية الأربعة (الأنا / الزمان/ المكان/ اللغة)[1]، وهذه الأنا متغيرة حسب تغير الزمان عليها مع مراحل العمر وتغير المكان حين تتنقل الأنا من موقع إلى موقع، وتبعًا لذلك فإن كلمة أبي حامد الغزالي تأتي لتكشف هذه الحقيقة بقوله: «ميزة العقل في قدرته على كشف عجزه»[2]، وهذه صفات تجعل العقل يتواضع عن غلوائه ويقترب من القلب في المسائل العميقة التي تحتاج للوجدان وللعقل معًا، وهنا يولد مفهوم (الاستدلال العقلي الوحداني)، بما أن مفهوم النفس حسب الجرجاني وحسب روسو سيلغي التعارض بين القلب والعقل في بناء الشعور وترفيعه لمستوى القناعة الوثيقة، وهي المرحلة التي تبلغ فيها النفس درجة أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وفي هذه المرحلة سيخشع العقل تمامًا كما يخشع القلب.

***

وسأقف على سؤال (هل يلحد القلب) في الفصل الثالث، ووقفة أخرى على سؤال (هل الأفكار شعورية) في الفصل الثاني.

(1) فصلت في تحليل تعريف الجرجاني في كتابي: **العقل المؤمن/العقل الملحد**، الفصل السادس.

(2) الغزالي: **المنقذ من الظلال**، ص153، تحقيق جميل صليبا، وكامل عباد، دار الأندلس، بيروت، 1981.

الفصل الثاني:

تفسير الحياة

«إنما أنت أيام معدودة... فإذا ذهب يوم ذهب بعضك»

رابعة العدوية

□□□□□ □□□□□□.indd 53 10/20/20 9:10 AM

أولاً: ميلاد المعنى

1. المواجهة الأولى

- أ -

هناك حالات تأتينا فيها المعاني قبل أن ننضج للتعرف عليها، وهنا ستأتي دون أن نعتني بتفسيرها، وستظل تنتظر فرصها معنا لتتحرك وتدفعنا لقراءتها، وستبقى ساكنة في مكان ما في ذاكراتنا إلى أن يأتي يوم نراها فيه وكأنها توقظنا من غفلة أو ربما تؤنبنا على هذه الغفلة؛ وذلك حسب حال غفلتنا إن كانت بريئة أو آثمة، وسيكون وقع المعاني هنا مختلفًا تبعًا لمدى قسوتنا عليها، وإذا حضرت فإنها لن تكتفي بمجرد التذكر ومجرد السرد كما لو كانت قصصًا للتسلية؛ بل ستتطلب منا قراءة تعيد فهمنا لماضينا، وتجعلنا نحترم تذكرها ونتبصر بطريقة تولدها أول مرة، ومن ثم معنى بقائها منتظرة ليوم تتكشف فيه، وسننجح معها بمقدار ما نستنبط فيها من دلالات.

ومن المعاني التي لم أكن لأعرفها لولا رواية والدتي لها وترداد ذكرها وكأنها أرادت تحفيظي قصصي الخاصة، وقد استعادت أمي عليَّ حال ميلادي في منتصف فبراير 1946م، وكمل والدي معها وصف

الحدث، حيث ولدت في منزل في وسط مدينة عنيزة فضله والدي لقربه من دكانه وقد انتقل من حارة أجداده التي تقع خارج محيط الديرة، والديرة تعني وسط البلدة، وحي الصفا الذي هو حي الأجداد يقع بين بساتين من جهته الشرقية وأراض فضاء في جهته الغربية، ويتكون من بضعة بيوت أحدها بيت أجدادي الذي تعاقبت سكنى الأسرة فيه على ثلاثة قرون؛ هي عهد أهلي في عنيزة بعد هجرتهم إليها من ديارهم الأصلية في حائل وقرى شمر المحيطة في حائل، ولكن الأسرة لم تنقطع عن حائل وظلت عوداتهم إليها تتكرر، وآخرها هي العودة التي كانت بعد ميلاد والدي عام 1907م، حيث نشأ والدي في حائل وغادرها في سن الخامسة عشرة، وشق طريقه في الحياة، وسأذكر قصته في الفصل الرابع، وحين عاد لعنيزة عام 1944م قرر أن يتزوج وأن يفتح دكانًا، وهذا ما جعله يترك حي الصفا ليكون بيته قرب دكانه، وهو بيت يقع في شارع له مدخل واحد فقط وكأنه قلعة محصنة، ويتضمن سبعة بيوت ومنفذها الوحيد يفتح على السوق التجاري، وكأن شارعنا استثناء اجتماعي لبيوت تسكن بين الدكاكين، وفي هذه البيوت ولد ستة أطفال في عام 1946م، وبعد أشهر من المواليد أصيب خمسة منهم بحصبة حادة وعنيفة انتهت بموتهم، وبقي واحد فقط لم تصبه الحصبة وسلم من الموت، وهذا هو أنا الذي لم أعلم بموت رفاقي إلا بعد أن روت أمي قصة شارعنا ذاك الذي فارقناه بعد سنتين؛ لنتحول لبيت اختاره والدي لمجاورة الشيخ عبد الرحمن السعدي الذي له مكانة خاصة في نفسه كما سأذكر في الفصل الرابع.

حين انتقلنا للبيت المجاور للشيخ وبعد مرور عامين على انتقالنا لحقت بنا الحصبة وأصابتني وكأنها تقول لي لن تفر مني، وأمسكتني وقد بلغت حينها الرابعة من عمري، وأتذكر كيف كانت حالي، ولا أعلم هل تذكري حقيقي أم هو بسبب رواية أمي لما حدث حتى صرت كأنني أراه ومن ثم أتذكره، وقد كانت أمي تروي لي حالتي مع المرض واشتداده عليَّ حتى كانت تظن أني سألحق برفقتي الذين رحلوا قبلي وتخلفت عنهم، ومما روته طرفة البطاطا، وكانت قد سلقت لي حبة بطاطس لتحاول إطعامي بعد أن عفَّت نفسي عن الأكل مع شدة الحمى، وكنت أدفع يدها عن فمي، وفي اللحظة ذاتها كانت أختي نورة التي تصغرني تجلس جنبي وحاولت أن تلتقط البطاطا وأمي تمنعها؛ لأنها تريدها لهذا الولد المريض الذي يهده الجوع والمرض، والطرفة حدثت بعد أن انتقلت العدوى لأختي ومرضت بعد أن شفيت أنا، وهنا جاء دورها مع حبة بطاطس مسلوقة، وكانت أمي تحاول أن تلقمها شيئًا من البطاطس وهي ترد بصوت هزيل متكسر: (مابي..مابي) وتصد بوجهها وهي تئن من ألمها، وأتذكر صوت والدتي -رحمها الله- جيدًا وهي تقلد صوت نورة مرددة عبارة (مابي.. مابي) بترجيع صوتي متكسر وموجوع، وقد رددت القصة علينا بتمثيل صوتي كامل ومعبر مرارًا كلما طلبناها منها ورغبنا بفتح دفاتر الذكريات، ومازلت أحب البطاطس المسلوقة رغبة في استعادة الحدث حين تتوارد قصصنا مع أختي نورة شقيقتي الأولى وطريدتي كما هو التعبير الشعبي عن الشقيق

الموالي، وكأنهم يقصدون أن الشقيق أو الشقيقة يطرد الأكبر عن حضن الأبوين ويحتل موقعه الذي كان خاصًا به؛ ولذا تنشأ الغيرة بين المطرود وطارده، فهي طريدتي بمعنى التي طردتني، وقد سلمنا من الحصبة ولله الحمد، لكن معنى رحيل رفاقي الخمسة ظل يعاود تفكيري ليتعزز مع توالي القصص التي تعيد صياغة معاني الحياة عبر أسئلة تفرضها أحداثها.

ومن قصص الحياة ومعانيها أننا في يوم دراسي حينها عام 1953م وكنت حينها في الأولى ابتدائي تفاجأنا أن المدرسين يدورون علينا في فصولنا ويطلبون منا الذهاب لبيوتنا، وكان ذاك تصرفًا غريبًا ومريبًا ولم يذكروا لنا السبب، فقط أخرجونا من المدرسة ولا أحد يعرف لماذا، ولم نفرح بهذه (الخرجة) مع أننا عادة نحتفل بأي شيء يفكنا من رباط المدرسة، وزادت المخاوف حين شرعت في السير في الشوارع وكانت خالية على غير عادتها، وكان طريقي يمر من سوق (القاع) وهو سوق نسائي من عادته الاكتظاظ بالبائعات والمشتريات، وكان مغلقًا لا أحد فيه ولا مارة يقطعونه، ثم دلفت لأسواق الرجال وهي تتلو سوق النساء مباشرة وكانت خالية، ودكان والدي مغلق في غير وقت إغلاق، وهنا اضطررت للسير بمحاذاة طالب ليس من زملائي لكنني أحتاجه، وبدا أنه يحتاجني أيضًا لنحتمي بشيء من الرفقة، وتزايدت مخاوفي كما رفيقي، وسألته مرة ومرتين ما الذي يحدث، وهو يتصدد عن الكلام وبعد إلحاح قال لي، سأقول لك بشرط ألا تبلغ أحدًا، وحين قبلت شرطه قال لي:

الملك مات، قالها همسًا مع أن ليس هناك أحد حولنا، وهذا زاد من خوفي أولًا لتعمده الهمس، وهذا صنع مزيدًا من الريبة في نفسي، والثانية أنني لم أستوعب هذه الجملة وكأنها أحجية أو تعويذة، أو أنه يلعب بعقلي فقط، المهم أن خوفي زاد وتضاعف، والفراغ من حولي يخيف أكثر، وطال طريق البيت وكأنه يتباعد عني والدكاكين مغلقة والأسواق خالية ولا وجود لأي صوت، ولا من صوت يخرج من البيوت التي عادتها الضجيج في وقت الضحى وحيوية النهار المعتادة، وفارقني رفيقي حيث انحرف جهة منزله وبقيت وحدي لأسير ما تبقى لي إلى البيت، وحقيبة كتبي بيدي ممسكًا بها بشدة وكأنها حصانتي الوحيدة وسندي في وحشة الخلاء المطبق على موقع غادرته الحركة والأصوات والنداءات كما هو نظام الباعة في السوق.

أخيرًا وصلت لبيتنا ليفجعني صوت والدي وهو يسترجع ويكبر ويسأل الله اللطف بعباده، وهنا بلغ الخوف مني أقصى درجاته، وأحتاج فقط أن أفهم ما الذي يجري.

كان الخبر هو خبر وفاة الملك عبدالعزيز رحمه الله، وقصة الخوف جاءت لأن عبدالعزيز هو من أشعر الناس بالأمن والأمان من بعد زمن الفوضى التي كانت تعم الجزيرة العربية، وكان الأمن فيها معدومًا، وكل مدينة تتحصن من داخلها وتدافع عن نفسها، وإذا سمعوا صوت الطبول تضرب في (المجلس) وهو ميدان الجامع الكبير فمعنى الطبول هو إعلان الطوارئ، وعلى كل بالغ أن يأخذ

أي سلاح في بيته، وإن لم يجد سلاحًا يأتي بعصا أو بمجرد نفسه ويتجمعون في المجلس حيث:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم
في النائبات على ما قال برهانًا

وغالبًا يكون ذلك هبوبًا للحرب والدفاع عن المدينة، ولا يتأخر أحد هنا بنفسه وماله، وطبعًا بحياته قبل أي شيء وفوق أي شيء، تلك هي الصورة التي يعرفها كبار أهلنا ولا نعرفها نحن؛ لأن عبدالعزيز بالنسبة لنا هو من فتح لنا المدرسة التي خرجنا منها تلك اللحظة لنعود إلى بيوتنا، أي نعود لخوفنا، وهو الذي جعل الناس يفتحون دكاكينهم ببضائعها المنوعة ويتركونها في الليل لا خوف عليها من النهب، فعاشوا آمنين مرتاحين بفضل من الله عليهم؛ إذ وهبهم بطلًا عظيمًا جعلهم يعيشون في بلد آمن وسلام ضاف يشمل الصحاري كما يعمر المدن.

ومات عبد العزيز...

هنا تحركت الذاكرة واستعادت خوفها على واقعها وعلى مستقبلها فأغلقوا دكاكينهم ولجؤوا لبيوتهم، ونحن غادرنا مدرستنا، والمدرسة والدكان رمزان سلميان يعنيان الأمن، ويعنيان أن طبول المجلس لا تحتاج للقرع؛ فهناك جيش كان والدي أحد أفراده، ولكنه اليوم يدلف لبيته مبتهلًا أن يلطف الله بعباده؛ فالأمن سقط، عبدالعزيز مات، فما الذي سيجري.

أعرف تمامًا صورة الخوف الذي عم عنيزة وعشتها وخفت حقًّا واضطربت، لكن الخوف لم يدم ولله الحمد؛ إذ طارت الأخبار بعد ساعات من بيوت الناس الذين لديهم مذياع، وصاروا يدورن على الناس ويصوتون بأعلى صوتهم عن خبر مبايعة سعود بن عبد العزيز ملكًا على البلاد، وتوالت الأخبار عن انتظام الانتقال في الحكم وملء الفراغ، وتحرك وفد من عنيزة لمبايعة الملك سعود، وجاء سعود بنفسه وزار عنيزة، ورأيت الملك سعود وهو يمر ماشيًا على قدميه في موكب مهيب بين شوارع عنيزة ويزور الشيخ السعدي في بيته، وكنا جيرانًا للشيخ، وذهب والدي ضمن المسلِّمين على الملك، ورأيته وهو ينزل من الدرج خارجًا من بيت الشيخ، كان وجهه بهيًّا وبشوشًا يتبسم في وجوه من حوله، وكنت بجسدي الصغير أحاول أن أقفز فوق عتبات الدكاكين لأرى وجه الملك إلى أن تباعد الموكب ولم أعد قادرًا على أن أرى، حيث صرت في آخر الصفوف، وتتغلب علي أجساد الرجال فتزيحني عن الموكب لأعود للبيت وأشرع في صناعة القصص للأطفال من أقراني الذين فاتهم مشهد الملك على درج منزل السعدي.

انجلى الخوف وجاء الفرح وانفتح مع الملك سعود زمن من الرخاء، وفتح مزيدًا من المدارس، وفتح مستشفى كبيرًا في عنيزة كان أصله فكرة هب أهل عنيزة للتبرع وجمع المال من أجل بناء مستشفى، وحين علم الملك سعود بمشروع جمع تبرعات لبناء المستشفى في عنيزة أمر فورًا ببناء المستشفى على حساب الدولة، وتم توجيه تبرعات أهل عنيزة لمشروع زراعي لحفر آبار للزراعة.

- ب -

في السنة الثانية ابتدائي عام 1954فاجأنا بموت زميل لنا، وهنا اختلف وقع الموت عندي، فهذا حدث يتصل بسمعي وبصري، كان زميلنا يملأ ردهات المدرسة صوتًا وحركة، كنت أراه يجري بين الفصول ويصرخ علينا مثلما نصرخ به، ويتقافز مثلنا فوق الشجرة العملاقة التي تعمر وسط ساحة المدرسة وتغطي بظلها حيزًا عريضا يتسع لفصلين دراسيين، حيث تخرج بعض الفصول للدرس تحت الشجرة وننتشر في ظلها متحلقين حول المعلم وهو يجلس وحده على كرسي ونحن جلوس في حلقة دائرية، ولم يكن زميلنا ذاك في صفنا نفسه، ولكنه في صف مجاور، وكان ينشط بحركاته ويلتقط ثمر السدر ونسميها (النبق) ويعطينا منها خلسة من خلف ظهر الأستاذ، كان على درجة من الحضور البصري والسمعي ملء رؤوسنا، والآن اختفى، فجأة رحل وأصبح خبرًا يتهامس به الرفاق، وكأننا نخاف من التفوه بخبره ولا نقوى على نطق الكلمة.

أخافني الخبر وعجرت عن إغماض عيني عن صورة رفيقنا التي تتقافز أمامي، وكنت أسير بجانب والدي خارجين من المسجد نحو البيت ولم أستطع أن أقول الخبر لوالدي، وغرقت متفكرًا في معنى الموت، وكيف يموت الحي ويفقد حياته، وتصورت أن هذا يحدث بانقطاع النفس وليس لسبب غيره، وتصورت لحظتها أنفاسي وهي تخرج من أنفي ومن فمي، وبدا لي لو توقفت هذه الأنفاس؛ فهذا

هو ما جرى لزميلي، ولم أتجرأ أن أحكي لوالدي عن تصوري هذا، لكني صرت أنظر في الجدران من حولي وشرفات البيوت وأتصورها تختفي وأني لم أعد أراها، وأرى أنفاسي تتصاعد وكأني أحاول التأكد أنني أتنفس، وشغلني هذا الشعور وقلبي مكلوم على زميل مات، وكنت أسير مع أبي وكأني لست أسير أو أنني مجرد هباء يتحرك، وخطرت في رأسي فكرة أن النَّفَس لا ينقطع بل ينتقل لجسد آخر، وأن التنفس ليس له حد ينقطع عنده، وهذه فكرة أطربتني وأحسست معها أن أنفاسي التي تخرج مني وسببت لي توترًا بسبب خبر زميلي ستظل دون انقطاع، وأن أنفاس زميلي راحت لغيره وأنها مستمرة، وتقبلت هذه الفكرة ربما لأنني بحاجة لراحة من نوع ما حتى لو كانت وهمية، لكني ارتحت فعلًا وتصورتني وقد حسمت سؤال الحياة واستمراريتها.

كان هذا شعورًا طفوليًّا حسم القلق الطفولي الذي جاء قبل وقته واحتاج لجواب يرضي معضلة احتلتني لبعض الوقت، ثم زالت مع أريحية الطفولة وشقاواتها الصارفة عن أي سؤال ليس ذاك وقته، ويظل سؤال الحياة بانتظار مواعيده.

فهل كانت هذه نوعًا من ميلاد المعنى عن الحياة وما وراء الحياة...؟!، لقد ظلت المعاني هذه تتوالى مع مواعيد متنوعة سأعرض فيما يأتي نماذج لها عشتها وشهدت عليها.

2. وصية جدتي

على فراش مرض جدتي نورة الحمد الخلف أوصت أمي أن تعتني بابنها الأصغر عمي عبدالرحمن؛ فقد كان ضعيف البنية وتعتريه أمراض لازمته معظم عمره الذي لم يمتد كثيرًا، وقد اهتمت أمي بوصية خالتها وظلت ترعاه وتهتم بغذائه تحديدًا وتعد له غداءه اليومي إلى أن كبر واستقل بنفسه وسافر للطائف ليكون مع عمي الأكبر علي الذي كان إمام الجيش منذ كلفه الملك عبدالعزيز بهذه المهمة، وعمل عمي عبدالرحمن في مكتب إمام الجيش، لكنه تعرض لمرض كدر عليه مقامه في الطائف فعاد إلى عنيزة عام 1942م، وعمل في المدرسة العزيزية إلى وفاته وهو لم يتجاوز الأربعين، وقد درسني في سنة أولى ج، وهذه تسمية قديمة لما أصبح يسمى بالروضة، وهو صف يضعون فيه الأطفال الصغار تهيئة لدخولهم للصف الأول الرسمي، ولقد عاش عمي نحيل الجسم وضعيف البنية لكنه قوي في معنوياته العالية جدًّا مع خفة دم ونكتة جاهزة جعلته محبوبًا بين الناس، وكان الشيخ عبدالرحمن السعدي -رحمه الله- يحبه ويستظرفه، ومرة سمع الشيخ عن عمي نكتة مع رجل رأى عمي ممتطيًا بسكليته وسط السوق وبين الناس، فقال الرجل مستنكرًا ذلك على عمي: هاه يالغذامي تركب حصان إبليس؟! وهذا تعبير عام يطلق على البسكليت (الدراجة) فرد عمي مباشرة: أبشرك اشتريت البسكليت من إبليس وهو الآن حصان الغذامي، وأعجب الشيخ

بالرد وأرسل لعمي يبلغه باستظرافه للنكتة، وقد علمني عمي ركوب حصان إبليس، وانشغل عني مرة في أثناء التدريب، وكنت قد انطلقت بالبسكليت وتجاوزت الحد الآمن الذي كان محددًا لي، وأقبلت شاحنة كبيرة تحن وترعد من بعيد، وكنت أسمعها وأشعر بالخوف من اقترابها مني، ولكني كنت أكابر وأتصبر دون مناداة عمي للإمساك بمقود الدراجة وتوجيهها نحو المنطقة الآمنة، ولم أشعر إلا وعمي يأتي مجنحًا يركض، ولركضه وجيف وصلني هواؤه قبل وصول يده لتشد على الدراجة ويتلقاني بيده الأخرى وأنا أقع مع دراجتي أرضًا، ويمر (اللوري) قربنا بأمتار، وكانت لحظة مرعبة لي مع حرصي على إظهار تماسكي مدعيًا الشجاعة واللامبلاة، وبعد أن وصلت لمرحلة رأى عمي أني تمكنت من السيطرة على التوازن فوق الدراجة سمح لي بأن آخذ دراجتي إلى وسط البلدة حيث بيتنا، وكان الوقت حينها وقت أوائل شهر ذي الحجة وحلول موسم الأضاحي، حيث يجلب المزارعون الإبل والخراف لبيعها في ميدان المجلس وفيه مهرجان البيع والباعة والناس تتجمع لشراء أضاحيهم، كان الطريق لبيتنا يمر مقاربًا لسوق المواشي، وبينما كنت أسير على دراجتي والخوف يعتريني من فقدان توازني إذا بموكب جمال يمر من قربي واختل توازني وانجرفت نحو الحافة وضرب جسدي بالجدار، وتجرحت يدي اليمنى بسبب انكبابي على حافة الجدار، وفي اللحظة نفسها سمعت صوت عمي يمر على الجانب الآخر مسرعًا على دراجته،

فاضطربت خوفًا من أن يراني بتلك الحال المزرية وتنكسر فرحتي بشهادة التفوق التي منحها لي حين قال لأبي إن عبدالله أصبح بطلًا في سباق الدراجات، هذا البطل الجريح على حافة جدار مذعورًا من جمل مر بجانبه كاد يدوسه أرضًا لولا جدار ناب عن الجمل وتولى المهمة نيابة عنه، وذهبت لبيتنا مكملًا الطريق ماشيًا، وأجرجر الدراجة خالية السرج من فارسها المكسور، وجهدت لأخفي جروحي عن أمي التي كانت مشغولة لحظتها في المطبخ ولم تلحظ حال ولدها ذي القروح.

ظل عمي أثيرًا عند والدي، يأتي لبيتنا كل يوم مع استقلاله في بيت يخصه، ورزق بذرية طيبة تشبهه في رقي النفس والمسلك، وفي يوم من الأيام كان عمي يسير مع ابنه عبدالله عبر طريق يتخلل مزرعة، ومروا على مزارع يحاول أن يرفع محصوله من حصاد البرسيم على ظهر الحمار ليجلبه إلى السوق، وطلب معونة عمي ليرفع معه البرسيم، هبَّ عمي وتحامل على جسمه المريض ورفع البرسيم حتى استقر على ظهر الحمار وانطلق الفلاح بمحصوله دون أن يلتفت ليرى ما جرى خلفه، والذي جرى هو أن عمي سقط على الرض مغشيًّا عليه وبجانبه ولده الصغير الذي ظن أن والده يمازحه كعادته في ملاطفة الصغير والكبير، ولكنه هذه المرة لم يك يمزح بل ضربته طعنة المرض في الصميم، وظلت حاله تسوء حتى نُقِل إلى المستشفى، وكنت معه منذ تلك اللحظة ولازمته هناك حيث ظل لساعة تحت المغذي، وظل يسألني متى ينتهي المغذي كي

يحرك ظهره الذي احتد عليه بالوجع، وكنت أراقب المغذي وأبلغه كل لحظة عما تبقى، وإذا سكت سألني هل انتهى؟ وأنا أبلغه بتقدير المتبقي، ويظل يتألم ويتوجع ويتصبر، وأنا بجانبه احترق انتظارًا ويدي بيد عمي أواسيه وأجس حرارته، وأمسح على جبينه وعلى ظهره بيدي الأخرى، وأرمق باب الغرفة لعل أحد المرضين يمر عبر الممر فأدعوه ليحل مشكلة المغذي الذي زاد معاناة عمي وأوجعه كثيرًا في ظهره ويود فقط أن يستدير في نومته ليخفف الألم عن ظهره، وفجأة أحسست أن عمي هدأ وسكن صوته، فصدقت قول المرض حين ذكر لي أن المغذي يتضمن مسكنًا سيجعل آلامه تخف، فقلت في نفسي لعل وجعه قد سكت ودخل في نوم خفيف، ولكن نومه لم يعد خفيفًا، إذ جاءتني الصدمة حين انتهى المغذي فتكلمت مع عمي لأبشره بنهاية المغذي التي ظل ينتظرها، ولكنه لم يرد عليَّ، فخفت وهرعت إلى الممرض الذي جس على نبض عمي ليقول: البقية في حياتك، لم تمر علي هذه الجملة من قبل، لكني توقعت معناها فهويت على الأرض، ولحظتها كان أحد أصدقائي قد جاء إلى المستشفى حين سمع بذهابي إليها مع عمي، أمسك بي صديقي يحاول تقوية عزيمتي، وكنت ملزمًا بأن أتقوى للموقف، وهذا عمي الحبيب القريب لقلبي وعاطفتي وكأنما هو أخي تبعًا لعطف أمي عليه ووصية جدتي برعايته، وها هو الآن ينتهي بين يدي، ووصية جدتي ها هي تنتهي، ولن يبقى من عمي غير ذاكرة المحبة.

وحين شيعنا عمي كانت أمي تجهش بالبكاء وقد طارت منها الوصية، والوصية تعود لبارئها راضية مرضية، كنت متماسكًا طول فترة التشييع، وانهرت بعد أن عدت إلى البيت، وأنا أشعر أني صرت وحيدًا، وأن وصية جدتي التي لم أرها ولكني ظللت أسمع عنها من محبة أمي لها قد عادت إليها ولم يبق شيء لأمي لتخدم به خالتها الآن، ولولا أني سافرت إلى الرياض مباشرة للدراسة في الكلية وإلا لكنت واجهت فراغًا قاتلًا في عنيزة بعد غياب عمي الذي كان يملأ حياتنا فرحًا وخفة دم، ويتحول صاحبًا لكل من احتاج لصحبة وأنيسًا لمن احتاج لسلوى عن هموم الحياة، أما والدي فقد ذكر لي بعد ذلك أنه قد رأى في الحلم أن يده اليمنى قد انكسرت، وراح باله لعمي علي وهو الأكبر وبمقام الأب للأسرة كلها؛ لكن اليد اليمنى هذه المرة هي عبدالرحمن، وحين ذهب والدي لبيت عمي من الغد بكى وقال، «ذاك يدي اليمنى وانكسرت الآن». سمعنا كلمته؛ أما دموعه فقد داراها عنا، ووحدي رأيت دموع أبي تنحدر، وهو يدير وجهه نحو الجدار ليخفي حزنه، كانت درجة فقدي لعمي عنيفة، وهو الذي كان بين يدي حتى نطق المرض بجملته تلك وكأنه يتجنب أن ينطق بكلمة الموت ويحمِّلني في الوقت ذاته عبء ما بعد تلك اللحظة، وظلت البقية في حياتي دعاء ومحبة لرجل ولدته أمه مريضًا ولاحقه المرض يزوره عامًا ويخف عنه عامًا، حتى سقط تحت ظلال النخيل في مزرعة كانت ملاعب صباه وطريق كل مساراته.

3. خارج الوجود

أن تصبح خارج الوجود لا أنت حي ولا أنت مفقود، هكذا كنت لوقت لا أعلم مقداره في منى عند جمرة العقبة عام 1399هـ/ 1979م، أما الذي حدث أنني وجدت نفسي ملقى على قارعة الطريق عن يمين جمرة العقبة بعيدًا عن الزحام، تنبهت من غياب لا أعرف مداه، وكل الذي أعرفه أني كنت متجهًا لرمي جمرة العقبة، وكنت أسير ملبيًا ومكبرًا ومبتهلًا لله متجهًا بقلبي وكل مشاعري إليه، وكنت أحس بدهشة المشاعر، واندمجت مع أصوات الحجيج ووجيبهم وتنوعات ألسنتهم وسحناتهم، وكان ذلك بعد عام من عودتي من البعثة، حيث أخذتني الحياة في الغرب لبضع سنوات بعيدًا عن أجواء مكة وعن خلطة الحجيج التي لا تشبهها خلطة في العالم، وحين دخلت أول نفق بين مخيمنا وموقع الجمرات وهي أول مرة أرى فيها أنفاق منى، وفي ذلك النفق دخلت مع أمم تزحف وسط النفق ولأصواتهم صدى يرتطم بجدران النفق فيتضخم الصوت ويتشكل مزيجًا في مزيج إيقاعي هادر لا تميز ألفاظه ولا جمله، إنه صوت يهدر في لب القلب ويهز كل ما في أعماقك، ووجدت نفسي أجهش بالبكاء من شدة أثر موجات الأصوات داخل النفق الذي كبسها في كبسولات صوتية تنفذ لشغاف الروح، وأخذني الخشوع والدموع حتى استعضت بها عن الدعوات، ودخلت في وحدة وجدانية مع جموع الحجيج، وأحسست أني خارج المكان وخارج الزمان، وأني لم أعد في الدنيا التي أعرفها لدرجة

أني وددت ألا أخرج من النفق لولا أن تدفق الجموع لا يسمح لي بالتوقف وسطه، وخرجت مع الحجيج من النفق متجهًا إلى جمرة العقبة، وظل الطريق سالكًا وإن تلامست الأجساد بالأجساد، ولكن الحيز معقول والطريق يسير بانسياب بالرغم من التزاحم، ثم أخذ الزحام يشتد ويضغط، ويزداد تضييقًا كلما اقتربنا من الجمرة، وكنت أشد بيدي على الحصوات التي معي وعددها إحدى وعشرون حصوة لي ولزوجتي ولبنتي غادة وعمرها حينها سنتان لكن نوينا الحج عنها، وحين شارفت الوصول لمنطقة الرمي أحسست بموجة من الحجيج من خلفي وكأنهم طوقوني وصرت اندفع معهم وارتبطت حركتي معهم مندفعًا بضغطهم علي من خلفي ومن جوانبي، وفجأة انقلبت علينا موجة حجاج تراجعوا بعد فراغهم من الرمي وأقبلوا بقضهم وقضيضهم علينا وهم راجعون، وهنا صرت بين موجتين واحدة كانت تحيط بي وهذه أخرى تواجهنا كلنا، وأذكر فقط أن جسمي ارتفع عن الأرض وتعلقت بين المجموعتين وكنت أصارع لألمس الأرض بقدمي من تحت ولم أستطع، وبقيت معلقًا دون سيطرة مني، هذا هو آخر عهدي بنفسي، ولا أعرف قط ما جرى لي بعد ذلك، غير أني تنبهت وأنا على قارعة الطريق عن يمين الجمرات بعيدًا عن الزحام وكنت ملقى على الأرض، نظرت في نفسي وتفقدت جسدي ولم ألمح أي أثر لرضوض أو خدوش، كنت سليمًا جسديًّا لكني مذهول روحيًّا، وظللت على الأرض ثم عدلت من جلستي وأخذت باستعادة نفسي وأنفاسي والتبصر بحالي،

وصرت أرتجف من هول ما تكشفت عنه حالتي، وأدركت أني كنت ميتًا لبعض الوقت ولا أدري عن مداه، وها أنا ذا عدت حيًّا، وصرت أراقب حركة الناس مع رمي الجمرات، فرأيت فعلًا ما جرى لي، لقد تعمدت إحدى موجات الحجاج أن تعود لخلفها بعد فراغهم من الرمي، وكان الواجب أن يتقدموا للإمام ثم يسلكوا طريقهم بعد الابتعاد عن منطقة الجمرات، وهذا هو الذي تسبب في حشري بين مجموعتين، وحدث الذي ما لا أعرفه ونجاني الله منه، ولا أدري كيف ترحل جسدي من محشره إلى الرصيف البعيد عن الزحمة، وهل الجموع لفظتني تلقائيًّا أم أن أحدًا ما زحزحني جانبًا.

نهضت وتوجهت لرمي جمراتي بيسر عجيب؛ وذلك أنني لاحظت أن الزحام والتزاحم هو مع المقبلين لمواجهة الجمرة، ولكن لو مشيت على الجانب البعيد وتجاوزت الجمرة ثم عدت من الجهة المقابلة فلن يكون هناك زحام؛ لأن الناس يأتون عبر جسر الجمرات ويتجهون كلهم باتجاه واحد يتحاشرون فيه، ومن عاد منهم على عكس الطريق ضغط على القادمين، وهذا سبب لكوارث كبيرة تم تفاديها بعد ذلك عن طريق تنظيم الحشود ومنع الارتجاعات وتفويج الدفعات.

وعدت للمخيم ولم أرو قصتي لزوجتي؛ لأن رعب الحدث لا يمكن تحمله، خاصة أننا لم نزل في أول يوم للجمرات وسيأتي يومان بعده، وكنت أحاول طمأنة نفسي واستعادة توازني النفسي كي أتمم بقية المشاعر، وقد مرت كلها بسلام والحمد لله.

4. أبواب الرحمة

في صباح اليوم التاسع من ذي الحجة 1417هـ (1997/4/15م) كنا في منى وبقي علينا سويعات كي نشد الرحال لعرفة، وكنت مستلقيًا على فراشي في المخيم لأحصل على بعض الراحة استعدادًا لما سيأتي من جهد في الترحل وفي البحث عن مكان في عرفة وما يتبع ذلك من جهد متوقع، ومع هدأتي واسترخائي أحسست أن رفاق الحملة يتحركون واحدًا تلو آخر نحو مدخل المخيم، وكانوا يتحركون بصمت مطبق، وفي الوقت ذاته زادت حركة الطائرات المروحيات فوق المخيم وأنا تحت غطاء الخيمة مما يحجب رؤيتي لحركة المروحيات، ولكن تزايدها وتوالي ذهاب الناس لمدخل المخيم وتجمعهم حوله أثار ريبتي، فقمت بنية الاستطلاع دون أن أتصور بأن خطرًا داهمًا يدور حولنا، وحين اقتربت من المدخل جهدت لكي أجد لي فتحة بين الناس كي أرى الخارج، وقبل أن أطل لأنظر سمعت الناس يتحدثون عن حريق ويبدو على وجوههم الذعر والخوف، وصوت الحوامات يهدر في سماء منى، ولاحظت أنها ترش مادة عرفت أنها مسحوق لإخماد الحريق، وبدأت الأخبار تتواصل علينا متقطعة، وكل خبر أسوأ من سابقه، وهي أخبار يأتي بها بعض من خرج من رفاقنا وراحوا جهة الحدث، هنا تيبَّست أطرافي ووقفت على باب المخيم مذهولاً من تطورات الموقف إلى أن بدأت جموع من الحجاج يمرون قريبًا منا وهم يحملون على أكتافهم أجسادًا لا نعلم أهم أموات أم مغمى عليهم، ثم اتضح أنهم أموات

قد اختنقوا من أدخنة الحريق والغاز، وهالني أن بعض الناس يحمل أكثر من جثة على كتفيه، وينطلقون مسرعين، وهنا وقعت في أزمة طاحنة وجاءني السؤال الصعب: يا رب هذه منى، وهؤلاء عبادك جاؤوا يطلبون رحمتك ويتوسلون بحبك ورضاك...!كيف لم تشملهم الرحمة ولم تحمهم من الحريق الذي كتم أنفاسهم وأسقطهم ميتًا تلو ميت وميتةً تلو أخرى تسقط جنبها، وأوحشني السؤال، وأخذ يمزق روحي ويهشم طمأنينتي، أنا الذي كنت أتهيأ مع غيري لنصعد لعرفة وجبل الرحمة، وهؤلاء الأموات أمامي ولن يتمكنوا حتى من الوقوف على جبل الرحمة، أين الرحمة منهم وعنهم...!

صرت أحترق مع السؤال وأتأمل في وجوه حاملي الجثث، أدركت من وجوههم أنهم جاوة (أندنوسيون)، ويحملون جثثًا لرفاق لهم من أندنوسيا، وها هي الجثث على أكتافهم ولكن وجوههم ويا للهول تبتسم، كل واحد منهم كان على ظهره وكتفه أموات من رفاقه ويسير مسرعًا نشطًا في جسمه والبسمة تعلو وجهه، ولم أر أحدًا منهم يبكي أو يبدي أي اعتراض جسدي أو لفظي على حال صحبهم الذين مضوا قبل إتمام حجهم.

هنا تحركت وجوه الأندنوسيين لتفعل فعلها في ضميري وتلقيت الرسالة...، وفهمت الرسالة.

وجاءني السؤال الأعمق: ما هي الرحمة...!، هل هي حصرًا كما نفهمها في معجمنا الثقافي، أم هي كما فهمها الأندنوسيون وتبينت

في وجوههم التي تفيض بشاشة وفي أجسادهم التي نشطت وصار الواحد منهم يحمل اثنين أو ثلاثة من موتاه على ظهره ويمشي مسرعًا كأنما يزفهم في عرس جماعي ينثر الفرح وليس القنوط...!

هنا فهمت أن للرحمة معاني غير معانيها الدنيوية، فهؤلاء ضيوف الرحمن، وهم حقًّا كذلك، فقط دخلوا في ضيافة أخرى غير التي نحن فيها، وكنت أنا أريد أن يبقيهم الله لدنياهم، ولكنه اختارهم لدار أخرى، وقطعت على نفسي عهدًا أن أحترم المعاني التي لم تك عندي ولكني قرأتها على وجوه هؤلاء الأندنوسيين الأحياء وهم يزفون أمواتهم فرحين لهم بالضيافة الكبرى، وفي يقيني أن كل أندنوسي من الأحياء كان يود لو كان محمولًا على أكتاف صحبه يزفونه في عرسه الأكبر.

وفي غمرة فرحي بهذه الهدية العظمى والكشف العظيم عن معنى ضيافة الرحمن ورحمته جاءني صديق وقال لي إن أمي تسأل عني في مخيم النساء معنا، فذهبت لأمي وجلًا وكنت أظنها ستسألني عن أخبار الحريق، ولكنها لم تكن تسأل وإنما تخبر، قالت لي يا عبدالله: معي في (شنطتي) كفني، فإن حدث لي شيء فكفني فيه، هنا دارت الدنيا كلها في رأسي وتحجرت الدموع في قلبي قبل عيوني، واكتشفت أن أمي قد أعدت كفنها منذ أكثر من عشرين عامًا اشترته من قماش اختارته وغسلته بماء زمزم ووضعت معه الكافور والحنوط، وأعطت والدي نصفه وأبقت نصفه لها، ولكن خالتي مريم توفيت فقدمت أمي كفنها لأختها،

ثم عملت كفنًا آخر، ثم توفي خالي إبراهيم فأعطته كفنها، وعملت ثالثًا مغسولًا بماء زمزم، ولكن امرأة تعرفها أمي ولا نعرفها نحن توفيت فأرسلت الكفن لها، ثم أعدت كفنها الأخير الذي أخذته معها إلى جنات النعيم، وستقول لوالدي إن هذا بدل ذاك الذي كان مشتركًا بنصفين بينهما، ولكنها تنازلت عنه لأختها؛ وأعدت غيره ليصحب رحلتها الأخيرة، ولن يلومها والدي فقد عرف برها وعطاءها.

5. قصة البنكي

احتجت إلى كل ما أملكه من إيمان وإلى كل ما بيدي من تصور لرحمة الله ومحبته، ولولا هذا لتفتت نفسي وأنا أستقبل خبر وداع الحبيب الغالي محمد البنكي، وقد جاءني الهاتف الأول من معجب العدواني، ثم توالت الهواتف من البحرين، ضاعت لحظتها صور كل الدنيا من أمامي، كنت في الفندق في أبو ظبي، وكان بيني وبين طائرة العودة إلى الرياض ساعات، هي تلك الساعات التي مرت وكأني لم أكن في الدنيا، راحت نفسي تسير بجسدي وغاب إحساسي بالأشياء، نسيت حقيبتي مرات، ونسيت أوراقي وبطاقاتي على مكاتب الاستقبال في الفندق وأنا أسجل المغادرة، وفي مكاتب المطار وفي كل مرة كان يلحق بي شخص متبرعًا بوضع حقيبتي في يدي وبتسليمي أوراقي، ولست أذكر كيف كنت أرد عليهم ولا ماذا كنت أقول لهم.

تغيرت الدنيا وتساوى كل شيء...، وهكذا ضاع مني أجمل أحلامي وأبهى صور المستقبل النقدي والثقافي أمامي...، راح محمد البنكي.

يسعفني إيمان بالله الذي يظهر لحظة الحاجة إليه، وأتذكر محمد المؤمن بإيمانه العميق وبوجهه البشوش وبروحه المعطاء، كان مؤمنًا في زمن ساد فيه رأي بين الناس -كل الناس- أن الحداثة كفر، وكنت أتجرع مرارة مثل هذا التصور وأحس بالوحشة حينما أنظر إلى حداثتي وإيماني وأجدهما متجاورين في نفسي بلا نفور ولا قلق، ولكنني أتوتر نفسيًا كلما رأيت أقوامًا من الصحبة الحداثيين ورأيت فيهم حسًّا بالقطيعة مع الإيمان مع تصور قطعي أيضًا بأن شرط الحداثة هو النفي المطلق والشك القاطع، ويزداد التوتر مع شيوع هذا التصور، حتى لقد صار واحدًا من أشد لحظات التقاطع بيني وبين من تكشَّف له أنني رجل مؤمن، ويأتي التعجب نحوي، بل لقد صار من الديدن وصفي بالتناقض أو عدم الصدق في حداثتي، وهي صورة تشيع بشدة وتزيد من توتير الرؤية والتعجب من عدم تفهم ما أراه من عبقريات التصور؛ وذلك حينما تتحد المتناقضات في عقل ما ويجد هذا العقل خيطًا رفيعًا يؤسس لوحدة ذهنية لا تهشمها الحدود الإيديولوجية القسرية، وكنت -وما زلت- أرى أن الفكر الكبير هو الذي يستطيع التوفيق بين ما يبدو متناقضًا عند الآخرين، وأن الفكر يسمو كلما استطاع كسر الحدود الافتراضية بين المقولات، وما المقولات بعد كل هذا سوى منتوج بشري عقلي،

مما يعني أن العقل البشري يستطيع أن يصنع خطه الخاص حتى ولو قال غيره غير ما يقول، وحتى لو رأوا غير ما يرى...، إنه يرى غير ما يرون؛ ولذا يتميز عنهم وعليهم.

تلك صورة ألجأ إليها كلما حاصرتني إيديولوجيات المثقفين العرب وجعلوا من إيماني المطمئن عقدة في تصورهم لي؛ لهذا أنست نفسي بأناس وجدت فيهم ما أجده في نفسي، وكان محمد الشاب البحريني الحداثي المتفتح وعيًا وروحًا وحرية والمشتعل ذكاء.

هو محمد أحمد البنكي الذي تعرفت عليه قبل عشرين سنة في جامعة البحرين (1990م)، فوجدت فيه صورة الشاب الناقد البصير، مطلعًا وفاهمًا وعميقًا يسأل ويفكر ويدقق، وكان حينها في العشرينيات من عمره ولما يزل طالبًا في الجامعة، ولقد كنت أراه وأسمعه وأستقبل محاوراته مندهشًا، حتى لقد كدت أكذب نفسي، ولعلي تلمست حواسي مرة ومرات لكي أطمئن على أنني في يقظة ولست في حلم منام أو حلم يقظة، ومرت السنون، عشرون سنة، كان كل يوم فيها يجدد لي أحلامي ويجدد لي وعودي بمحمد، محمد الذي ما خيب لي ظنًا قط، وما سقطت بين يديه نظرة قط، وما تعثرت فيه كلماتي قط.

كنت أبدأ بالقول معه ولا أضطر لإكماله؛ لأن محمدًا يلتقط الفكرة من رأسي وقبل أن تصل إلى لساني، وكنت أقول الكلمة

والرأي وأطرح النظرية لأجدها تتكامل على لسانه وفي عباراته، كنت أحدثه عن آخر ما يستجد من نظريات وكان يفهمها ويلتقطها وكأنها خرجت من مطبخ بيته، ولا تمر أيام إلا ويكون قد تحصل على نسخة من الكتاب المذكور في حديثنا مهما كان مكان الناشر في أمريكا أو أستراليا في زمن لم تكن خدمات الإنترنت متوافرة فيه، ولكن مهارة محمد في طلب العلم أسبق من التكنولوجيا، ثم إن فهمه وتفهمه للنظريات كان على درجة تثير العجب بسرعته وبعمقه.

كل هذا المطمح العلمي مضافًا إليه الجد والعمق وصدق الالتزام واحترام الوقت والتحلي بقيم العمل، ومن فوق ذلك كله كان إيمانه العميق والصادق، ذلك الإيمان الذي جمعني به في الحوار وفي التجاور في العبادة، إذ كنت مرة في البحرين وامتدت إقامتي حتى حانت صلاة الجمعة وكنت أنوي الصلاة جمعًا وقصرًا، كما هو شأن المسافر، ولكنني أحسست وقت الضحى ومع خلوتي مع نفسي برغبة في أن أذهب إلى الجامع وأصلي صلاة الجمعة مع الناس؛ ولذا هاتفت محمدًا على منزله وقلت له: إنني أرغب في أن أصلي الجمعة، وطلبت منه أن يمر علي ليأخذني إلى أحد الجوامع، فسألني إن كنت أفضل خطيبًا معينًا، واستطرد يشرح لي خيارات مساجد البحرين، وهي خيارات تمتد ما بين خطيب صوفي وآخر سلفي أو جامع جعفري أو جامع يطيل الصلاة وآخر يختصر، فقلت له: يا محمد سأصلي حيث تصلي أنت، وذهبت معه إلى ما اختاره، وحينما دخلنا إلى المسجد وتقدمنا بين الصفوف أشار بيده نحو رجل في

□□□□□ □□□□□□.indd 78 10/20/20 9:10 AM

وسط الصفوف كان يصلي تحية المسجد وقال لي: انظر... ذاك منذر عياشي...، نظرت إلى عيني محمد وهو يقول ذلك وكدت أرد عليه بدمعة أشكره فيها على لحظة أهداها لي لأرى أن فكرتي عن الإيمان بوصفه قيمة عميقة لا تناقضها أي فكرة أخرى، وأحسست بثلاثتنا ونحن في رحاب المحبة، وكانت تلك اللحظة هي أجمل ما مر بي في ذلك الأسبوع، وهو الأسبوع الذي أعلنت فيه عن مشروعي في النقد الثقافي، قبل صدور كتابي ببضعة أشهر عام 1999م.

وتمر الحياة رخية ووفية وواعدة مع محمد حتى جاء يوم وهاتفني فيه وأبلغني أن داء خبيثًا تسلل إلى أحشائه، وأنه بدأ يطرق أبواب العلاج، وكان لابد لي من لقاء معه، وصار اللقاء، وقد ذهبت إليه محملًا بثقل نفسي باهظ ومرعب، ولكني ما إن رأيت وجهه وهو البشوش الباسم حتى خف عني همي وبدأت أتكلم معه بروح متفائلة، وبدأت نفسي تستجيب للكلام وتتجاوب مع الظرف، وزاد من توازني وجود السيدة الكريمة أم جاسم، زوجة محمد، حيث عمرت الجلسة بهدوئها وبإيمانها وبقوة عزيمتها ومع روحانيتها العالية، فقد كانت محبتها ووفاؤها لمحمد، وهذا ما جعلني أندمج بسرعة في هذا الجو العائلي والإيماني مع غطاء المحبة وصدق المواجهة، واستمرت الحال أربع سنوات، كان محمد يمر مع مرضه بمراحل نشعر مع بعضها بانفراج وفرح ونشعر مع بعضها الآخر بمعاندة من المرض، ولكن فيما بين هذا وذاك كان محمد يتردد من البحرين إلى الرياض وإلى ألمانيا في رحلات علاج، دامجًا ذلك كله

في رحلات عمل وعلم ومارس حياته بأصدق وأدق وأضبط ما يكون، حتى لقد كان أنشط من الأصحاء، وظل معطاء في فكره وفي وقته، ولم يتوقف قط عن التخطيط للعمل الثقافي، وعن استقطاب المثقفين والباحثين حتى وهو في أشد لحظات الألم وفي جلسات الانتظار في مكاتب الأطباء أو عند مختبرات الفحص، وكان يستخدم هاتفه ليدير العمل في مكاتبه في البحرين، ويعطي توجيهاته للموظفين، ويرسم برامج العمل وخططه مقدمًا تضحياته للناس وللمفكرين والباحثين وكأنه لم يكن في حالة مرض.

ظل محمد هكذا على مدى أربع سنوات من المرض، حتى لتظن أنه ليس بمريض، ولا يعاني من وجع في أحشائه، وظل وجهه باسمًا وظلت روحه معطاءة؛ ولذا لم أستطع تصور الخبر وهو يأتيني وأنا معلق بين أبوظبي والرياض، ظللت في حس لم أعد فيه أعرف نفسي، وهل أنا مع الناس أم لا، أنظر من حولي وأرى الدنيا لا شيء...، تساوت في ناظري الأشياء، ومازلت أتكلم مع الناس وأسمعهم، ومازلت أرى الأشياء وأمر بها، ولكنني لم أعد أشعر ولم أعد أحس...، هذه الدنيا ليست هي ما كنت أعرف...، راح محمد البنكي وراحت معه أجمل أحلامي برجل رأيت فيه أكثر من نفسي، وكنت أرى فيه مستقبل النقد الثقافي ومستقبل الثقافة، وكنت أرى فيه الإيمان والصدق والعزيمة...، وكنت أرى أنه أجمل الوعود وأجمل الجلسات وأصدق الأمنيات...

ولكن... أين أنا من رحمة الله...؟

إن الله أرحم منا بمحمد، وهو الرجل المؤمن الذي ما هده مرض ولا قنطت له نفس قط ولا يئس ولا خاف...، وهو إذ يذهب إلى ربه فلأنه أجمل من كل ما في دنيانا وأرقى من كل وعودنا وأطهر من كل كلماتنا، إنه مثل مطر يهطل من السماء صافيًا ونقيًّا وطاهرًا، ولما التفت للأرض لاحظ تلوثها وتشوهها فقرر العودة إلى طهر السماء...

عاد محمد إلى الطهارة حيث هي انتماؤه وحقيقته، وعاد النقاء إلى مصدره ومنبعه...، عاد إلى عليائه التي تليق بصفائه وبشاشة وجهه وروحه، أخذته الرحمة وضمته إليها...، هي رحمة أكبر من رحمتنا، وهي حضن أنقى من أحضاننا.

أيها الغالي الحبيب، عليك رحمة الله...، لقد تركت لي يا محمد كنزًا من الإيمان أعانني على تحمل الخبر وصبرني وحمل قدمي عن الأرض، ولكن ومع كل هذا الرضا في نفسي بقدر الله وتقديره إلا أنني يا محمد لم أعد أرى الأرض كما يراها الناس، ولم أعد أدير عيني في الناس كما كنت من قبل، وأي أرض هذه التي لا أراك فيها، أيها الحبيب، كم كنت قريبًا وحبيبًا وغاليًا، ولا أقول إنني خسرت فأنت مكسب راسخ لا نخسره أبدًا...، وإيمانك ورضاك وبشاشة وجهك الكريم هي سلاحي وهي عزائي وأنت هناك عند ربك...، حبك الأكبر وقوتنا الأعلى[1].

***

(1) **جريدة الرياض** 4/ مايو /2010م.

ثانيًا: تفسير الحياة

1. سلطة المعاني

لتصور صيغ تفسير الحياة سأضع تفريقًا دلاليًّا بين ثلاثة أنواع من المعاني:

أ) المعنى العقلي (الخطاب الفكري).

ب) المعنى القلبي (الخطاب الوجداني).

ج) المعنى الاستدلالي.

وأركز على المعنى الاستدلالي الذي أقصده هنا، وهو الذي يجمع بين العقلي والقلبي.

فحدث الموت هو أقسى حدث يمس الروح مباشرة ويخص الذات المفردة بشعور لا يغادرها إلا بعد أن يغرس فيها أثره، فقد يكون حزنًا بصيغ متنوعة خبرها البشر، أو يكون فاتحة لتبصر يحاول منح الحدث معنى عميقًا كأن يكون الموت تفسيرًا للحياة، حسب كلمة حمزة شحاتة: «لا يعطي تفسيرًا تامًّا للحياة إلا الموت».

وفي قصصي الواردة في هذا الفصل تدرج المعنى عندي من المبهم إلى الصادم إلى الاستدلالي، وهل الموت حدث يعني نهاية وخاتمة فحسب أم له معنى آخر ومن ثم فهو ليس نهاية، وإنما هو سؤال يحتاج لافتراض إجابات، والأكيد أننا كبشر لا نملك جوابًا، ولن يصح من أحدنا أن يدعي ما لا يملك ولا برهان له عليه، وهنا يكون الموت هو أصعب أسئلة الوجود، وهذا سيحوجنا لجلب فكرة المعاني الثلاثة: المعنى العقلي، المعنى القلبي، المعنى الاستدلالي؛ فالمعنى العقلي البحت سيسهل عليه أن يمارس قطعيته بأن ما لا جواب عليه فإنه غير موجود، والمعنى الوجداني سنراه في التراجيديات الأدبية وموقع الموت فيها بوصفه قمة المأساة، بينما المعنى الاستدلالي سيحول الحدث لمعنى يحمل أبعادًا عميقة، وعمقها هو سبب غموضها، وهذا الغموض سيقبل التشريح الدلالي بتتبع مؤشرات قلبية وجدانية أولًا، ثم تأخذ في بناء حبكة دلالية تستوحي من الحدث غايات ترفعه عن مجرد الواقعة التي تنهي القصة، ولاشك أن مقولة شحاتة ستكون مدخلًا مهمًّا لتصور المعنى، وهو ما يتطلبه هذا الحدث الكبير الذي يهز كل الأحياء من حول الميت، بينما الميت نفسه لا يهتز لحدث مسه هو مباشرة وتسبب في حزن كل محبيه، هل لأنه الوحيد بينهم الذي عرف القصة كلها وعرف معنى الحياة...؟

إن قلنا نعم فقد شرعنا في تشكيل المعنى الاستدلالي، وإن قلنا لا فنحن من مات حقًّا؛ لأننا نفقد بهذا أي قدرة على صناعة أي معنى لأعظم حدث بشري سيمر على الكل في ترتيب ليس من صنعنا،

وهنا أنت في خيار بأن تصنع المعاني أو أن تتخلى عن مهماتك العقلية وتقمع دواعي قلبك ووجدانك وتعلن هزيمتك وقت امتحان المعاني.

وفي كلمة رابعة العدوية التي وجهتها لسفيان الثوري: «إنما أنت أيام معدودة...، فإذا ذهب يوم ذهب بعضك».

والأيام لن تظل أيامًا تتناقص كلما مر منها يوم لينتهي عمر الإنسان مع آخر يوم في العداد؛ بل ستتحول الأيام لتكون مثل محطات القطار التي لا تتناقص، ولكن كل محطة تفضي بالقطار إلى محطة تقوده لمحطة...، وهكذا حتى يصل لغايته التي ليست نهاية لعمره ولكنها محطة وصول تبدأ فيها ومعها حياة لركاب القطار، وهذه المحطة هي امتداد حياة للواصلين ولمعنى حياتهم، وهنا تكون أيام الحياة معدودة ولكنه تعداد غير منقطع الغاية والمعنى، وهذا سيمنح الأيام معنى وجوديًّا، وكأن التي نسميها أعمارنا هي وقود لقادم موعود ومتوقع، ومن هنا فالأيام غنية بالمعنى وغنية بالدلالة، ولن تكون قيمة مغلقة لا تزيد عن كونها تعدادًا من ميلاد إلى وفاة، وهنا تحضر كلمة ابن القيم لتفسر كلمة رابعة وهي أن «الدنيا منام والعيش حلم والموت يقظة»، ونصل مع هذا لقول شحاتة: «لا يعطي تفسيرًا تامًّا للحياة إلا الموت»، والموت حينئذٍ هو باب لحياة هي يقظة بوصفها ميلادًا جديدًا، غير أننا لن نعرف هذا التفسير إلا حينما نصل إليه؛ لأننا حقًّا لا نعرفه، ولكن لو تمنعنا عن افتراضه فنحن هنا نفترض عبثية الحياة وجفاف معناها وجفاف جدواها،

ولاشك أن أي عمل بشري لن يكون ذا قيمة ما لم يعط نتيجة من نوع ما وإلا تحول لعبثية سالبة، وليست الحياة بمجمل سنواتها إلا عملا منتظما لن تتحقق قيمته إلا إذا كان سيفضي لمعنى يستحق عناء الحياة، وهذا هو التفسير الذي توخاه شحاتة، وهو التعداد ذو القيمة لشرح معنى كلمة رابعة العدوية: إنما أنت أيام.

وهذه هي الحياة التي نعرفها ونشهدها كما نعدها عدًّا ونحتفل كل عام بموعد ميلادنا لننتقل من تعداد إلى تعداد، وقيمتها هي فيما نفعله مع هذه الأيام وفيما تفعله الأيام بنا، ويحق أن نتساءل ماذا بعدها أو لماذا هي، وهل لو بيد أحدنا خيار بأن يعيش هذه الأيام التي رآها وخبرها ويسميها حياته، وهل سيختار أن يمر بالتجربة نفسها لو خيِّر في الأمر، أم سيقول غير ذلك، وهل هي تستحق أن تعيشها وهي التي تتطلب منك أن تكدح لتحسن مقامك فيها، وفي الوقت ذاته تتعرض للإخفاقات والاعتلالات الصحية واعتلالات أخرى في علاقاتك العامة وفي ظروفك الاقتصادية وفي توترات السياسات والحروب التي يمسك ضررها مع أنك لست الجاني ولست المتسبب.

هي أسئلة عادة لا نشغل أنفسنا بها؛ لأننا نرى أن طرحها يفسد علينا أيامنا التي هي أعمارنا، ومن راحة قلوبنا أن نغفل عن هذه الأسئلة، ولكن سؤالًا سيطرحه العقل وليس القلب، وهو عن جدوى هذه الأيام التي مهما فعلنا فإننا سننتهي بموت يختم الأمر كله، وكأننا لم نمر فوق هذه الأرض...!

هنا يحضر الإيمان ليمنحنا جوابًا يحول أيامنا من هباء ينتهي بفناء ونسيان إلى معنى يرتفع بنا فوق صراخ الأسئلة، فإذا كنا سنذهب لحياة أخرى أول مزاياها أنها ليست أيامًا كلما مر واحد منها نقص من عمرنا، بل سندخل في عمر ليس له نهاية، وأن ما عملناه في دنيانا سيعود علينا بمردود يحسّن أو يقلل من جودة حياتنا اللاحقة.

هنا يكون لمعنى العدل قيمة عليا، والعادل مع غيره ومع نفسه وفوقهما مع ربه سيكون في وضع أفضل، مما يعني أن العدل يعود بمكافآت كبرى للعادل، وهنا يتعزز معنى الإيمان الذي لن يكون قلبيًّا فحسب؛ بل سيكون أيضًا منطقيًّا ومُسَبَّبًا ومبررًا.

هذا الافتراض سيصحح الصورة كلها ويجعلها إيجابية ومشرقة، ويجعل الأسئلة عن معاني أيامنا خفيف الوطء على النفس ويمنحه معقولية، في حين أن استبعاد هذا الافتراض سيفرض معه وتبعًا له أن نطرد الأسئلة، وهذا ما حدث مع لابلاس بقوله: «هذه فرضية لا تعنيني»، وراسل حين رفض السؤال عن الوجود الضروري، وفي الحالين سنخرج عن حقوق القلب الطالب للطمأنينة وعن حقوق العقل الراغب في البحث والتساؤل.

وكلما كشفنا خيطًا رفيعًا يربط المتناقضات ويصنع لها تآلفًا يرفع عنها التناقض فإننا بذلك نكشف سرًّا من أسرار الحياة، وإن كانت الثقافات شغلت نفسها على مدى تاريخها في البحث عن معنى

السعادة والتعرف على طريقها معنويًّا وماديًّا فإن التعرف على أي سر من أسرار المعاني هو جوهر السعادة، بما أن هذا الكشف سيحرر المعنى من شقائه، ويمنح معنى إيجابيًّا يغير وجهة الدلالة ويريح العقل الشقي الذي ستشقيه الأسئلة إلى أن يكشف معنى يرفع الغطاء والغشاوة عن المعنى المضطرب.

2. هل الأفكار عقلانية أم شعورية؟!

وأعود ثانية لكلمة شحاته: «لا يعطي تفسيرًا تامًّا للحياة إلا الموت»، وهل هي مقولة في اليأس من البحث عن معنى للوجود، أم هي إرجاء للإجابة، ووعد أن هناك إجابة من باب تطمين الذات وإسكات الأسئلة، على أن تفسير الحياة يحتاج إلى برهنة ذاتية وليس إلى برهنة عقلانية خارجية، ولابد هنا من الاستدلال الوجداني، أي السماح للقلب بأن يبتكر حججه الخاصة، ومهما جربنا العلم الذي هو المكتشف الأهم للبشر والذي يعطي أجوبة لها أدلة تغني الباحث، أو في الأقل تفتح له طرقًا تساعد خطاه على السير نحو أجوبة قابلة للاحتمالات مهما تصعبت أو تباعدت، فإن العلم نفسه يحتاج إلى معونة الفلسفة في سؤال الموت، والفلسفة تتضمن تجارب لأناس طرحوا إجاباتهم، وآخرين ارتأوا أن ليس من جواب فاختاروا جواب (لا أعرف)، وفريق ثالث لم يجد جوابًا فقرر الاكتفاء بما هو ماثل وقابل للتصور مع رفض الغيبي والتعالي عليه، وهذا يعني أن الجواب لن يكون في الخارج ينتظرنا أن نصل إليه ونستكشفه، وإنما

هو داخلي وذاتي بدليل قبول بعض الفلاسفة مقابل رفض غيرهم، ولو كان الجواب برهانيًّا -بمعنى الحجاج الفلسفي- لاتفق الكل عليه حسب مقام البرهنة، ولكن الاختلاف الجذري فيه يعني أنه ذاتي، وأنه يعود في النهاية لنظرية (الاستدلال العقلي الوجداني) بتعاون العقل مع القلب، بحيث لا يجور أحدهما على الآخر، وهذه هي الحال التي نرى فيها الدليل القلبي؛ إذ يجد تقبلًا من العقل، وفي ذلك سنرى باسكال وكانط وروسو، ونقف معهم وقفات تسند الفكرة، فباسكال يرى أن المبادئ الإيمانية هي إحساسات قلبية، وفي كتابه خواطر[1] يشير إلى أن القلب يحس بوجود الله، ويحس بلا تناهي الأعداد، وهي مبادئ قلبية تبدد الشك، لكن العقل ليس سوى آلة استدلال تنحصر وظيفتها في الاستنباط من المبادئ، وليس البرهنة عليها، وللقلب حججه التي لا يعرفها العقل، فالقلب يحس بوجود الله، وهذا هو الإيمان، واستشعار الله سيكون بالقلب وليس بالعقل، ومعرفتنا بالحقيقة عن طريق القلب هي الأصول الأولى، بينما العقل يحاول أن يناهض ذلك عبر مسعى التعليل، غير أن العقل بطيء، أما الشعور فيتحرك تحركًا فوريًّا؛ ولذا فالعقل يقوم على العجز، ومن ثم يجب توظيف عجز العقل لإذلاله، حسب عبارة باسكال[2].

(1) بليز باسكال: **خواطر**، ترجمة إدوار البستاني، اللجنة اللبنانية للترجمة، بيروت 1971م.

(2) **الخواطر**، 178، 252، 277، 282.

ومشكلة باسكال هنا هي في تقليله من دور العقل وتهوينه له لدرجة الإذلال، وهذا يسقط أحد ركني (الاستدلال العقلي الوجداني)، أما قوله إن العقل يستدل على المبادئ ولا يبرهن عليها فهذا أمر يقربنا لمنطقة الاستدلال العقلي الوجداني، ويتعزز هذا الرأي مع ما نجده لدى كانط، حيث يرى أن العقل ينتج الأفكار لكنه لا يبرهن عليها[1]، ولشرح مقولة كانط يقول راسل: «وحسب قول كانط فإن العقل الخالص يستطيع أن يقودنا لأفكار عن الله وعن الحرية وعن الخلود، ولكن هذا العقل يعجز عن تقديم براهين عن حقيقة هذه الأفكار؛ وذاك لأن قيمة هذه الأفكار هي في عمليتها، بمعنى أنها متصلة بالضرورة مع النظام الأخلاقي (Mor-al Law)، ولو اعتمدنا الاستخدام الخالص للعقل فهذا سيوقعنا في المغالطات؛ ولهذا فإن الفائدة الحصرية لهذه المفاهيم لا تتحقق إلا في ربطها مع الأخلاق»[2]، وزاد راسل مستخلصًا موقف كانط بقوله: «إن كانط عمد إلى استبعاد كل البراهين العقلانية الخالصة عن وجود الخالق، وشدد على أن طريقه للإيمان بالخالق يسلك سبلًا مختلفة عن تلك البراهين النابعة من العقل الخالص الذي يمكنه كشف الحقائق الكبرى، لكنه يعجز عن البرهنة عليها»[3]. ولعل ما استخلصه راسل في التمييز بين العقل (reason) والاستدلال العقلي

(1) لتفصيل ذلك انظر كتابي: **العقل المؤمن/العقل الملحد**، الفصل السادس (الملحق).

(2) Russell: History Of Western Philosophy; p. 682, Unwen University Books, London 1971.

(3) Ibid 681.

(reasoning) يساعد على فك الإشكال حول عجز العقل الخالص عن البرهنة في هذه المسائل تحديدًا [1]، وفي حال الأفكار الكبرى كالإيمان بالله نحتاج إلى سبيل آخر غير العقل الخالص، كما هو قول كانط، وهنا تحضر وظيفية مصطلح (الاستدلال العقلي الوجداني).

وإذا أخذنا باستخلاص راسل لرؤية كانط أن العقل ينتج الأفكار الكبرى لكنه لا يبرهن عليها فالأَوْلى أن نعدل موقف كانط ونحيل هذه الوظيفة للقلب وليست للعقل، والأفكار الكبرى التي يعجز العقل عن برهنتها هي الأفكار القلبية وهي شعورية، بينما الأفكار العقلية هي نتاج للعقلنة وتفسير تجاربنا الخاصة أو شهادات الآخرين عن تجاربهم، وهذه ليست يقينية كما وصفها جون لوك[2]، بينما حجج القلب يقينية بالنسبة لصاحبها، وقد تكون جدلية عند غير صاحبها؛ ولذا تحتاج هي أيضًا لمعين برهاني يسندها بمثل ما يحتاج العقل إلى معونة القلب أو بالأحرى لتحرك القلب باتجاه الهدف.

وإذا تحركت في القلب فكرة كبرى كالحب مثلًا فإنها تأتي كحقيقة مطلقة يتم قبولها وجدانيًّا دون احتياج للبرهنة، وكذا هي حال الإيمان بالله بوصفه فكرة كبرى، فقد وصف كانط حال العقل

(1) عن مستخلصات راسل وتمييزه بين العقل والعقلنة، انظر كتابي: **العقل المؤمن/ العقل الملحد**، الفصل الثالث.

(2) انظر كتابي: **العقل المؤمن/العقل الملحد**، لمزيد توضيح عن تصورات كانط والمخاتلة العقلية ص 154.

□□□□□ □□□□□□.indd 90 10/20/20 9:10 AM

معها حيث ينتجها ويعجز عن تبريرها، وفكرة عجز العقل تتسق مع فكرة الغزالي بأن ميزة العقل هي في قدرته على كشف عجزه[1]، وكل من أدرك عجز العقل في هذه المسألة لجأ لمعونة الوجدان، وعجز العقل يحتاج إلى الشروع لسد هذه الثغرة عبر بناء نظرية تتوسل بـ (الاستدلال العقلي الوجداني)، وتعتمد حل الإشكال بين كون الأفكار عقلانية أم شعورية، وكذلك تتجنب غلو باسكال الذي جعل عجز العقل يستوجب إذلاله، في حين أن معادلة روسو تعزز حاجة العقل للاستعانة بالوجدان ليروض غرور العقل، بينما يروض العقل جموح العاطفة، وإن كان روسو يقدم العقل على القلب و قال: إن عقلي يدلني على فطرتي، ناقضًا بذلك موقف باسكال النافي لدور العقل.

وإذا قلنا إن هناك نوعًا من الأفكار تبدأ شعورية ثم يتقبلها العقل ويشرع في عقلنتها فإن تجربة روسو تعطي مثالًا لذلك (كما ذكرت في الفصل الخامس في العقل المؤمن) وسأكرره في الفصل الثالث من هذا الكتاب، (مبحث هل يلحد القلب)، ونشير هنا إلى ما تستبطنه قصصنا الخاصة التي من سمتها أنها تختارنا ولسنا من يختارها، وتعترضنا ولسنا نعترضها، ومن ثم فهي رسائل قلبية مشفرة، فقط تحتاج لتفكيك يقرأ مداليلها، وهنا يقوم الاستدلال بركنيه الوجداني معززًا بالعقلي، والعقل أخيرًا يستجيب للحالة الشعورية للقلب، وإذا استجاب لها شرع في عقلنتها إيمانًا أو

(1) عن الغزالي أرجو العودة للمرجع السابق ففيه عرض موسع.

إلحادًا، وهذا ما نجده عند من تصدوا للبحث الفلسفي أو البحث العلمي عن سؤال الإيمان، وهو الذي تكشفه أطروحة كتابي (**العقل المؤمن/العقل الملحد**)، وسؤال كيف لعقول البشر أن تؤمن أو تلحد، وقد عرضت فيه سبعة نماذج لفلاسفة ولعلماء، وكل واحد منهم توسل بالفلسفة أو بالعلم ليثبت إيمانه أو بقوله بالإلحاد، ودخلوا في نقاش مباشر مع بعضهم مستخدمين العلم والفلسفة، مما يعني أن العلم محايد وأن الفلسفة محايدة في أصلهما، ولكنهما ينحازان تبعًا لحال القلب ابتداء، ومن ثم يمضي العقل مستخدمًا الفلسفة أو العلم، كل في تخصصه، لكي يعزز الأفكار القلبية بحجج عقلانية، وهذه هي حالة الاستدلال العقلي الوجداني، حين يستجيب العقل للشعور الوجداني ويعقلنه[1].

3. هل أيام الحياة معدودة بمعنى محدودة...؟!

أعود لكلمة رابعة العدوية (إنما أنت أيام معدودة) وأطرح السؤال الضروري هنا وهو: هل كلمة معدودة تعني أنها محدودة، ومن ثم يكون الموت نهاية لهذا المعدود، أم للأمر وجه آخر نستقيه من كلمة ابن القيم (الدنيا منام والعيش حلم والموت يقظة) وهي الكلمة التي تفسر قول رابعة العدوية وتعدل المعنى ليكون التعداد مفتوحا، كما قد رأينا في مقولة باسكال أن الأعداد غير متناهية وأنها تتصاعد كلما صعدناها بلا حدود، وقد ظلت البشرية تضخم

(1) **العقل المؤمن/العقل الملحد**، العبيكان، الرياض، 2020م.

الأعداد من الألف للمليون للمليار ولأكثر دون نهاية وكذا هي الحياة. وإن لنا حياة قبل الميلاد لم نك نعيها حين ذاك، ولنا حياة واقعية نعيها كما هو الوعي الذي نعتبره وعيا ما دمنا فيه. وستتلوه حياة سنعرفها حين تحدث وحين ينكشف عنها الغطاء. فالحياة إذن غير متناهية، وهي فقط تتحول من حال إلى حال، وحتما سيتحول وعينا بها من حالٍ إلى حال، وهذا هو تفسير الحياة الذي لن نفهمه إلا بعد الموت، كما تصورها حمزة شحاتة (لا يعطي تفسيرا تاما للحياة إلا الموت)، تلك حال (الرجوع) كما وصفها القرآن الكريم ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ (الفجر: 27-30) وهو تصور يتعزز استدلاليا كلما منحنا أفكارنا الشعورية حقها دون أن تحاصرها الأفكار العقلانية وتضيق عليها فرص التأويل الحر، بعيدا عن قيود العقلنة البحتة، التي وصفها كانط بالعجز عن البرهنة.

الفصل الثالث:

مواقيت الأسئلة
وهل يلحد القلب...!؟

□□□□□ □□□□□□.indd 95 10/20/20 9:10 AM

أولاً: سؤال الوجود

1. دعاء الكروان

في عام 1964م كان الشيخ محمد العثيمين رحمه الله يدرسنا مادة التوحيد، وهو يدرسها لنا للمرة الثالثة في تعاقب السنوات، مما جعلنا هذه السنة ندخل للدروس العميقة في الاعتقاد؛ ولذا طرح علينا فرضية أننا نناقش شخصًا ملحدًا ونحاول إقناعه بوجود الخالق؛ فتغيرت مشاعر الزملاء في القاعة تهيبًا للموضوع ومغبات الخوض فيه، وكنت مثلهم تخوفًا، خاصة أني لا أشعر بنفسي كفاءة لجدل كهذا، وثقافتي كلها أدبية مع كتب التراث من العقد الفريد والكامل والأغاني ومروج الذهب، كما أن أنشطتي في المعهد كلها أدبية كتابة وخطابة وتمثيلًا مسرحيًّا وهكذا، والآن نحن أمام موضوع يتطلب حججًا وجدلًا، ومرت المناقشات غير مقنعة كما كنا نقرأ من علامات وجه الشيخ، ولم نلحظ أي كلمة إعجاب في تعليقاته كما هو عهدنا به حين تعجبه فكرة من أحدنا، وبعد مرور الوقت دون تطور في نقاشاتنا تدخل الشيخ في تقديم رؤيته وكانت مبنية على تتبع الآيات الكونية في القرآن بدءًا من آية ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء: 22)، وركز على وحدة الكون

وتراتبه وتناسقه متكاملًا مع بعضه، مما يدل على صانع واحد دبر صنعه وأتقن نسب تكوينه، ومضى بهذا الاتجاه وانتهى الدرس.

تحاورت بعد ذلك مع صديقي الأثير محمد العبدالله السليم رحمه الله، ولم يك معنا في ذلك الدرس لأنه في السنة التي بعدنا، وتطلعنا معًا لمحاورة فيما بيننا عن الموضوع، وشرعنا نتجادل ونتبادل تمثيل دور الملحد، غير أننا لم نشعر بحيوية النقاش ولا مقارنة بين هذا النقاش المفتعل وبين مناطحاتنا الشرسة حين نختلف في أمر أدبي أو سياسي؛ حيث الحدة الفكرية والمحاجة العنيفة وقد تعودنا عليها، ولم نجد أثرها حين أخذنا في التمثيل حول قضية الخلق؛ ولذا قررنا ترك النقاش.

تركنا النقاش لكنه لم يتركنا؛ إذ ظلت الأسئلة تشاغلني وكأنها تحاصرني، ولم تك جديدة علي ولكني كنت أقمعها وأتجاهلها، أما الآن فقد احتدت بعد مناقشاتي مع صديقي، وحاولت أن أنزع نحو هوايتي المستمرة في القراءة بكتبي الأثيرة عندي، غير أني هذه المرة صرت أحس بغربة مع كتبي الأدبية، وكان عندي كتاب عن العناصر[1] موضوعه عن الكون ونشوئه وعناصره المكونة له، وكنت قد عزفت عن قراءته حين تصفحته أول مرة، وأشغلتني جداوله عن قيم العناصر وقياساتها بأرقام ومصطلحات غريبة على شاب عقله كله في كتب الأدب والشعر والتاريخ والجغرافيا، وهي هواياتي

(1) امبابي أحمد: **قصة العناصر**، دار المعارف بمصر 1951م.

الثقافية في تبادل للأدوار بين حين وآخر؛ ولذا تركت الكتاب جانبًا، ولكني الآن لجأت إليه لأفهم وليس لأستمتع كما هو شأني مع كتب التراث، وما إن بدأت في قراءة كتاب العناصر حتى أحسست أني أمام علم ليس كعهدي من علوم اللغة، ولكنه علم مثير ويدعوك لرؤية الكون مفتتًا أمامك ومعروضًا بلغة ميسرة، وكانت صفحاته الأولى سلسة ومفهومة قبل أن ألج للجداول التي طردتني عنه من قبل، والغريب أنني وقعت في ورطة نفسية مع الكتاب؛ لأني فرحت معه ووجدت فيه متعتي العقلية المختلفة عن المتعة الأدبية، وخفت أن أفقد هذه المتعة إن واصلت القراءة فيه فأفرغ منه، وحينها أعود للتوهان الروحي الذي كنت هاربًا منه، ووجدت هذا الكتاب يستل روحي إليه ويشرع في توطين عقلي معه؛ ولذا قررت أن أقلل من جرعات القراءة اليومية، وشاغلت نفسي بكتاب آخر يلهيني عنه ويوفر لمتعتي فرصًا لمزيد مواعيد موزعة على أيامي، ومن حسن حظي أني اخترت كتاب دعاء الكروان لطه حسين لصغر حجمه وسهولة أخذه معي بجوار كتاب العناصر، وانطلقت معهما معًا، صفحات من هذا وصفحات من ذاك، واندمجت مع كل واحد منهما حسب مزاج النص هنا أو هناك، ولا شك أن بعض القراءات تهمس بالحكمة في أرواحنا، وهذا ما أدركته من القراءة المزدوجة في الكون وفي السردية المأساوية، فللسرد المأساوي أثره المر على النفس البشرية، وفيه امتحان للمشاعر وللمروءة، وفيه مواجهة مع الحكم على الضمير والسلوك البشري، وتصبح أنت كقارئ للنص في مقام القاضي، وقرارك هنا

□□□□□ □□□□□□.indd 99 10/20/20 9:10 AM

ليس حكمًا على النص؛ بل هو حكم بمعنى صوت الضمير، ودعاء الكروان يصبح بالنسبة لك صوت الضمير الذي يتشكل فيك مع تداعي الحدث وتبصرك بالعيوب البشرية حين يظلم البشر البشر، ويقتل الخال ابنة أخته فقط ليعالج غضبه دون أن يتبصر بأن البنت ضحية ضحى بها الكل، أمها وخالها وسيدها، ولا أحد ينتصر لها سوى أختها التي تحملت خطايا الكل وحملتها في قلبها ولم تجد من يفهمها سوى الكروان تخاطبه وتفضي له بوجعها وألمها وحيرة قلبها في أي طريق تسلك، هل تنتقم من المجرم أم تقع في حبه، هل تقتله بالسكين أم تستحوذ عليه بالحب، وكلاهما انتقام من نوع ما.

هذه المعاني السردية تولد فيك شعورًا روحانيًّا، وسيقابلها شعور آخر حين تأخذك عناصر الكون بعيدًا عن الأرض ومن أفسد فيها وسفك الدماء على صفحتها الملوثة بآثام البشر، وإن كانت الأرض بيت الفساد البشري فإن الفضاء قبة الحكمة التي تظل بعيدة ومتعالية، ولكنها ليست مستعصية على الالتقاط حين تحين فرصها، وفرصها ستأتي إما في لحظة دمع وخشوع، أو لحظة تأمل وتفكر، أو لحظة قراءة في علامات الملكوت العظيم في السماوات وفي أنفسنا إن نحن تبصرنا بهما معًا.

وكانت متعتي مع كتاب العناصر تزداد مع كل صفحة أدلف إليها من بعد صفحة، وقد أعود وأكرر قراءة بعض الصفحات للثبت من فهمي لها قبل المضي مع أختها التالية لها، وأحسست بحرمان عميق؛ إذ كيف ظلمنا المعهد العلمي من هذا الثراء وهذا الخيال المجنح،

هو خيال يختلف عن الخيال الأدبي الذي كان يتفرد بنا ويهيمن علينا، وهنا في هذا الكتاب خيال علمي يأخذك حقيقة على بساط الفضاء برحلة ليست كرحلة بساط الريح، وبمتعة ليست كمتعة المجازات الشعرية، وعبر هذه الصفحات صرت كأني أرى الخالق عبر مخلوقاته غير المعتادة لعقلي، كنت أعرف البشر من حولي، وأعرف الشجر والحيوانات والسهول والجبال والنخيل الباسقات، ولكن السماء كانت مجرد نجوم تؤنس خيالي بالليل وقت المنام في السطوح ووقت التفسح خارج البلد من فوق الرمال الحمراء النقية وهوائها العليل، كان هذا هو كوني الذي أعرفه، لكني الآن ومع هذا الكتاب دخلت لكون أعظم وأخطر وأشد تحديًا للتفكير، فهل خلق هذا الكون نفسه، وكيف له أن يضبط مساراته ومآلاته، وهل له عقل يدبره ويصرف أحواله دون خلل...؟!

في كتاب العناصر كأنما حلقت في رحلة إلى ملكوت السماوات والأرض، أو كأني تحررت من سجن الشكوك وانطلقت روحي حرة طليقة بعد أن كسرت حصار التساؤلات التي لم تجد لها أجوبة في الأرض، فحلقت في الفضاءات القصية، كانت حركتي مع الكتاب سلسة ورخية كموج نهر ينداح موجة إثر موجة وأنا أسبح فيه طليقًا وأطير حينًا لأحلق فوق المعاني التي تأخذني مع صفحات الكتاب وشعوري مركز على رغبة واحدة؛ هي ألا ينتهي الكتاب لأني معه صرت أشعر بالأمان، وتتغشاني الطمأنينة؛ ولذا كنت كلما تقدمت في صفحاته اشتد تخوفي من بلوغ النهاية، فكنت أتركه وأستلم كتاب

طه حسين دعاء الكروان، وبينهما أصبحت أعوم على صفحة الماء ما بين ضفة وضفة، ومع دعاء الكروان دخلت في حال من التماهي مع النص بلغة طه حسين الحالمة وسرده الشجي عن مجريات الأحداث التي جعلتني أشعر وكأني أسير مع (أمينة) الفلاحة البريئة المغدور بها، ثم يباغتني خالها المتوحش وأمها المستسلمة لشروط الثقافة، ولم يحررني منهما إلا البطلة (أخت أمينة) وهي تسير لتعيد صياغة الأحداث، حتى إذا ما توغلت في النص واستولت عليَّ الأحداث وفقدت قدرتي على الهيمنة على مسار الصفحات وانغمست في القصة بعد أن استحوذت علي حتى وصلت للفصل 21 وجاءت الصفحات تقول:

«نعم! إلى أين والليل ساكن جاثم؟ وأين تستطيع فتاة مثلي أن تذهب والليل ساكن جاثم؟ لأوقظن هذه المرأة التي تختلف عليها الأحلام وتنعم بلذة النوم في ناحية من نواحي هذه الغرفة، لأوقظنها ولأقضين معها بقية الليل في الحديث...؛ ولكني لا أكاد أسعى إليها حتى تأخذني الأشباح الحمراء من كل مكان، وحتى تسعى إلى أختي وعلى وجهها ابتسامة شاحبة حزينة مستعطفة، وهي تلقي في نفسي هذه الكلمات التي تقع منها مواقع السهام المحرقة: لا توقظيها إنها تخيفنا، وإن أيقظتها تطردنا، ماذا تخافين منا؟ فلطالما ألفتينا وألفناك، أفنسيتينا إلى هذا الحد؟! كلَّا! كلَّا! لم أنسكن ولن أنساكن ولن أذودكن عن نفسي، ولن أوقظ هذه المرأة التي تخيفكن؛ أقمن معي، أطفن بي، تحدثن إلي، فمن يدري لعلي أن أكون في يوم

من الأيام واحدة منكن، لعلي أن أكتسي هذا الرداء الأحمر القاني الذي تكتسينه والذي يدعوني إليكن ويخيفني منكن...

وهذا صوتك أيها الطائر العزيز يحمله إليَّ الهواء من بعيد فيبلغني نحيلًا ضئيلًا، ولكنه على ذلك يشيع في سكون الليل كما يشيع الضوء في الجو...، وهذا صوتك أيها الطائر العزيز يدنو مني شيئًا فشيئًا فيملؤني أمنًا ودعة وهدوءًا، وحزنًا معًا، إنه يردني إلى اليقظة الخالصة التي تشعر بنفسها وتفكر في نفسها وتذكر ما مضى على علم به وتقدير له، وتستقبل ما سيأتي في روية وبصيرة واستعداد للاحتمال.

نعم! إن صوتك يملأ أذني، وإنه يملأ قلبي، وإنه ليغمر نفسي، وإني أفهم عنه ما يريد، وإني لأذكر أختي ومصرعها، وإني لأعرف من دفعها إلى الموت، كما أعرف من أذاقها الموت، وإني لأعلم حق العلم أني ساعية إذا كان الغد إلى بيت هذا المهندس فمقيمة فيه حيث كانت أختي، فناهضة بما كانت تنهض به أختي من العمل، فمنتهية بعد إلى شي آخر غير الذي انتهت إليه أختي في ذلك الفضاء العريض...

لقد سمعت منك أيها الطائر العزيز، وفهمت عنك، وهذا عقلي يثوب إلي، وهذه قوتي ترد لي، وها أنا ذي أنتظر الصبح لأسعى إلى هذا المهندس، وإن قلبي لمظلم أشد الإظلام، وإن وجهي لمبتسم أجمل الابتسام».

عند هذه النقطة من الرواية نضجت عواطفي مع بطلة النص، وبلغ الأثر في نفسي مبلغًا تدفقت دموعي تماهيًا مع لغة النص والشعور العميق الذي تغلغل لأعمق أحاسيسي، وتداخلت حالتي الوجدانية مع أفكاري السارحة مع طه حسين، وكأني معلق بين صعيد مصر وقصور القاهرة، بين ثقافتين وعقليتين وضحيتين قدمتهما الثقافة فداء لتجيِّرها ضد المرأة بتحميلها آثام الرجل الذي سيلفظها بعد أن يقضي متعته منها، ويتحرك عندي الشعور بالشفقة مع الشعور بأثم الثقافة وظلمها، وعبر هذه العاطفة المتقدة تحرك القلب واستيقظت معاني العدالة لمواجهة الظلم وكأني مطالب بالانتصاف للبنت الموؤدة، ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ (التكوير: 8-9)، ويحضر القرآن الكريم ليشفي حرقتي، فهو المعنى الوحيد الذي سيعينني على تحمل وجع اللحظة السردية في نص طه حسين.

2. إكسير الحياة

في رواية طه حسين تحرك التحفيز الوجداني في لحظة كنت محتاجًا لتحفيز يعزز قلبي لمواجهة سؤاله الأهم، وتميزت الرواية بجمعها بين الشعرية والسردية، وتعلقي حينها بطه حسين وأدبه وأسلوبه، وهذه معًا أنضجت الحالة الشعورية وتجلت بانكساري العاطفي مع لغة النص في ذروته كما عرضتها، واكتمل التحفيز مع كتاب العناصر، حيث تبدَّى لي الكون وكأنه خيمتي الكبرى

التي تظلل روحي وتحسسها بأمان عقلي يتقاسم معها توقها الشعوري.

كان حديث المؤلف عن الحلم القديم عن إكسير الحياة بهدف استخراج النفيس من الخسيس، أي تحويل النحاس إلى ذهب هو المعنى الذي يصف علاقتي ما بين الكون العظيم بعناصره وتكويناته وبين الكون الصغير المتمثل بنص مترف بالشاعرية والسردية، وكلاهما نفيس عندي، كل نص حسب مفعوله على قلبي وعقلي معًا، وهنا يتحقق معنى الاستدلال ببعديه العقلي والوجداني، حيث نضج الشعور وأنضج معه العقل، ولانت العلاقة بين العقلاني والوجداني، وتحكرت المعاني لتحسم القلق إلى طمأنينة، والتساؤلات أصبحت حالة تبصر يغني المعاني وينزع عنها التصادم، وارتاحت المعاني عندي لتظل في ترحل متصل كأنما هي سياحة أبدية في الكون وفي النفس، في الكون الكبير وفي الكون الصغير، واتحد الكونان في خطاب معرفي / عرفاني متناسق، حركته الأسئلة في ميقات كنت فيه على مشارف الامتحان الذاتي والبحث عن أجوبة، وفي المبحث التالي امتحان آخر واجه تحدياتي في لحظة صعبة تمخضت عن ميقات لمزيد بحث.

على أن قراءتي لكتاب العناصر مع رواية طه حسين في الوقت ذاته كشفت لي العلاقة بين الإيمان وليونة القلب، وأن الوجدان إذا تحرك تحرك معه العقل وشكلا معًا بصيرة إيمانية؛ فيخشع العقل كما يخشع القلب، وتتدفق المعاني في وحدة شعورية يعرفها القلب

ولن ينفر منها العقل في هذه اللحظة التي حدث فيها التلاقي لدرجة أن يتكلم العقل بلغة القلب، وهذه حالة ظلت تصاحب تجارب حياتي كلها، وتتعزز عندي في كل لحظة امتحان يقع فيها عقلي بتحديات فلسفية وجودية، ولعلي وجدت ضالتي الحداثية بعد ذلك مع (تي إس إليوت) الذي تآلفت الحداثة عنده مع الإيمان ولم يجد تعارضًا بين العقلانية والإيمان ولا بين الحداثة والعبادة[1].

3. رحلة البحث

في الرابع والعشرين من أغسطس 1971م سافرت للبعثة في لندن وكان اليوم يوم الأحد، وبعده بيومين ذهبت لمدينة بورموث حيث معهد اللغة الإنجليزية (يورو سنتر) وهو معهد معظم دارسيه سويسريون؛ لأن مالكته شركة سويسرية، وفيه طلبة من أوروبا وبعض عرب منهم أربعة سعوديين، وبعد شهر من بدء الدراسة أخذونا لحفلة ليلية في مكان ريفي خارج المدينة، وحين وصلنا المكان تفرق الطلبة على مجاميع جلست كل فئة مع بعضها على طاولات منتشرة حول قاعة الحفل، وجلسنا نحن السعوديين مع بعضنا، ولكن هذا أثار استنكارنا؛ لأننا لم نأت لنرى بعضنا ولكننا بحاجة للاختلاط مع غيرنا وممارسة اللغة الإنجليزية والتعرف

(1) كان إليوت هو أول من رد على راسل ومحاضرته: لماذا لست مسيحيًّا (يعني لست مؤمنًا) عام 1927م، وإليوت مؤمن وفي الوقت ذاته هو رأس الحداثة الغربية، وأشرت لذلك مفصلًا في الفصل الرابع من كتابي **العقل المؤمن/العقل الملحد**.

على الآخرين فقررنا الانتشار، وتحركت بين الطاولات مع إحساسي بمشكلة، إذ كيف أقتحم عالم الناس وأقحم نفسي عليهم مع تكتل كل مجموعة مع بعضهم مما يصعب الأمر، غير أني وأنا أسير بين المجاميع تلاقت عيوني مع عيون طالبة سويدية تجلس مع زملاء لها من بني جنسها، ولعل منظري وسحنة وجهي لفتت نظرها ورغبت بالتعرف على ثقافتي المختلفة كما توحي ملامحي، وسألتني دون مقدمات من أين أنت؟ فلقت لها: من السعودية، هنا تلعثمت ورددت كلمات سأودي، سأودي، نعم نعم سمعت عن بلدك، أنتم... أنتم... مكة، مكة. فقلت: لها نعم نحن مكة، ونط زميل لها وقال: كابا، كابا، يقصد كعبة كعبة، فقلت نعم نحن مكة ونحن الكعبة، فقالوا لي تعال اجلس معنا وحدثنا عن بلدك.

استدعينا كرسيًّا إضافيًّا وحاولنا إقحامه بين كراسي الطاولة المكتظة، وتشارك الجميع في زحزحة فتحة تتيح إضافة كرسي للمجموعة، وبدأت الأسئلة عن بلدي، وشرعت أشرح لهم سؤالهم عن مكة والحج، مع صعوبات في اللغة، فكلنا ضعاف في الإنجليزية حينها، ونحن في البدايات، ولكننا نحاول بما لدينا من رصيد قليل معظمه كلمات لا ترقى لتكون جملًا كاملة سليمة، وكنت أشرح عن مشاعر الحج والطواف، واستعنت برسم صورة للكعبة محددًا الحجر الأسود وزمزم وعملية الطواف، ومع الانهماك في الشرح قفز سؤال مفاجئ في رأس أحدهم وقال: هل أنت مؤمن بالله؟ وحين أجبت بنعم، قال هو: أنا لا أرى وجود إله وتتابع البقية متفقين

معه، وهنا تغير الكلام كله وبدأ نقاش عن الخالق وحلت اللغة لتكون هي بطلة النقاش؛ فكلنا على مستوى هزيل في اللغة، ونحن بصدد موضوع معقد ويحتاج لفلسفة وتخريجات ومصطلحات كونية وفزيائية، غير أن مهمتهم أخف من مهمتي، فقد كانوا يساعدون بعضهم كلما تعثرت الكلمات عند أحدهم فيتبادرون بمده بكلمة من هذا وكلمة من هذه إلى أن تتشكل جملة مفيدة أو شبه مفيدة، أما أنا فكنت وحدي دون معين، ولكنهم كانوا يحاولون مساعدتي فيقترحون عليَّ مفردات كلما تلكأ القول على لساني، وكلما زودني أحدهم بمفردة اعترضت عليه زميلته لتقول لا، ليست هذه فتقترح غيرها، وتكررت هذه الحالة لدرجة أن أصبحت مادة للتريقة والمزاح، وعم طاولتنا الضحك والإمتاع مع لعبة اللغة، وتحولنا لنكون أبرز طاولات الحفل، وكل من في القاعة صاروا يتلفتون تجاهنا مندهشين من هذا الفرح الذي يغطي على طاولتنا من ضحكات ونكت وتبادل لغوي عجيب لا هو فصيح فيفهم ولا هو مبهم فنسكت، وكأننا أصبحنا في فيلم يشبه أفلام شارلي شابلن، ويظل النقاش ما بين متعة لغوية خلابة وما بين فلسفة تعيقها اللغة، واستمر النقاش مقطعًا بين سلوة وتفكر، والضحية هنا هي الإقناع، وكيف يتحقق إقناع فكري مع ضعف اللغة واختلاف المرجعيات، وهم كلهم وكلهن على إجماع واحد وبمعونات لغوية مشتركة، وأنا الوحيد بينهم لغة وفكرة، ولكن النقاش كان لحظة ثقافية لم أتصور أني سأحظى بها بهذه السرعة في شهري الأول في بريطانيا

التي كنت أحلم أني سأجد فيها كنوز المعرفة والدهشة والانفتاح، وأن أعيش زمن الحضارة والعراقة كما هي رمزية بريطانيا العظمى، وكان هذا المعنى لما يزل حيًّا في السبعينيات وإن كان على بقية من بقاياه، غير أن جلستي تلك جعلتني أعيش المعنى الأوروبي بوجود طلبة سويديين معي وبدخولي للغة الإنجليزية من أصعب أبوابها، باب الحوار حول أهم سؤال وجودي، والسؤال يحتاج إلى حجج قوية ومحاجة ماهرة ولغة عميقة، وهذا ما لم يتوافر لأي منا في تلك الطاولة، ولكن الذي توفر هو متعة معاناة الحوار ومعاناة اللغة، وقد ضحكنا كلنا على أنفسنا وعلى بعضنا ضحكًا ما كنا سنكسبه مهما حاولناه لولا لعبة اللغة وبطولة اللغة مع مستخدميها حيث يعجزون عن الهيمنة عليها وهي تلعب بهم لعبًا وتضعهم في عراء المعاني.

امتدت متعة الجلسة لأكثر من ساعتين لكنها غير مقنعة، وعجزت أن أشرح نفسي لهم أو أن أصل إلى عقولهم وقد طال الوقت وأنهكنا كلنا، واقتربت نهاية الحفل وهنا قلت لهم، حسنًا أنا عاجز عن إقناعكم بوجود الخالق فهل لكم أنتم أن تقنعوني أن الله غير موجود...!

هنا تغير مزاج الجلسة وقالوا كلهم: لا نستطيع، فختمت بأن قلت: إذن سيظل الخالق موجودًا عندي حتى يأتي من يقنعني بالعكس.

طبعًا لم أقلها بهذه الفصاحة ولا هذا الوضوح، فلغتي ولغتهم لا تسمح لنا بدرجات عليا من الدقة اللغوية، لكن فكرتي وصلت لهم وفهمنا بعضنا، وانتهت حفلتنا بسعادة وإمتاع لم يحظ به أي من المجاميع الأخرى، وفي طريق عودتنا كانت التعليقات من الجميع في الحافلة حول طاولتنا وأنها أكثر الطاولات متعة وتسلية، وكل من سأل عن التفاصيل ضحك حين نقول له إننا كنا نتناقش عن وجود الخالق ويظنون أن جوابنا مزحة ومزيد من التنكيت.

- ب -

ظل السؤال الذي طرحته على السويديين يشاغلني، وهل لأحد أن يثبت بالبرهان أن ليس للكون خالق، وأخذني الترحال في بريطانيا إلى كيمبردج وأكسفورد، حيث واصلت دراستي للغة في كل منهما، ثم انضممت لجامعة أدنبره في أسكتلاندا مدة سنتين وانتهى بي المطاف في جامعة إكستر عام 1974م، وفي ترحلي بين المدن تحسنت لغتي لمستوى أستطيع معه أن أقرأ في كتب الفلسفة والبحث فيها عن إنارات تضيء لي وجوه السؤال الوجودي عن الخالق، ووقع اهتمامي على برتراند راسل كثيرًا، أولًا لجمال لغته ولذكاء تخريجاته في القضايا المعرفية ونقد الخطاب مع مواقفه مع الحرية واستقلال الذات، ويقوي ذلك ثراؤه المعرفي ووعيه العميق بتاريخ الفلسفة منذ نشأت قديمًا مع تمددها عبر العصور، ومهارته في ضغط هذه المعرفة الواسعة بنص مكثف يشبع الفكرة مع سلاسة الأسلوب وبهائه حتى لترى جمال اللغة الإنجليزية وانسيابيتها مع

□□□□□ □□□□□□.indd 110 10/20/20 9:10 AM

أصعب الأفكار وأعقدها، وكأنك تقرأ نصًّا شعريًّا وليس فلسفة، وهذه مزايا في فن الكتابة وثقت علاقتي مع راسل مذ تعرفت على فكره وكتبه وظلت مستمرة، ووقفت على محاضرته تحت سؤال: لماذا لست مسيحيًّا، وهو سؤال يعني لماذا لست مؤمنًا، وقد ألقاها عام 1927م، وحين وقفت عليها ظننتني أقف على موعد مع سؤالي الشاغل لي عن إمكان نفي وجود الخالق فلسفيًّا، وهالني أنني لم أجد عند راسل ما يغني سؤالي، ولكن الذي أفادني كثيرًا هو عثوري على مناقشة الشاعر الحداثي العظيم (تي إس إليوت) لمحاضرة راسل، حيث وصفها بأنها عاطفية وليست فلسفية، وهذا منحني ثقة معنوية عالية أولًا أني قد صدمت من مستوى محاضرة راسل وهي صدمة ذات أساس نقدي وليست صدمة عاطفية، وكنت قد شككت بنفسي حين رأيت حال محاضرة راسل وكنت أقرؤها مع مقارنات ذهنية في رأسي عما أختزنه من إعجاب عميق بفكر راسل ومهاراته الجدلية في مسائل فلسفية معقدة، وفي قراءاته للمفاهيم وتفكيك المصطلحات، ولم أجد أثرًا لذلك حين تناول موضوع وجود الله وتهرب عن السؤال؛ لأنه موضوع طويل لو دخلنا فيه لبقينا في قاعة المحاضرة إلى يوم القيامة، وهذه عباراته مخاطبًا جمهوره حينها، وقرر أن يذهب للموضة الثقافية في الاختصار، وحين شرع في الاختصار لم يقل شيئًا يمكننا تسميته بالفكر الفلسفي؛ ولذا ارتحت لوصف إليوت لمحاضرة راسل بأنها عاطفية وليست فلسفية، وهو الوصف الذي كنت أود سماعه؛ لأنه يشفي صدمتي من راسل

العظيم الذي بان هنا أنه عاطفي فحسب، ولم يؤثر هذا على موقفي من الفيلسوف راسل؛ بل ظل مقامه عندي ولما يزل عاليًا، ولكن ليس في موقفه من سؤال الخالق الذي فهمته أكثر وأكثر بعد أن قرأت مناظرته مع كوبليستون، وهو فيلسوف ومؤرخ فلسفة تمامًا مثل راسل، مع فارق واحد جذري أن كوبليستون يقدم نفسه أنه يثبت وجود الله فلسفيًّا ويبحث عن مجادل يثبت له فلسفيًّا أن الله غير موجود، وهذا بالضبط ما كنت أبحث عنه، ومناظرة الفيلسوفين تمت عام 1948م مباشرة على المذياع وبعنوان: (مناظرة عن وجود الله)، بفارق بعد عشرين سنة عن تاريخ محاضرة راسل بموضوع (لماذا لست مسيحيًّا) (لست مؤمنًا)، وفي المناظرة أكد راسل أنه لا ينفي وجود الخالق ولا يثبته، وأنه على مذهب اللاأدري agnostic، وفيها تجنب كل سؤال عن الكون بوصفه كلًّا مطلقًا، وتجنب السؤال عن الوجود الضروري، وبالرغم من محاجة كوبليستون له مستعينًا بالرؤى الفلسفية عن الوجود الضروري الذي يعني وجود الله وله أدلة عقلية ومنطقية، وظل كوبليستون يسوقها دون أن يفندها راسل الذي اكتفى دومًا بالقول إنه لا يرى ضرورة لطرح سؤال الوجود الضروري، في حين تقبل فكرة البحث عن سبب وجود الجزئيات الكونية بما أن العلم الطبيعي يجيب عنها، ولكنه يتأبى البحث عن سبب وجود الكل، وهذا تنازل فلسفي خطير حيث تقبل السؤال عن الجزء وترفض السؤال عن الكل، مع أن الأجزاء ليست سوى عناصر للكل منبثقة عنه ومكونة له، إذ لن يكون الكل دون أجزائه ولن تكون

الأجزاء ما لم تتحد في كل يجمعها، وإذا قبلت تفسير وظيفة الأجزاء فكيف تتمنع عن تفسير وجود الكل الحاوي لهذه الأجزاء، والكون هو كل مكون من عناصر، وكل عنصر له وظيفة تتكامل مع عنصر آخر، وفصل العناصر عن الكل المحتوي لها هو عمل لا يمكن فهمه، وهذا ما حيرني مع محاضرة راسل، ثم تفككت حيرتي بعد اطلاعي على رأي إليوت ثم مناظرة كوبليستون، حيث فهمت أخيرًا أن راسل ليس ملحدًا وإنما هو فحسب (لاأدري، agnostic)، لا ينفي ولا يثبت.

- ج -

في عام 1974م حطت رحلتي العلمية في جامعة إكستر جنوب غرب إنجلترا، وفي الوقت نفسه انظم البروفيسور جوتيه ينبول ليكون أستاذًا في الجامعة ومشرفًا عليَّ في الدكتوراه، وهو مستشرق هولندي، وكنت أول تلميذ دكتوراه يشرف عليه، وفارق السن بيننا لا يزيد عن عشر سنوات، ونشأت بيننا علاقة صداقة إضافة إلى البحث والإشراف؛ ولذا نشطت الحوارات الجانبية بيننا في الفكر وفي السياسة، وكانت فلسطين وقتها هي القضية العربية التي تشغل أحاديثنا خاصة مع نشاط الفصائل الفلسطينية في العمليات الفدائية في تلك الحقبة، ووقع خلافنا هنا لأنه يميل للموقف الإسرائيلي، وكلما وقعت عملية فدائية يتفجر الوضع الإعلامي والسياسي في بريطانيا، ويقوم نقاش بيننا ويشتد حسب شدة الحدث، وتظل المواقف ثابتة؛ فأنا مع فلسطين وهو يصف الفدائيين بالإرهابيين ويغض طرفه عن الاحتلال الغاشم والمتسلط، بجانب

هذا وقعنا في حوار وجودي عن الخالق، فهو ملحد يصف نفسه قطعيًّا بالإلحاد، ويقف مواقف سالبة ضد فكرة الدين بكل صيغه مسيحيًّا أو يهوديًّا أو إسلاميًّا، وثقافته في اللاهوت والفقه قوية جدًّا، وله علاقة وثيقة مع الأحاديث النبوية، وكان واحدًا من فريق العمل الذي أنجز (معجم ألفاظ الحديث النبوي)، وهو العمل الذي امتد سنوات وعمل عليه فريق بحثي من ثلاثين باحثًا استقصوا الأحاديث النبوية ورصدوها مفردة مفردة في معجم شامل؛ ولذا فهو على وعي تام بالحديث والفقه الإسلامي بمثل علمه بالأناجيل بعهديها القديم والجديد وكذلك باللاهوت، ومحاضراته العامة يطغى عليها هذا المجال، وهذا ينافس بحوثه التخصصية النشطة جدًّا أيضًا، ويجيد خمس لغات ويحاضر بثلاث منها دوريًّا في دعوات في فرنسا وأمريكا وطبعًا هولندا وبريطانيا؛ ولذا كنت أتناقش معه كثيرًا عن وجود الخالق، في حين ينفي ذلك، ولكن حواري معه تغير نوعيًّا وفكريًّا عن حواري مع السويديين عام 1971م، ففي السنوات الثلاث التي مرت عليَّ بعد حوار بورموث تزودت بزاد فلسفي بمثل ما تحسنت لغتي الإنجليزية، ومررت أيضًا بمحاورات مع شباب عراقيين تزاملت معهم في جامعة أدنبره، وكان واحد منهم ملحدًا عنيدًا، ومررت معه في حوار طويل لم نصل فيه لقناعة، وختم الحوار معي مرة بأن قال أمام الأصدقاء الذين شاركوا معنا وقال لي: تفضل... لك مني خمس دقائق سأصمت فيها تمام الصمت وأتحداك أن تقدم خلاصة تثبت فيها وجود الله، فقلت له سأعطيك

أنا خمس ساعات لتثبت لي أن الله غير موجود، وانتهى نقاشنا بعد ذلك، ولكنه كان تدريبًا جيدًا لي في استعراض الأفكار والتعرف على مرافعات الملحدين، على أن النقاشات حول محاضرة راسل كانت هي الأقوى في كشف حال الخطاب الإلحادي أمامي، وهو ما تزودت به في حواري مع جوتيه ينبول وهو حوار ظل قائمًا مدة علاقتي معه بسبب أنه ظل يباغتني بتحديات علمية كلما عثر على حديث موضوع أو رأي فقهي غريب، ويسألني مواجهًا لي عن هذه القضايا، وكنت أقول له دائمًا إن هذه القضايا لا تعنيني، وكل الذي يعنيني أن تجيب عن سؤالي القديم مع السويديين: هل تثبت لي أن الله غير موجود...!؟

لم يك ينبول يتقبل هذا السؤال، وفي الوقت ذاته كنت من جانبي قد مددت لنفسي صلة مع قسم الفلسفة في الجامعة، وكنت أتردد على القسم حين يُعلن عن أي نشاط عام فيه، نقاشًا أو محاضرة مفتوحة، ويزيد على ذلك دورات تقام يوم السبت مدفوعة الثمن، وتكون في غالبها عن فيلسوف محدد، أرسطو، ديكارت، كانط، هيوم، روسو...إلخ، مما يزيد من تعرفي على أفكارهم عن الخالق، مع قراءاتي لهم ومتابعاتي لهذا الموضوع الذي صاحب حياتي الثقافية في بريطانيا كواحد من الاهتمامات المتصلة والمجاورة للمشاريع البحثية عندي وأولها بحث الدكتوراه ثم بحوث ما بعد الدكتوراه، وكنت أستعين بالفلاسفة من ديكارت ولايبنتز وروسو لتقوية حجاجي مع ينبول، غير أنه يقطع دومًا بخلافه مع مقولاتهم

ويميل لموقف برتراند راسل، وهذا ما دفعني لذكر موقف راسل بأنه agnostic لا ينفي ولا يثبت، لكن ينبول يرد محتدًّا إنه ملحد وليس agnostic، ومن عادة حواراتنا أن تحتد ويرتفع الصوت، وقد يزيدها ينبول بضربة مدوية على طرف المكتب، ولكنني طبعًا لا أصل لضرب المكتب في وجه مشرفي، وإن احتد صوتي تبعًا لاحتداد صوته، ولم يك ذلك عن وعي وقصد ولكن حرارة الحوار ترفع حرارة الصوت.

وأنا مدين معرفيًّا لهذا الحوار الذي امتد طويلًا، وكان امتداده سببًا لتثرية أفكاري، وزاد ذلك أن علاقتي مع أستاذي كانت مصدر متعة فكرية ووجدانية، خاصة مع تبسط العلاقة وانتهاء التحسس منها وانكسار الحد الطبقي بين مشرف وتلميذ، وكان الصوت المحتد والعناد المعرفي أبرز سمات جلساتنا التي لا تكون عن موضوع الرسالة، وكنا نلتقي أسبوعيًّا وفي كثير من المواعيد لا يكون لدي شيء من أمر الرسالة؛ ولذا نعمر الوقت بالحوارات، ومن حواراتنا أيضًا أنه يعرض عليَّ بعض النصوص التي يعثر عليها في المدونات العربية والتي تخص التدقيق في معاني الكلمات المركزية وكونها تحتمل غير ظاهرها، مثل بحوثه الطويلة عن معنى القُرَّاء، وموضوع استشهاد القُرَّاء في حروب الردة، وزعمه أن كلمة القُرَّاء تعني سكان القرى، وصرف وقتًا طويلًا لتعزيز رؤيته، ونبش في النصوص العربية القديمة صارفًا أكثر من سنتين في هذا التتبع العجيب، ونشر ثلاثة بحوث ليثبت دعواه بأن الذين استشهدوا ليسوا

القراء بمعنى حفظة القرآن ولكنهم سكان المدن، أي الحاضرة، ولم أر أحدًا وافقه على قوله إلا محمد أركون الذي استشهد به في بعض إحالاته، أما من شهدته من مستشرقين وعرب فلم يتفقوا مع خلاصته، ولكن المفيد لي في هذا كله هو الدربة التي تعلمتها منه في معاندة الخطاب وتحدي الدلالات للبحث عن معنى غير المتعارف عليه، ثم الدربة على الصبر على البحث وملاحقته حيث يمضي بك دون أن يفت في عضدك اختلاف الناس معك.

تعلمت في أربع سنوات عشتها مع جوتيه ينبول أمورًا علمية ودربة جدلية، وتعززت عندي قيمة البحث وتحديات الاختلاف، على أن خلافي معه حول وجود الخالق ظل قويًّا في نفسي، وظل يمثل لي متعة ذهنية ومعرفية، ولاحقني السؤال خمسين سنة مذ 1971م في بورموث إلى عام 2020م حيث أصدرت كتابي (**العقل المؤمن/ العقل الملحد**)، وهذه هي قصة هذا السؤال الذي لازم عقلي نصف قرن إلى أن تنزل في كتاب.

- د -

علاقتي مع مشري سادها جو من الاحترام المشترك، ونالني من تقديره ومحبته الكثير، أما كراهيته فقد وجهها لنازك الملائكة، وقد تقابل معها في أمريكا وتعارك معها في بعض القضايا، وظل يمقت ذكراها، ولم أك أعرف هذه الحكاية؛ ولذا لم أفهم لمَ أصر عليَّ لتغيير موضوعي للدكتوراه الذي كان عن

نازك، وكنت قد جمعت مادتي البحثية عنها منذ زمني في أدنبره على مدى عامين كاملين، وكنت انضممت لجامعة إكستر بنية تكملة بحثي عن نازك، غير أن جوتيه ينبول ظل يزهدني بالفكرة، وأن نازك لا تستحق رسالة دكتوراه، وحين دافعت عن الموضوع وعرضت عليه أوراقي لجأ للقول إن نازك لما تزل حية، وربما تغير آراءها، وحينها ستتضرر مستخلصاتي عنها، وكنت أستغرب قوله هذا ولا أجد فيه أي منهجية علمية، ولكن تغير موقفي كله حين التقطت منه جملة نطقها وكأنه يهمس لنفسه بها، حيث تنفس نفسًا عميقًا وقال: I hate this woman، وعملت نفسي وكأنني لم أسمع، وقررت ترك موضوع نازك إحساسًا مني أن الأمر شخصي وعميق، وبعدها عرفت عن لقاء بينهما في أمريكا وكان مناسبة صدامية عميقة، أما عملي عن نازك فلم يذهب سدى، وكانت أول بحوثي فور عودتي للمملكة عام 1978م عن نازك الملائكة، وكانت جزءًا من بحوث ترقيتي لأستاذ مشارك، وظهرت بعد ذلك في كتابي (الصوت القديم / الصوت الجديد).

4. حوارت الشباب

- أ -

في سبتمبر 2011م فتحت حسابًا في تويتر وشرعت في التغريد بمعدل يومي يصل لساعتين أو ثلاث ساعات حسب حال التفاعل، وتويتر فضاء عام مجرد من القيود ويتساوى الكل في تويتر دون

اعتبار للفروق المعتادة في البروتوكول الاجتماعي، وقد كتبت كتابًا عن ثقافة توتير ولكني لم أشر لتجربتي مع جيل شاب لديه أسئلة وجودية حساسة جدًّا في مجتمع محافظ يصعب فيه أن تكون الأسئلة صريحة دون إلغاز وأقنعة، وبالرغم من هذا فقد مرت مرحلة شهدتها من دخولي ولمدة امتدت خمس سنوات، ثم أخذت في الخفوت لأسباب سأتعرض لها لاحقًا، وهي تغريدات فيها من الجرأة والوضوح حول موضوع الإلحاد، حتى مع أسماء صريحة أعرف بعضهم من لقاءات لي معهم في جلسات يطلبونها مني قبل زمن تويتر فوجدتهم في تويتر، وفي العموم فإن كوني حداثيًّا أغرى كثيرين بالتداخل معي حول مواضيع الإلحاد، واكتشفت أن هناك تصورًا عامًّا عني أني ملحد، وكثير ممن لم يقابلوني من قبل كانوا يجزمون بإلحاديتي، يتضح ذلك حين يصرحون بدهشتهم وأحيانًا خيبة ظنهم وصدمتهم مني إذ يتكشف لهم أني مؤمن في الوقت الذي أنا حداثي، على أن التصور العام ثقافيًّا ومجتمعيًّا أن الحداثي متحرر ليس فكريًّا فحسب ولكن اعتقاديًّا وسلوكيًّا، وقد واجهني كثيرون بهذا التصور بعضهم مصدوم لأنه يريدني ملحدًا، وآخرون يتعجبون لأنهم يظنوني ملحدًا فيكتشفون خطأ ظنهم.

ولعل أبرز مثال على هذا التصور ما قاله الأستاذ رضا لاري -رحمه الله- جوابًا عن سؤال جاءه من جريدة البلاد عام 1987م سأله عني فقال: (الغذامي زعيم الحداثيين لكنه يصلي)، وهذه

تلخص التصور العام عند المحايدين كالأستاذ لاري كما عند التقليديين والحداثيين سواء بسواء، وهي المسألة الوحيدة التي تتوافق عليها الأطراف المتصارعة، وهو تصور غير علمي وغير واقعي؛ فالشاعر تي إس إليوت هو رأس الحداثة الغربية والعالمية إبداعًا وتنظيرًا وريادة، وفي الوقت ذاته مؤمن، وهو أول من واجه برتراند راسل ومحاضرته لماذا لست مسيحيًّا، بمعنى لماذا لست مؤمنًا عام 1927م، ورد عليه إليوت برد عنيف واصفًا محاضرته بأنها عاطفية وليست فلسفية، وفند أقاويل راسل معززًا معاني إثبات الخالق ورادًّا حجج راسل؛ ولذا فليس من غرابة علمية ولا واقعية أن يكون الحداثي مؤمنًا مع التأكيد على انتفاء التناقض بين الحالين، ولكن الرأي العام مشحون بالظن أن الحداثة ملحدة بالضرورة، وهذا قطعًا غير صحيح.

ويظل الأمر كذلك مع جماهير تويتر، وهو الذي حرك الحوار معي إما اطمئنانًا لتفهمي وصبري على مناقشات الشباب، وأحيانًا مجادلة لي ممن ظنوا بي الإلحاد فهالهم اكتشاف العكس؛ فرغبوا بمواجهتي تحديًّا وتشيطًا لجدلياتهم، وفي الأحوال كلها كنت مستمتعًا بالنقاش؛ وقد عودتني السنين عليه منذ لقائي مع السويديين كما ذكرت في المبحث الفائت، ثم فيما مر علي من جلسات مبرمجة مع شباب كانوا يطلبونها، ولكن تويتر عوضت عن طلب الجلسات، وظل الحوار المفتوح والخاص معًا في تويتر، على أن الخاص يتم بعد طلب من أحد المتابعين

حين يبدي رغبته في سؤال على الخاص، ويحدث هذا كثيرًا إما لموضوع كموضوع الإلحاد، ويخشى السائل من مغبات العلن فيلجأ للخاص، أو يكون طلب الخاص من باحثين وباحثات بأسئلة عن مشاريع بحثية تحتاج لاستيضاحات، وكنت أرحب بالفئتين وأسعد بهم أجمع.

أما موضوع الإلحاد فكانت الحوارات حوله تشتد على الخاص وتتم فيها المصارحة الكاملة، ومن أبرز أمثلتها عندي شاب مبتعث اهتم بسؤال الخالق وتأثر بقراءات إلحادية، وتشابكت القضايا عنده ولم يتهيأ له جو للمناقشة، مما جعله أسير نفسه وقراءاته، ورغب بفتح الموضوع معي وبدأنا في نقاشات كنا نسارق الوقت فيها بسبب فروق التوقيت بين أمريكا والسعودية، وبسبب خروجي من تويتر عند الثامنة مساء، واتفقنا أن يرسل نقاشاته في الوقت الذي يريحه وأنا أنظر فيها في الوقت الذي يريحني، وظل هذا وضعنا أنظر وأرد وهو ينظر ويرد دون أن نتوافق دومًا في التوقيت، وكانت أسئلته بطبيعة الحال من النوع الذي مر علي شخصيًّا ومرَّ علي في حوارات، وحرصت أن أكون صريحًا معه بمثل ما أني متفهم له، وفعل هو الشيء نفسه، وظللت أعرض عليه ما مربي من أسئلة وما مر علي من وقفات فلسفية واستعنت عبر ذاكرتي بنقاشاتي مع ينبول وهي أقوى ما مر علي من نقاشات حول مسألة الخالق وشكلت لي وعيًا، ارتحت معه واستقرت به تصوراتي، وهذا ساعدني في تقديم خبرتي مع الشاب الذي أثبت مهارات عالية في الموضوعية

والعقلانية، ولم يك متهورًا ولا مصرًّا على مواقفه قط، لكنه ظل صريحًا وواضحًا ولم يسلم لي ولموقفي، غير أنه بدأ يسائل قناعاته الإلحادية ويشعر أن حجج الملحدين ليست صلبة أمام النقاش؛ لأنها تقوم على رفض فكرة وجود الخالق وليس مناقشة وجود الخالق، وفي هذه اللحظة من الوعي النقدي تحول إلى شخص ناقد للخطاب نفسه، وبدأ يتفكر في الخطاب الإلحادي، ثم تغير الموقف كله حين وجدت منه رسالة يعبر فيها عن قلقه على حاله الاجتماعية، بمعنى أنه سيتزوج يومًا ما وسينجب أطفالًا، وهنا كيف سيربي أطفاله وعلى أي معتقد وعلى أي أخلاقيات، وهم في مجتمع له معتقده وله أخلاقياته وله وجدانياته، فهل يعزل أطفاله عن بيئتهم المؤمنة أم يهاجر بهم، وهل ستكون الهجرة فقط لكي يربيهم على الإلحاد، ومضى مع هذه الأسئلة، وكان قد كتبها بما يعادل منتصف الليل عندنا، وبعد الغد كنت قد حزمت حقائبي وسافرت في رحلة طالت عبر المطارات وتعب الترحل، ولم أر رسالته إلا بعد يومين من إرسالها، وهالتني الرسالة وهزت كياني كله، هالتني درجة المروءة عنده ومستوى إحساسه بغيره ومستوى حسه بالمسؤولية، فكتبت له فورًا: «وصلت يا بني.. وصلت يا بني، وصلت وصلت؛ مروءتك سوف تحسم أمرك».

للمروءة قوة معنوية علينا، وإذا حضرت حسمت موقفنا حتى دون تبصر ولا تساؤل، وننـدفع تبعًا لها نحو ما توجهنا إليه، وهي لا توجهنا لشيء مصلحي لنا ولكنها دومًا توجهنا لعمل شيء

لغيرنا، ومن بلغت نفسه مبالغ المروءة فهو من سيجعل غيره فوق كل مصالحه الذاتية، وقد يضحي بماله ووقته وربما حياته من أجل موقف كتبته عليه مروءته، تلك هي سيرة المروءة وآثار فعلها على النفس البشرية، وقررت أن أكتب تغريدة عامة وأنشرها في حسابي بصيغة عامة لا تخص معينًا، وهذا نصها:

«خلع جلده

فر بعيدًا يقطع الآفاق والأزمنة

أعياه التعب وسقط مغشيًّا

لحق به جلده

تلبسه

صحا وفي رئته هواء كان قد نسيه

وحلق كطير نبت له للتو جناحان».

(تغريدة في 2016/6/4).

لم تمر سوى ساعات حتى جاءتني منه رسالة على الخاص تقول: «وصلت الرسالة».

فكتبت له ردًّا قلت فيه: «إن جئت إلى الرياض في أي إجازة لك من بعثتك فإني أود أن تزورني في البيت».

لقد كنت راغبًا بزيارة منه؛ لأني أحسست أني سأستضيف أحد معاني المروءة في بيتي، وفعلًا زارني وكرر الزيارة مرارًا وتبادلنا الهدايا في كتب مني له وفي كتب يتخيرها ويشتريها لي توقعًا منه أنها ستعجبني، والمهم أن الذي ظل يعجبني هو فكره الحيوي وخلقه الراقي ووعيه بذاته ومسؤولياته، وأرى أن هذه القصة هي من أهم هدايا تويتر لي، ولن تجد أجمل من العقل حين يناقش بموضوعية، ولن تجد أجمل من المروءة حين تراها تتدفق على مسلك صاحبها وعلى كلماته..

- ب -

قالها روسو: «إن التعصب الفلسفي يوقع في الغرور، وإن التشدد الديني أخطر من الإلحاد»[1]، وشهادتي على واقع الخطاب الإلحادي للشباب أنه لم يك إلحادًا بمقدار ما هو رد فعل غاضب على التشدد، لقد مر عليَّ شاب كان يحدثني وهو يبكي، حيث يروي لي كيف يتعامل معه أبوه حين يوقظه لصلاة الفجر، ويصل ذلك لحد الضرب وسكب الماء على وجهه وإغراق فراشه، وانعكس ذلك على موقفه من الدين، وبدلًا من الغضب على تصرف أبيه غضب من الدين، ولا بد أن أشير هنا إلى أني لم أشهد هذه الحالة سوى مرة واحدة، ولكن العموم الذي رأيته هو غضب من فتاوى التحريم المتشددة، والطريف أنهم يرتاحون لأي إسلامي على الفضائيات حين يتحدث ضد أي مؤسسة دينية حتى وإن بالغ في قوله وفي نقده،

(1) روسو، **التعصب والتشدد**.

وكأنه يشفي غليلهم من التشدد، ولا يعني ذلك تقبلهم للشخص نفسه ولا لسلوكه، وإنما فحسب يشعرون أنه يعبر عن ثورتهم على نظرية التشدد، وكان حديثي معهم ينصب على نزع القداسة عن الأشخاص، وإذا عاملنا الأشخاص بوصفهم بشرًا مثلنا فحينها سيسهل علينا نزع القدسية عن أقوالهم المتطرفة، ويمكننا ذلك من الوقوف على فتاوى غيرهم، وكل اختلاف في الفقه سيعزز قيمة العلم الشرعي واتساعه وتعدده ويقلل قداسة رجال يتبين أن أقاويلهم تصطدم بأقاويل لغيرهم في الموضوع نفسه والحجج نفسها، مع فروق فقط في الفهم وتوجيه الحجج نحو التشدد والقطع، أو نحو التسهيل والمعقولية العملية والظرفية.

على أن التشدد الديني يضرب المراهقة بأشد من غيرها، ففي حين يستسلم الطفل غالبًا للأوامر إلا أنه حين يصل للمراهقة تبدأ عنده رغبات الاستقلال، وهنا يدخل في حال توتر مع التشديد عليه بالأوامر التي تناقض رغباته الفتية في المتعة مثلًا، فإذا قلنا له إن لعب الكرة حرام، وسماع الموسيقى حرام، والسياحة حرام، وتشددنا في هذا حد منعه وملاحقته والتضييق عليه فيما لو سمح لنفسه بشيء من هذه الأمور، فإذا رأى فتيانًا غيره يتمتعون بهذه كلها وهو ممنوع منها تشكلت عنده حال من الرفض والمقاومة تأخذ صيغًا متنوعة من التعبير عن الرفض، وقد ذكر الدكتور مشعل العقيل وهو طبيب نفساني تمر به حالات لشباب مروا بظروف سببها شدة المعاملة عليهم في البيوت يقول فيها: « كثر الحديث عن

الإلحاد وأسبابه، وربما يصعب تحديد المشكلة وربطها بسبب واحد لجميع الحالات، ولكن أجد تعنيف الوالدين (الشديد) والظلم الذي تعرض له في الطفولة، واستمراره لفترة دون وجود ما يوقفه أحد أبرز التفاصيل المشتركة بين العديد من الملحدين...»[1].

ولا شك أن التشدد تراجع الآن إلى حد كبير، وجاء زمن معتدل في معظم القضايا الخلافية التي كانت تؤخذ بشدة، وأصبحت تتسع لوجوه الاختلافات الفقهية، مثل قيادة المرأة، وغطاء الوجه، والبعثات، والموسيقى، وعمل المرأة، وكلها كانت تعامل على أنها موبقات، فأصبحت مقبولة وزال العنت فيها، مما جعل ظاهرة الإلحاد تخف كثيرًا عما كانت عليه بسبب خفوت حالة الغضب تبعًا لتراجع حالة التشدد.

وفي المدة التي شهدتها ما بين 2011م و 2016م كانت النقاشات الغاضبة تغطي مساحات كبيرة في تويتر وفي أسئلة الشباب التي كانت تتصيد من تتوسم فيهم التنوير والحداثة واتساع الصدر للحوار عن المواضيع الخطرة اجتماعيًّا، وكان التعامل معها عنيفًا ويفضي للملاحقة والمحاسبة، وقد ذكرت بعض قصص عنها في مبحث أعاصير تويتر، في كتابي عن (ثقافة تويتر)، وما حدث لبعض مغردين من ملاحقة تحت مغبة معاني تغاريد لهم[2].

(1) انظر حساب الدكتور مشعل العقيل في تويتر، وتاريخ التغريدة 2020/8/12م وتلاها بتغريدات توضيحية.

(2) عبد الله الغذامي، **ثقافة تويتر**، الفصل الأول، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء / بيروت 2016م.

5. هل تحب الآثم؟!

سأسميه (الضيف) وهذه صفته وليست اسمه؛ لأنه كان دومًا ضيفًا علينا حتى وهو يدعونا لداره وللشاليه الخاص به على شاطئ أبحر في جدة، فهو يظل ضيفًا وإن كنا نحن الضيوف، وهو ليس أديبًا لكنه يحب الأدباء ويتمازج معهم، ولا يصف نفسه بالمثقف ولكن وقته كله مع المثقفين.

كان يتبسط في أحاديثه كلما جاءته فرصة للكلام، وكان يروي قصص حياته ومغامراته الكثيرة وكلها غريبة ومثيرة، وبعضها فيه مخاطر ضخمة تعرض فيها للابتزاز ووقع بين يدي عصابات أوشكوا أن يقتلوه لسرقة ماله، وتعرض للضرب ولحرق بعض أعضاء جسده، ولكنه نجا وإن ظل يعاني من إعاقة جسدية عطلت نشاطه وحيويته، ولكن القصة التي صدمتني وهزت ضميري هي ما رواه عن نزهة قام بها مع زملاء الأنس الذين كان يقضي معهم لياليه، وكانوا يخرجون للبحر بعيدًا عن المدينة وأضوائها، وهناك في البحر يصنعون لهم جوًّا لا تسمح به بيئة الحارة ومنازل العائلات، ومرة كان الدور عليه لتجهيز العشاء، واشترى لحمة وأحضر مستلزمات العشاء ووضع كل شيء على جانب بعيد عن الجلسة ليبعد الطبخ ونار الطبخ عن المجلس، ثم شارك الجلسة مع صحبه بكل ما تقتضيه شروط جلسات الأنس والدعة، وقرابة منتصف الليل تحرك ليشرع في الطبخ، فتفاجأ أن اللحمة قد طارت، واكتشف مجموعة قطط لم ينتبه لها في البداية،

وكانت هي التي اعتدت على اللحمة وأكلتها، وليس لديه حل لبعد المكان عن مدينة جدة كما أن الجزارين لا يفتحون في منتصف الليل، وهنا استشاط به الغضب، ومن شدة غضبه أشعل النار حتى إذا ما احتمى الماء في القدر ذهب لبيت القطط وأخرج القطة وأطفالها في جنح الظلمة ووضعهم أحياء في القدر المتقد حرارة، ثم كمل بالأرز والخضار، وتعمد تأخير العشاء إلى أن بلغ صحبه أقصى حد الثمالة، وأقصى حد الجوع، فقدم لهم الأكل بعيدًا عن ضوء المصباح، وحينها أكلوا وأكلوا دون وعي، ودون تذوق، وكان هو يضع يده على الطعام دون أن يلتقط منه شيئًا، وبقي على معدة فارغة حتى عاد لبيته صبح اليوم التالي، ومرت اللعبة عليهم ولم يعرفوا عنها قط، وقد تفرقت بهم السبل مع السنين ولم يعد لهم أي علاقة حين كان يروي قصته.

كنت أسمعه يتحدث بوجه ناشف لا مشاعر فيه ولا تعابير، وكأنما هو مذياع يبث حكاية غرائبية، وهنا أصابني رعب هز ضميري وكل أحاسيسي حول هذه الفعلة البشعة، وانتابني خوف يشبه الهلع، وكنت أنظر في وجهه المتجمد وأكاد أنفجر فيه أو أطلب منه مغادرة الجلسة، وخفت حقًّا من مشاعر الحنق والكراهية في نفسي له، وفجأة وعن غير تدبر أو تقصد لاحت أمامي آية ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ (الزمر: 53)، لاحت الآية أمام باصرتي وكأنها مكتوبة أمامي في لوح معلق قبالة وجهي وأنا فقط أقرأ ما كتب أمامي، لم أكن أعرف قط أني أحفظ الآية ولا أنها ستأتي لنجدتي في لحظة

داهمتني فيها الكراهية وغطت على بصيرتي وكنت في خطر بأن أخالف روحي وقلبي وأكره رجلًا حبيبًا شفيفًا كريمًا، أحب قصصه وأزجي وقتي معه، وكلما جالسته تحررت روحي من وجع الثقافة والمثقفين وصراعات الحداثة والصحوة وقت شدتهما، ولغة التكفير والتفسيق وملاحقات المنابر والأشرطة مع صراعات الحداثيين كذلك، بعضهم ضد بعض، وهي أجواء متوترة وضاغطة تمرض القلب وتوجعه، وكان صديقنا الضيف علاجًا لقلقي، ومعه أشعر أن الحياة ماتعة وهينة وتزودنا بفرص للضحك والسلوى، ولو فقدت هذا لوقعت في حصار نفسي وذهني يغلق عقلي في بوتقة التوترات ولا مخرج ألجأ إليه سويعات في الأسبوع تكسر وجع أسبوع كامل.

مع حضور الآية بين يدي شعرت أني اكتشفت رحمة الله لأول مرة، في حين احتجتها بحق لتكون في نجدتي وانعتاقي وتحرر روحي، رأيت رحمة الله مرسومة على وجهه الآثم، ومكتوبة على جبينه، ومن أين تأتي رحمة الرحمن إن لم تكن في لحظة إثم مخز يدمي الروح، وإن لم يك إثمي في تلك اللحظة، ولكنه إثم سينالني منه ضرر روحي عميق؛ لأني سأفقد معه متعتي الروحية التي كنت بحاجة لها بحق.

ما معنى أن تأتيني الآية في تلك اللحظة الصادمة والموجعة حد التوحش وبأقصى حدود الرعب الروحي والعقلي معًا، هنا فهمت الرسالة، فالآية لم تكن في نظامي الذهني الواعي ولم أتصور قط أني أحفظها، وها هي تأتيني بكامل لفظها وليس فقط بمعناها أو

إشارات لمقتضاها، ولا هي حكمة أو بيت شعر أو إحالة لمواقف أهل النبل وكرام الناس مع الناس، ولكنها آية انكتبت أمامي وبرزت وكأنها نور انبثق أو جرس تنبيه أيقظني من سدرة غرقت فيها.

لقد أنقذتني الآية ليس من وجعي الروحي فحسب؛ بل أيضًا من غلواء نفسي التي أعرف صلفها وعنفها مع المواقف المتوحشة، ولكن توحشي هذه المرة استأنس، ووحشتي تروضت، وعمتني رحمة فاضت من قلبي وكأنها قبس نوراني من الرحمن الرحيم، وفهمت أن رحمة الله حقًّا وسعت كل شيء، وأن ذلك الهدوء على وجه صاحبنا وهو يروي قصته دون أي مشاعر إنما هو هدوء التطهر من الإثم، وفعلًا تأملت في سيرته التي عرفتها عنه في فترة دخوله لمجموعتنا، ورأيت فيه كرم المعشر وطيب المجلس وأنس الحكايات وصدقه مع نفسه ومع مجموعتنا، ولعل قصصه التي كان يرويها لنا ليست سوى مسعى منه لغسل ذاكرته وتطهير روحه من آثامها، وإن رحمة الله قريب من المؤمنين، وقد رأيتها تحوم حول هذا الآثم وتغسله أمامي في الأقل، وشاهدي على ذلك هو الآية العظيمة التي انكتبت في ذهني دون أن أعرف أنها هناك إلا حينما هبت لنجدتي من وجعي على إنسان أثم يومًا، وها هو اليوم يغتسل من إثمه، هذا مشهد روحي يعزز معنى العلاقة مع الرحيم الرحمن، ويصنع لنا لحظات إيمانية لم نخطط لها، ولم نتوقعها، ولكنها تختارنا في توقيت ليس منا، وفي معانٍ ليست من صنعنا، ولم نك قط نعرف أنها فينا ولكنها تفاجئنا بأنه مغروسة في عمقنا، وتحركت في اللحظة المناسبة والتوقيت الضروري لنا ولها.

أحببت الضيف وكنت من قبل مجرد مستمع جيد لحكاياته، وكأني كنت أستمع لراديو، ولكن المذياع تحول لمعنى للرحمة تجلت عبر إثمه الذي حضرت الآية لتمسحه ولتنبهني أن الله عظيم ويحب عبده في اللحظات الحرجة، وقد وجدت ربي وسمعت آيته وفهمت الرسالة.

تأتي الرحمة في شفرات ولها مواعيدها الخاصة وهذه واحدة منها.

- ب -

يحدث أن تقتحمنا مغبات الإثم دون سبب منا، ولكننا قد نقع في ظرف يحاصرنا فيه إثم غيرنا، ووجع هذا الظرف يكون معمقًا حين تود لصاحبك أن يتخلص من إثمه وتتخوف ألا يحدث له الخلاص لدرجة قد تشعر معها أنك طرف في إثمه مع أنك لست كذلك، وقد مرت بي حالة شعورية كهذه في تويتر، حيث تواصل معي شاب أعرف اسمه وإن لم أقابله بشخصه، وكان يتفاعل مع تغريداتي أحيانًا، وعرفته من اسمه ومن نوعية ثقافته التي أعرفها عنه، ولعله كان يريد الاستئناس معي قبل أن يفضي بغرضه من التواصل، ولعله اطمئن لي بعد تواصله فكتب تغريدة يطلب مني الصفح عنه عن إساءات صدرت منه ضدي، وردد أنه نادم ويتعذب بالندم، فرددت عليه فورًا مرحبًا به ومؤكدًا له أن ليس في نفسي عليه شيء، وفرح جدًّا بردي وشكرني وزاد في فرحه وشكره لدرجة

اشتد عندي الإحساس بأنه كان في ألم عميق وانزاح عن ضميره بردي الحسن عليه.

مرت سنتان على هذا الاعتذار والتصافي مع أني ليس عندي أي كدر تجاهه، ثم رأيت خبرًا عن وفاته ومعه نعي، وفيه ذكر عن معاناته مع السرطان واشتداد الحالة عليه حتى فارق الحياة.

أصابني حزن عميق وكأني آثم في حقه مع أني لم أكن، ولكني أحسست أنه حين تواصل معي كان تحت وجع المرض ومعه وجع الضمير، وكان قد استنجد بي لأخفف عنه أحد الوجعين، ولو كنت علمت عن مرضه لما اكتفيت بمسامحته بل زدتها متابعة ووصلًا وتعاطفًا، وأحسست أن قد فاتني شيء كثير، وكأنني مقصر معه، وأوحشني الشعور أني كنت سببًا لعذاب نفسي حاصره دون أن علم، نعم لقد كتب عني مرات في الصحف كتابات فيها تجنٍّ وفيها ظلم علمي لي، ولكنها كسائر التجنيات التي تعم الصحافة بعامة، ولم يك هو بدعًا بين ما جاءني ويأتيني من مناوشات بعضها عن لبس وبعضها عن تعمد وبعض آخر عن سوء تأويل لقول فكري أو موقف ثقافي، أما أن يتحسس منها وفي وقت مرضه القاسي وكأن اسمي أصبح عنده مصدر قلق لم يخلص منه إلا بطلبه عفوي عنه فهنا أحس أن ندمه كان حارقًا وموجعًا، وأن ضميره فيه من الخلق الكريم ما هو أكبر من غلطة مرت وفات وقتها بسنوات، ولكن تجشمه الاعتذار ثم امتنانه لعوفي عنه، وهو أبسط ما يمكنني أن أقدم له، جعلني أشعر أني منحته البسيط ولم يتيسر لي تقديم ما

هو أكبر، وظللت أدعو له بظهر الغيب متأكدًا أنها ستصل لروحه الطيبة، وتمسح عليه بركات ورحمات من الرحمن، وهذا بالنسبة لي يمثل منحة روحانية في أننا كلما رحمنا غيرنا من عباد الله فإن رحمتنا لهم ستكون معاني عميقة تغسل نفوسنا من أدرانها، وتقربنا إلى رحمة الله ومحبته.

***

ثانيًا: هل يلحد القلب؟!

1. القلب وحرية الإرادة

في القرآن الكريم نسبت وظائف التعقل إلى القلب، ولم ترد كلمة العقل في القرآن بصيغة الاسم المفرد وإنما جاء بصيغة الفعل (يعقلون) ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ (الحج: 46)، مما يجعل القلب مصدرًا للتعقل أو العمى، أي مصدرًا للإيمان أو للإلحاد، وسبق أن توسعت في مفهوم العقل في الثقافة الإسلامية بدءًا من القرآن والحديث ثم مباحث العلماء المسلمين، مربوطًا بالوظائف التي تتعلق بفعل التفكر ودور القلب والنفس فيها، وذلك في الفصل السادس (الملحق) من كتابي (**العقل المؤمن/العقل الملحد**)[1] وهو توأم هذا الكتاب والجزء الأول من هذا المشروع.

وبمثل ما يحب القلب فإنه يكره، وإن حدث أن دخل القلب في منطقة الحياد بمعنى أن لا يحب ولا يكره فمعنى هذا أن المسألة لا

(1) الغذامي: **العقل المؤمن/العقل الملحد**، العبيكان للنشر، الرياض 2020م.

تعنيه، وهنا يحيلها القلب إلى منطقة العقل وبرودته المنهجية، والقلب بمثل ما يؤمن فإنه قادر ألا يؤمن، والذي يستطيع فعل شيء ما فإنه بالضرورة يستطيع فعل نقيضه، وهذا هو المعنى الجوهري لمفهوم (الإرادة الحرة)، والإرادة الحرة ليست حكرًا على العقل؛ بل هي أيضًا من أفعال القلب، حيث يهوى القلب أشياء، ويرغب مثلما يرهب، وبالرغم من شغفه إلا أنه يستطيع ترويض الشغف، ويساعده العقل في هذا الترويض، مما يعزز نظرية (الاستدلال العقلي الوجداني)، ومفعولية الإرادة الحرة أبرز مثال على ضرورة تجاور الفعل العقلي مع الفعل القلبي لتوجيه رغبات الإرادة الحرة توجيهًا أخلاقيًّا أو قانونيًّا يضع حدودًا دون الإضرار بالغير وبالنفس بسبب سطوة الإرادة الحرة حين تتجاوز حدًّا يخرجها عن شرط التعايش البشري.

وكذلك يستطيع القلب أن يعمى، أي لا هو مؤمن ولا هو ملحد، وهي أشد من حال العقل حين يحايد ويقول لا أعرف، فالعقل وحده يستطيع تبني موقف (لا أعرف)، ولكن القلب ليس له ذلك، فهو يعرف بالضرورة أو يتجمد، وتجمده يحدث حين لا ينكر قطعًا ولا يقول لا أعرف، وهذه حال دقيقة جدًّا، والخشوع كما مر في الفصل الأول هو وحده الامتحان؛ فالقلب المؤمن يلين ويتدرج في الليونة حتى يخشع عمليًّا أو يتمنى أن يخشع، ومن يتمنى فعل شيء فقد عمله حقيقة وإن لم يعمله حسيًّا.

لذا فالقلب لا يلحد حسب المفهوم العام للإلحاد، بمعنى القول بعدم وجود خالق أو البحث عن سر آخر للخلق غير الله، كما

افترض دوكينز أن الجينات هي سر الخليقة وخصها بجين واحد مهيمن، أو هوكينج حين نسب سر الخليقة لقوانين الجاذبية[1]؛ فالقلب لن يصدر أحكامًا كهذه، ولكنه سيكون سببًا للإلحاد؛ وذلك حين يميل لعدم الاكتراث كما في الآية: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾، والقلب مصدر للتفكر والتبصر كما تنص آيات القرآن، وبما أنه مصدر للتفكر والتبصر فإنه إذا عطل التبصر والتفكر فسيعمى ويميل لعدم الاكتراث كما في قصة لابلاس مع نابليون[2]، وكان لابلاس قد شرح لنابليون نظريته عن الحتمية العلمية، وحين سأله نابليون أين نضع الله في نظريتك، فرد بقوله: هذه فرضية لا تعنيني، وهذا جواب لا يتصل بالمنطق العلمي ولا المنطق الفلسفي؛ لأنه قول لا يستند للحجج، ولا يقوم على برهنة، وإنما هي حال عمى تام بقرار غير جدلي، وهذه صفات فعل القلب الذي ليس في نظامه أن يجادل فيما يحب وما يكره، ولا فيما يميل إليه وما ينصرف عنه، ونظامه الفكري نظام لا حياد فيه، وما يقرره يصبح لازمًا كما فعل لابلاس حسب مقولته التي تكشف جفاء قلبه مع فرضية الخالق.

على أن الإيمان القلبي يمضي رخيًّا مثل ماء في ساقية، وبما أن القلب لا يسأل حين يحب فهو لا يسأل حين يؤمن، ولكن العقل حين يدخل للحب أو للذوق مثلًا يفسدهما، فأنا أحب هذه البقعة

(1) **العقل المؤمن/العقل الملحد**، الفصل الأول.

(2) السابق.

من الأرض أو أحب طرحة جدتي أو ساعة جدي، ولن أقبل أي جدل حولها وأي مساس بها سيكون عدوانية تؤثر على علاقاتي مع المعتدي، ولكن هذا لا يعني بحال أن الإيمان لا يحتاج لجدل عقلاني، أو أن العقل يفسد الإيمان، أو أنه لا يفلسف معنى المحبة؛ بل للعقل دوره المخصص في تتميم ميول القلب وأفكاره الشعورية، وتجارب ديكارت ولايبنتز وروسو تعزز ذلك، حيث نجد الإيمان عندهما مدعومًا بالبراهين العقلية والاستدلال المنهجي[1]، ولعل تقرير هوكينج بموت الفلسفة يوضح أن تصرفه هذا هو استبعاد للحجج والبرهنة في حال السؤال عن الخالق[2].

وستظل العلاقة بين القلب والعقل شائكة فيما يخص الإيمان، ولو قلنا إن أصل الإيمان قلبي وسلمنا بذلك فإننا سنتواجه مع حالات في حياة البشر نلحظ فيها أن إيماننا القلبي وما تصدقه قلوبنا يحتاج لسند يسنده عند غيرنا، فمثلًا سيعرف أحدنا بصدق وطمأنينة قلبية أنه يملك بيته، ولكن قلبه الصادق هنا لن يثبت له امتلاك البيت ويحتاج لورقة مختومة من غيره تؤكد هذه الحقيقة، وهذا (الغير) قد يكون محاميًا أو كاتب عدل، ودونهما لن تكفي شهادة القلب، وهذا مثال وقعت له مشابهات في أسئلة الإيمان، وأظننا سنتفق أن ديكارت ولايبنتز مثلًا كانا مؤمنين أصلًا، ولكنهما دخلا بجدلية فلسفية لإثبات الإيمان بحجج عقلانية، ولا شك أن

(1) **العقل المؤمن/العقل الملحد**، الفصل الخامس.

(2) عن هوكينج وقوله بموت الفلسفة انظر: **العقل المؤمن/العقل الملحد**، الفصل الأول.

جدلهما موجه لغيرهما، وهو جزء من همهما الفلسفي، وليس لإقناع أنفسهما تخصيصًا، أي أن الإيمان عندهما قلبي ثم تعقلن، ولو كانا غير مؤمنين قلبيًّا لما تحركت نفوسهما لعقلنة إيمان غير موجود في الأصل عندهما، وعلى نقيضهما سنرى لابلاس وهوكينج اللذين يبدوان وقد أسكتا القلب وأخرساه، وهذا جلي جدًّا عند لابلاس ورده على نابليون بأن وجود الله فرضية لا تعنيه، وهو صريح على إصراره على إسكات دواعي الإيمان فيه، ولن يختلف هوكينج عنه في هذه المسألة مذ تبنى مقولة الحتمية العلمية وقال بموت الفلسفة تبعًا لهذه المقولة، ومن هذه الأمثلة سنرى العلاقة بين القلب والعقل عند من بحث عن ملتقى بينهما مثل روسو الذي كان أوضح الجميع وأكثرهم حسمًا، حيث خلص إلى تصور عادل مع العقل والقلب.

وحين يتجمد القلب وتتعطل فيه دوافع الإيمان فإن العقل حينها سيتفرد وستتفرد فيه فكرة الإلحاد دون معين وجداني من القلب بما أن القلب معطل هنا، وهذا ما أشار إليه روسو بقوله عن غرور العقل مقابل جموح العاطفة، وكلاهما انحراف منهجي يعمي عن التبصر، ولكن إن اجتمع العقل مع القلب وتوافقا على النظر فهذا سيكسر غرور العقل ويروض جموح العاطفة، وهنا تستطيع الأفكار أن تتوازن وتنتج معرفة تسندها البرهنة ويعززها التقبل الوجداني[1].

(1) روسو. **العقل المؤمن/العقل الملحد** ص 122.

2. العدالة العاطفية

تستطيع العاطفة أن تتطرف وتتجاوز الحد حتى لتقع في ظلم للنفس لدرجة تذويب القيمة الذاتية وإفنائها لمصلحة الدوافع العاطفية، أو ظلم الغير بالاستحواذ عليهم وتملكهم عاطفيًّا، ولإحداث ميزان بين حقوق العاطفة وحقوق الذات وكذلك حقوق الغير لابد من قانون العدالة، ويقوم على ثلاثة أركان هي:

- أن يعدل المرء مع ربه.
- أن يعدل المرء مع نفسه.
- أن يعدل المرء مع غيره[1].

فإن ظلم غيره فقد ظلم نفسه بالضرورة، وإن وقع في الظلمين معًا أو أحدهما فقد تعقدت علاقته مع ربه، وسيخرج من الإحسان الذي هو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وسيدخل إلى حال سلبية فلا تتحرك مشاعره نحو المعاني الشفافة، وسيقع عقله في الغرور، وهذه حال تقع حتى للمتدين غليظ التدين، وكل شدة في الدين فهي انغلاق في البصيرة، وهذا يفسر عقيدة الإرهاب التي تبيح قتل الناس المسالمين بحيث يقتلون المسالم أكثر مما يقتلون العدو الحقيقي للبشرية، وهي من أعلى درجات الظلم

(1) عن العدل والوسطية انظر: عبد الله الغذامي: **الليبرالية الجديدة**، الفصل الثالث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء / بيروت، 2013م، والفكرة عن أركان العدل وردت عند القرطبي في تفسيره لآية العدل في سورة النحل، 90.

التي تعمي القلوب أولًا ثم تعمي العقول، والقلب الغليظ أخطر من العقل مهما غلا العقل وكابر؛ لأن بلوغ القلب منطقة الكره ينتج عنها أعظم الشرور فداحة، وقد ينظر العقل إلى هذه الكراهية ويفلسفها كما حدث في النازية والفاشيات السياسية بعامة، وهذا هو مرض القلوب الفتاك، حين تكون العدالة في مأزق مفاهيمي وسلوكي ويجري الظلم من تحتها وبمظلتها.

والقلب يخضع لحالات الرغبة والرهبة، وقد يتعبد ربه رغبة في جنته أو رهبة من ناره، وأعلاها هو الشكران، كما وصف الله نبيه إبراهيم عليه السلام: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (النحل: 121)، ويؤثر عن علي بن أبي طالب أنه قسَّم التدين إلى ثلاثة أنواع: تدين رغبة بدخول الجنة، وهذا دين المتاجرة مع الله، وتدين تخوفًا من جهنم، وهذا دين الخائفين، وثالثها هو التدين محبة لله، وهذا دين الأحرار، وهذه ليست قسمة فئوية؛ وإنما هي حالات تمر بها النفس بين حال وحال وظرف وظرف.

وكل عقل مؤمن فإن القلب شريكه المؤمن، وقد نجد قلبًا مؤمنًا ومعه عقل قلق ومتسائل، لكن لن نجد عقلًا مؤمنًا دون قلب مؤمن، ولو عمي القلب فسيصعب على العقل تغيير مشاعر القلب.

3. تعطيل الحجاج

خلاصة الإلحاد المتشدد هو تعطيل الاستدلال العقلي القلبي، والأغلب في ثقافة الإلحاد هو مذهب (اللاأدري)، بمعنى التوقف

دون الإعمال العقلي للسؤال، وهي حالة حياد سلبي، والإلحاد في كل خطاباته يقوم على النفي دون برهان، وهذا ما اعترف به راسل في مناظرته مع كوبليستون حين سأله: هل تقول إنك تنفي وجود الله فلسفيًّا...؟ فرد بقوله: لا، لا أقول ذلك، وأنا لا أثبت ولا أنفي وجود الله، وإنما أنا على مذهب (اللاأدري) agnostic [1]، وقد نقل عن دوكينز أنه في أحد حواراته لجأ للقول أيضًا إنه agnostic.

والملحد لا يستخدم الحجج العقلية لكي يلحد، ولكنه يلحد أولًا ثم يتوسل بالعلم أو العقل ليبرر لنفسه، وليس في خطاب الملحدين حجج تنفي وجود الخالق فلسفيًّا، وإنما ركيزة دعواهم أن ما لا يثبت علميًّا فهو غير موجود، وهي مقولة لابلاس في الحتمية العلمية، وجاراه فيها هوكينج، كما وردت عند راسل، وزاد هوكينج بأن يلغي دور الفلسفة هنا ويصرح بموتها، بينما يتمنع راسل أن يطرح سؤال نفي الخالق فلسفيًّا، وهذا تعطيل للحجج العقلية.

وكون الملحد ينطلق أولًا من تجنب فكرة الخالق فإنه يقسر عقله على مأزق معرفي بما أنه سيضطر لاقتراح بديل ينسب نشوء الكون إليه، وذلك مجرد بديل يعي الملحد أنه مدفوع له دفعًا، وسيقع بما يقع فيه أي بديل عن الأصل بأن يكون أقل من الأصل قوة ومعنى، ومن قال بالبديل فإنه سيحتاج للدفاع عن بديله المفترض، وأكثر

(1) عن مناظرة راسل مع كوبليستون انظر كتابي: **العقل المؤمن/العقل الملحد**، الفصل الثالث.

الملحدين منطقية مع نفسه هو ذاك الذي يقول لا أعرف (agnos-tic)، وأكثرهم تشددًا من قال إن السؤال عن الخالق فرضية لا تعنيني، ومن ثم فإن بدائل الملحدين المقترحة لتكون سببًا لنشوء الكون لا تتصف بما يتصف به قائل هذه البدائل من عقل وحرية إرادة ووعي، فكيف لقوة غير عاقلة أن تخلق قوة عاقلة، وهذا تساؤل طرحه روسو، ولن نجد له جوابًا في الطبيعة ولا في أي من عناصرها بأن تمنح العقل والإرادة وهي نفسها غير عاقلة ولا تنطوي على وعي أو إرادة حرة[1].

***

وتغلب على مواقف الملحدين العدوانية ضد الدين ليس بوصفه إيمانًا فحسب؛ بل أيضًا بوصفه ثقافة وسلوكًا، ويبرز هنا دوكينز وعداؤه للدين الذي يبلغ حد العمى الثقافي، ويتجاوز كل حدود المعقولية الثقافية وأخلاقيات المعرفة، وهو يصم الدين بكل الشرور البشرية وكأننا لو ألغينا الدين خلصت البشرية من شرورها كلها، مع أن أخطر وأفتك حروب القرن العشرين هي حروب علمانية، وإن لزمنا أن نلغي الدين وننسب له سمة الإرهاب فسيلزمنا أيضًا أن نلغي الفيزياء والديموقراطية؛ لأنهما اشتركا معًا في تدمير هيروشيما؛ إحداهما كونها أنتجت القنبلة، والأخرى هي صاحبة قرار التفجير بأمر من زعيم ديموقراطي منتخب ديموقراطيًّا، وكذلك فإن

(1) روسو، المرجع السابق 124.

التدمير البيئي يأتي من دول ديموقراطية ومن نتائج منتجات علمية استهترت وتستهتر بالأرض والبحار والهواء وأفسدتها كلها.

هذه أمثلة تكشف عن فساد التصور لدى دوكينز وتلبيسه المعاني لبوس الأوهام، مع أن الإرهاب المنسوب للدين هو عمل طائش ومجنون، بينما التدمير الناتج عن التهور العلمي والسياسي هما فعلان عاقلان ومخططان بوعي وتصميم وبقيادات تنسب نفسها للديموقراطية، مع أنها تسيء للديموقراطية وقيمها العليا تمامًا كما يسيء الإرهابي للدين وقيمه العليا، وتلك هي علة الحجاج الفاسد.

على أن فساد الحجة هو الصيغة السلبية لتعطيل الحجة، ويظل تعطيل الحجاج خاصية قلبية وليست صفة عقلية، فمنهجية العقل هي الحجاج وتقبل الأسئلة، أما القلب فهو الذي لا يعتمد المحاجة فيما يكره وما يحب، وهوى القلب أقوى من أدلة العقل، ولن تعمل أدلة العقل عملها ما لم ينفتح لها القلب ويتبناها؛ ولهذا سيكون القلب هو الذي يؤمن أو يلحد، ويبصر أو يعمى، بينما الاستدلال سيظل ناقصًا ما لم يجمع بين العقلي والوجداني فيما يخص مسألة الإيمان، وهي أعلى درجات التصديق أو النكران؛ والحقيقة القلبية لها قدرة فائقة لتتملكنا إن وجدتنا بضاعة غير مغشوشة، بمعنى الغش الثقافي الذي سأستعرضه فيما يأتي.

***

ثالثًا: العدالة الثقافية

أخيرًا أشير إلى خاصية ثقافية معاصرة تفرض مصطلحًا يتسق مع حال العصر الثقافي وجيل الذكاء الاصطناعي، والمصطلح هو (العدالة الثقافية) مقابل الغش الثقافي الذي تمر به الحالة البشرية، وهذا المصطلح لن يكتسب معناه إلا بالاعتماد على نظرية العدل بأركانها الثلاثة (عدل المرء مع ربه / عدل المرء مع نفسه / عدل المرء مع غيره)، على أن العدل مع الغير يشمل العدل مع البيئة، وهذه أخطر قضية تواجه البشرية اليوم؛ فظلم الإنسان لنفسه ولغيره يتجليان بما يقترفه الإنسان ضد البيئة تلويثًا وإفسادًا حتى عم الفساد في البر والبحر، وأصبحت الأرض موبوءة بسبب البشر وبسلوكهم المدمر، ويقف العلم والعقلانية في مأزق أخلاقي لم يحدث قط مثله في تاريخ فساد البشر وإفسادهم، وضرر ذلك عام الآن وفي مستقبل الأرض والبشر، وهو أكبر تحد يظهر فيه العالم وكأنه في حال شلل عقلي تام وعاجز عن التصرف أمامه.

والثقافة البشرية تقوم على ثلاثة أهرامات كبرى، هي: الدين، والعلم، والفلسفة، وظلت البشرية تتعامل مع هذه الأهرامات بطرائق شائكة جدًّا بمقدار ما هي نافعة وضرورية للبشر، لكن شدة

نفعها وقوة ضروريتها دفعت إلى تحريك المطامع البشرية، وتعرض مفهوم التنفع والإفادة من هذه الكينونات الثقافية الكبرى إلى طمع لمزيد تنفع مما خلق التطرف في التوظيف، فجرى توظيف الدين ليكون سلاحًا بدل كونه سلامًا، وظهر الإرهاب لتحقيق أغراض غير دينية، وهذا كسر لأهم قواعد الدين، وهي قاعدة العدالة، والإرهاب ظلم للغير وتدمير للآخرين، وكذا حدث للفلسفة التي وظفت لمعاني التسلط، من جمهورية أفلاطون إلى النازية وإلى الشعبوية[1]، وثلاثتها منتجات للاستثمار الفلسفي السالب، وضد مفهومي العدل والحرية التي جاءت عند أفلاطون لتكون الحرية للأقوى والعدالة للأقوى[2].

أما العلم فالقنبلة النووية هي أبرز صيغ الاستغلال للعلم ليكون منتجًا للشرور بمثل ما ينتج العلم لقاحات لمكافحة الأوبة، مما يجعل العلم بين تحسين للحياة وتدمير للحياة، وبين استخدام عادل واستخدام ظالم.

ومن هنا تأتي الحاجة إلى لعدالة الثقافية لتجمع العلم والفلسفة مع الإيمان من أجل دخول القيم العليا في توجيه السلوك البشري، وتنزع ثقافة التطرف الذي هو إما بالتشدد المقصي للعلم والفلسفة

(1) هناك اتصال محكم بين الشعبوية الحديثة وجمهورية أفلاطون، انظر كتابي: **السردية الحرجة**، الفصل الرابع، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء / بيروت 2020.

(2) السابق.

والمدعي بأن النظريات العلمية تدفع للإلحاد وأن الفلسفة ضد الدين، أو التشدد المقابل الملغي للدين ويرى الدين لا يليق بالعقول الحرة[1]، وهذه حروب أهلية ثقافية يتحارب البشر فيها فيما بينهم إقصاء وإلغاء، ولابد من مساع مضاعفة لإعادة التوازن الإنساني بإعادة توظيف هذه الأهرامات الثقافية الكبرى لتكون سبلًا لإنقاذ البشرية من حال التدمير الأعمى بيئةً واقتصادًا وسياسات مجنونة وتطرفًا يزداد حدة كلما ازدادت البشرية علمًا لدرجة أن كل كشف علمي يجري تحويله من نافع إلى ضار كما فعلت الفيزياء التي أصبحت نووية بالمعنى التدميري، وتغلب ضررها على نفعها، وكما ارتفع صوت الإرهاب في الدين، وكذلك وقعت الفلسفة بانحيازات عنصرية منذ بدأها أفلاطون لتكون طبقية وإقصائية، ويصبح النافع ضارًّا بسبب مطامع البشر، ولن يحلها إلا تحرير المفاهيم من مستغليها وتنشيط معنى الإيمان الثقافي الذي يرقي الذائقة البشرية في الفهم وفي التوظيف السلمي للقيم ولمعاني السلم والتعايش الآمن، والبشرية بحاجة إلى الداعم الروحي المتمثل بالإيمان بمعانيه السامية في العدالة وتعارضه مع الظلم بأي صيغة من صيغه، وللداعم العقلي المتمثل بالفلسفة الصافية من الطبقيات والتعالي المغرور كما في وصف روسو للتعصب الفلسفي[2]، والبشرية كذلك بحاجة إلى الصحة البدنية والنفسية، وكلها مرتبطة بالصحة

(1) B. Russell: Why I-am not a Christian 19. Routledge London 2004

(2) روسو، **دين الفطرة**، ص: 129، تعريب عبد الله العروي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2012م.

البيئية التي قد يدمرها أو يعمرها العلم بين تلويث أو تحلية لمياه البحر، وبين الخير والشر شعرة هي شعرة العدالة للغير، ومن عدل مع غيره فهو بالضرورة عادل مع نفسه، مما يرقي الذات لتحقيق مراد ربها، وهنا يكون عدل المرء مع ربه.

على أن أجيال الذكاء الاصطناعي يقفون على حافة التحدي، وهو تحدٍّ يلزمه أن يتداخل مع أسئلة المعاني في زمن سيطرت فيه التكنولوجيا بأعلى من أي علم آخر أو اهتمام آخر، والذكاء الاصطناعي قد يقع فيما وقعت فيه الفيزياء النووية فيكون مدمرًا مثلها، وقد يكون حلًّا لمشاكل البشر بتحسين ظرف معاشهم، وكلا الاحتمالين وارد؛ ولذا فإن المعنى هو أن نعيش تحت مظنة الجدوى والقيمة مقابل كدح الحياة وشقاء الظروف البيئية وتحسين معاني الحرية والمساواة، ومقام الإنسان لمواجهة العنصرية والتفرقة والشعبوية الاستقطابية، وهذه حال تحتاج إلى بصيرة عقلية ووجدانية مختلفة عن البصيرة الفلسفية البحتة وعن البصيرة العرفانية البحتة، ولكنها عقلانية جديدة كما شرحتها في كتابي السردية الحرجة[1]، وفيها يتحول العقل الخالص إلى عقل عملي مترحلًا من كانط إلى الكمبيوتر.

ويساعد في تحقيق ذلك كون العلم والفلسفة علمين محايدين

(1) **السردية الحرجة، العقلانية أم الشعبوية**، الفصل الأول، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت 2020م.

بوصفهما منتوجًا بشريًّا؛ ولذا فطريقة توظيف كل منهما ستكون حسب قرار الإنسان نفسه الذي من خاصيته أنه عاقل ذو إرادة حرة، والعقل مع الإرادة الحرة تجعل الإنسان وحده هو المسؤول من جهة، وهو القادر على عمارة الأرض أو الإفساد فيها، وكما يلوث الأرض ويتلف خضرتها فإنه يغرسها ويحولها لجنة خضراء، وهو يعمل الشيئين معًا ما بين توظيف عادل وآخر ظالم، ولو دخل الإيمان بمعاني العدل بأركانه الثلاثة فسيتحقق التوازن الذي تحتاجه البشرية إنسانًا وأرضًا، وهذا هو معنى العدالة الثقافية بأهراماته الثلاثة، وجيل الذكاء الاصطناعي يصبح أمام هذا التحدي الذي يوحد المعارف البشرية الكبرى لتحقيق العدالة في القلب وفي العقل وفي المسلك.

الفصل الرابع:

في صحبة المعاني

□□□□□ □□□□□□.indd 149 10/20/20 9:10 AM

□□□□□ □□□□□□.indd 150 10/20/20 9:10 AM

أولًا: الجوار

- أ -

تعمد والدي مجاورة الشيخ عبد الرحمن السعدي محبة فيه وحرصًا على القرب منه، والبيت المجاور لبيت الشيخ ملك لنا، وهو بيت صغير مقارنة بالبيت الذي كنا فيه قبل ذلك، ولا يتفوق الثاني على الأول بأي مزية غير جوار الشيخ السعدي، وهي مزية عالية تهم والدي، وهي التي دفعته لقرار الارتحال فور خروج المستأجرين لبيتنا، وهناك مزية أخرى تبين لاحقًا أنها ليست مزية، وهي أن تحت البيت دكانين من أملاك عائلتنا منذ زمن الأجداد القديم، وهذا سيجعل والدي يترك دكانه المستأجر وينقل بضاعته لأحد الدكانين مع تأجير الآخر، غير أن الدكان كان كارثة تجارية؛ فلم يك يحظى بأي حضور للزبائن؛ لأنه في منطقة التجار الكبار من وجهاء عنيزة ممن يملكون دكاكين في تلك المنطقة ليست للتربح وإنما للوجاهة، وهي فقط مجالس استقبال مفتوحة لجلسات العصر، وتظل مغلقة طول النهار غير (العصريات)، حيث جلسات (السواليف) والسلام والمجاملات، وهناك نكتة مأثورة عند عائلتنا حين اتخذ جدي واحدًا من دكاكيننا تلك بهدف المتاجرة، وحين

سأله أحد صحبه: «وش أخبار دكانك يا بو علي؟»، قال: «لم أر أبرك من هذا الدكان؛ فالذي فيه لا ينقص أبدًا»، يقصد أن لا أحد يشتري منه شيئًا قط، وقال لسائل آخر سأل: «ما بضاعتك يا بو علي؟»، فرد عليه: «بضاعتي السواليف»، ومع أن والدي يعرف ذلك كله لكن ظل لديه أمل أن اسمه في السوق سيساعد على جلب زبائنه إليه، وهذا لم يحدث قط؛ ولذا عاد لدكانه القديم، وظل سعيدًا بجوار الشيخ السعدي، وبعد أربع سنوات ضاقت أمي بالبيت الصغير بعد أن زاد عدد الأطفال وحنت نفسها لفناء فسيح للعبنا وللبقرة التي كانت محجورة في ركن قاتم في بيتنا ذاك، ورغبت بأن يكون عندها بئر على جانب الفناء، كما هي حال معظم بيوت عنيزة، ولكن منزلنا ذاك لا فناء فيه ولا بئر، مما جعل والدي يتحامل على نفسه ويقرر مرغمًا مغادرة جوار الشيخ، وما كنت أتصور لصغر سني حال والدي وهو يخبر الشيخ بأنه مضطر للرحيل عن جواره، ولم أشهد الحوار بينهما حينها ولكني عرفت ما دار بعد سماعي قصص والدي وهو يتحدث لصحبه عن جواره للشيخ وكيف استأذن منه ليغادر الجوار، وعرفت أن الشيخ طيب خاطر والدي ووعده أن يكون أول زائريه في البيت الجديد، أما الزيارة فأتذكرها، وكنت أنا من فتح الباب للشيخ وصحبته في جولة في فناء البيت، وسألني عن نوع النخلة الشاهقة من بين نخلتين أقل منها ارتفاعًا وكلها تظلل منطقة البئر ومربط البقرة، ولم أعرف كيف أجيبه، ولكن والدي أخبره لاحقًا أن تلك النخلة المعينة من النوع المسمى بالحلوة، وهي

نخلة كريمة ومحبوبة بين أهل الخبرة، فبلحها طيب ورطبها طيب وتمرها الجاف طيب كذلك؛ ولذا ينظر إليها أنها كريمة، وتكلم الشيخ عن بركة النخلة، وهنأ والدي على المنزل الجديد؛ لكنه حرَّصه على المواظبة في الحضور لحديث العصر عنده في الجامع، وهذا أمر كان والدي يلازم عليه ولم تفته صلاة العصر قط في جامع الشيخ والاستماع لحديث ما بعد الصلاة، وبعدها ينصرف لدكانه.

وظلت صلتنا بالشيخ قوية، حيث ظل يخص والدي بحضور شهري لشرب القهوة كما هي عادة الشيخ في أنه يلتزم بزيارات للناس دون تمييز بين وجيه وعادي، وهي زيارات يومية يبرمجها بنظام دقيق، ويسجلها في دفتر صغير يحتفظ به في جيبه فيه جدول للزيارات، وكلها زيارات قصيرة تكتفي بقهوة وشاي وحديث في أي شأن يطرأ، على أن قضايا الأسئلة الفقهية تحتل الأفضلية متى ما طرح أحد الحضور سؤالًا فقهيًّا فيقطع الجميع حديثهم ويستمعون للجواب، وهذا دأب الشيخ؛ إذ إن حياته كلها خارج بيته هي درس حي متصل سواء كان يمشي في الشارع ويستوقفه رجل أو امرأة أو ولد صغير أرسله أهله ولقنوه سؤالًا للشيخ، وكثيرًا ما حصلت هنا مواقف طريفة حين ينسى الطفل السؤال أو يتلعثم من الحرج، وكنا نحن الأطفال نتحين هذه الفرص لنضحك على أقراننا في ورطاتهم أو في حرصهم على جعل السؤال خاصًّا وقد أوصاهم أهلهم بألا يسمع أحد السؤال لدقة بعضها وخصوصية بعضها..

ومن الذكريات المحفورة في ذهني كانت في عام 1954م حيث أحضر الوزير عبدالله السليمان أجهزة كهربائية لإنارة الجامع الكبير بعنيزة ومعها مكبر صوت قوي وصادح ركبوه على الواجهات الأربع لرأس المنارة الشاهقة، وجربوه أول مرة وقت صلاة العشاء دون علم مسبق من الناس، وحين ضرب الصوت اهتزت أركان عنيزة كلها مجلجلة بالتكبيرات بصوت إبراهيم الريس مؤذن جامع عنيزة الذي شغل المنصب لستة عقود بدأت من سن السادسة عشرة بعد وفاة والده في تسلسل عن أجداده الذين توارثوا المؤذنة لقرنين متوالين، وهي المهنة التي أصبحت اسمًا للعائلة، واسمهم الأصلي الفياض، لكن غلب عليهم اسم المهنة، وكلمة الريس تعني في اللهجة المحلية المؤذن، ويقابلها المطوع صفة لإمام المسجد، ما عدا الجامع الكبير فإمامه يشار إليه بالشيخ، وله الإفتاء والتدريس في حلقات الجامع، إضافة إلى الخطابة والإمامة، وله رمزية معنوية عالية كما هي رمزية الشيخ السعدي ومن بعده تلميذه وخليفته في الجامع وفي الرمزية الشيخ محمد العثيمين، وسأخصص له الفصل الخامس من هذا الكتاب.

أما إبراهيم الريس فهو ابن عمة والدي، وحين هدر صوت المكبرات المجلجل الذي لم نعتد عليه في عنيزة ولا نعرفه ولم نألفه كنت ممسكًا بيد والدي في طريقنا لمسجد الحي، وهنا اهتز والدي وانتفض مندهشًا وراح يردد: يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا، وما زلت أتذكر كيف انتابني الخوف والرعب من وقع صدى الأذان وهو يصطدم بالجدران وكأن البيوت تهتز وترتعد مثلي من هذا الصوت

العجيب الضارب فوق رؤوسنا، وزادت الدهشة والرهبة حين سمعنا صوت الشيخ السعدي يشرع في درس ما قبل الصلاة، وجاء صوته وكأنه يمشي من فوق شرفات السطوح ويطل علينا مع القمر الذي كان بدرًا تلك الليلة وضوؤه يكسو البيوت من حولنا، ومعه صوت الشيخ يملأ المكان بذبذباته الرخية وحشرجته الخفيفة، وهنا التفت والدي لي وقال لي هيَّا نذهب للجامع وتركنا مسجد الحي واتجهنا صوب الجامع، وانطلق والدي انطلاقة حصان وصرنا نمشي أو بالأحرى نركض من شدة الاندفاع في المشي، وكأن أحدًا يطاردنا، ووصلنا الجامع قبل أن ينتهي الشيخ من الدرس، وكانت دهشتي التي لم أفهمها حينها أن الصوت ظل يخفت كلما اقتربنا من موقع الشيخ، وكان دخولنا من الباب الشمالي للجامع، وهو أبعد الأبواب عن المحراب، وكلما توغلنا في المبنى بدأ صوت المكبر يخف، وحينما وقفنا في الصف الثاني أمام الشيخ صرنا نسمع صوته المعتاد، ولكن صدى الصوت في خارج الجامع يرتد إلينا متأخرًا بعض الشيء فأسمع صوت الشيخ أمامي ثم أسمعه يأتي من فوق هابطًا من المنارة، وأخافني الوضع وكأني أمام سحر أو خطر يداهم المكان، ولولا أن الشيخ السعدي أمامي لربما أصابتني نكسة نفسية أو ربما هربت وتركت الجامع ووالدي، ولكن الشيخ بركتنا وحبنا وخيرنا كله؛ ولذا قلت في نفسي سيحفظنا الله ببركة الشيخ، كانت ليلة عجيبة ومرعبة ولم أنم تلك الليلة، ومن حسن الحظ أنهم لم يشغلوا المكبرات عند صلاة الفجر، وعلمت لاحقًا أنهم تعمدوا تجنب ذلك

بسبب شكاوى جاءتهم من البيوت المحيطة بالجامع اشتكت من وقع الصوت على الأطفال وتخوفهم منه، وتبين أن السبب ليلتها أنهم وضعوا الصوت على أعلى مستوياته، ثم تعلموا قياس الصوت وضبطه لكي يقف عند حدود منطقة الجامع، وفي الليالي اللاحقة لم نعد نسمع مكبرات الجامع سوى نسناس صوت بعيد لا يسبب أي صدى يضرب الجدران والآذان؛ لكن الحدث شكل لي ذاكرة ظلت تتحسن مع الزمن وتحولت من ليلة رعب إلى ليلة للتذكر الجميل.

- ب -

لم يك والدي يعرف الشيخ السعدي ولا الحياة بعنيزة، فقد عادت عائلتنا لمدينتها الأصلية حائل عام 1911م وعمر والدي حينها سنتان، وعاش طفولته في حائل حتى بلغ الخامسة عشرة، وفيها رحل إلى المدينة المنورة طلبًا للرزق، حيث سجل مع الجيش السعودي في بدايات تأسيسه، وحصل على رتبة أعلى من المتقدمين؛ لأنه يقرأ ويكتب، حيث تعلم في أحد الكتاتيب في حائل؛ ولذا حصل على رتبة عسكرية بدرجة عريف، وكلف بعمل إداري، مما وفر له وقتًا للتردد على الحرم النبوي وحضور حلقات مشائخ الحرم، وبعد سنتين تم نقله لينبع، وتعرف فيها على الشيخ حمد الجاسر، وله معه قصة كتبت حكايتها من قبل[1]، ومن ينبع ذهب لمكة المكرمة

(1) منشورة في كتابي، **وهذا باب في التوريق** (التوريقات 1-100) ص 26، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت 2019م.

حيث أصبح عمله في قلعة جياد المطلة على الحرم مباشرة وذلك عام 1928م، وكان مسؤولًا عن مدافع التشريفات، حيث كان من (البروتوكل) حينها أن تطلق المدافع إحدى وعشرين طلقة كلما حضر الملك عبدالعزيز إلى بوابة الحرم الشريف، وكذلك تطلق الطلقات نفسها كلما حضر ضيف على مستوى رؤساء الدول، ومرت عليه هناك حقبة زاهية عامرة بالذكريات والتعرف على التطورات والتحولات، ولكن نفسه مالت للمغامرة وغادر مكة لينضم لفرقة خفر السواحل، وجاء توجيهه لجازان حيث وصلها عام 1930م، وظل هناك أربعة عشر عامًا، جمع فيها بين العمل وحضور حلقات الشيخ القرعاوي الذي يجمعه معه كونهما معًا من عنيزة، وترافق مع الشيخ عبدالله بن عقيل الذي جاء قاضيًا في جازان وسكن مع والدي وعدد من زملائهم في بيت واحد، اشتركوا فيه الصداقة وحياتهم الجديدة في جازان، ودخل والدي للتجارة، حيث وجد فرصة للتربح إضافة لعمله، وتشارك مع صديقه الأثير إبراهيم أبا الخيل من أهل بريدة، وقد حضر لجازان لغرض التجارة، وهذا ما أغرى والدي بمشاركته، وكانت بضاعتهم جلب الكيروسين من ميناء عدن قبل أن ينتشر إنتاج النفط عندنا، ويصل الكيروسين على ظهور الحمير من عدن إلى جازان عبر الأودية والطرق الجبلية، ويتولى ذلك رجال من جازان ويمانيون لديهم مواكب من الحمير تتولى النقل لكل من استأجرهم لهذا الغرض، وازدهرت تجارة والدي مع توافد رجال الجيش وحاجتهم للوقود في بيوتهم، وتباركت تجارة الكيروسين،

كما تطور عمل والدي في البحر وكثرت مهماته مع خفر السواحل، وقد تمر عليه أيام طوال في البحر بين ماء وسماء، وأحيانًا يظلون متنقلين بين الجزر الصغيرة في عمق البحر ويغيبون عن جازان لأكثر من أربعين يومًا في رحلاتهم البحرية ومسحهم الأمني للحدود المائية، وهذه سببت مشاكل لعيونه لارتفاع الرطوبة وملوحتها، مما عرض عيونه لمشاكل تتزايد ويصبر عليها، ولم يك حينها من أطباء للعيون، ولكنه من بعد أن زاد عليه التعب وتضاعفت حساسية عيونه كلما دخل البحر وامتدت الحال ليعاني حتى وهو على اليابسة مما جعله يقبل بنصائح للجوء للطب الشعبي، وهناك كان عندهم شيء اسمه ضرب الميل يجيده بعض الشعبيين لعلاج العيون، فجربه تحت ضغط الأوجاع، والميل يشبه إبرة يجري إقحامها على الجفن لمسح التورم، وبعد تجريبها على عيون والدي عددًا من المرات حدث تمزق في عروق وأعصاب العيون، وراح بصره ولم تفلح أي محاولة لعلاجه منذ تلك الحادثة وعلى مدى أربعين سنة من بعدها من التردد على الأطباء كلما سمع هو أو سمعنا نحن لاحقًا عن طبيب ماهر يعالج العيون، وكلهم يعطون جوابًا واحدًا بعد الفحص، أن أعصاب العيون قد تدمرت بحيث لا يوجد أي أمل في عمل أي شيء، وهذه نتيجة قالها طبيب إنجليزي في جدة عام 1950م، وقد سافر له والدي خصيصًا بعد أن كثرت عليه الاقتراحات من كل من سمع عن ذلك الإنجليزي، وتكرر الجواب نفسه وسمعته أنا مرارًا في محاولاتي أن أجد أي حل لمشكلة والدي.

حين حدثت تلك الحادثة في جازان قرر والدي العودة إلى عنيزة، وكان جدي قد عاد من حائل واستقرت به التراحيل ليستقر مقامه في عنيزة؛ ولذا كانت عودة والدي لعنيزة التي ولد فيها بصيرًا وعاد إليها فاقد البصر، ولكن بصيرته عامرة ومعنوياته عالية، وقد روى لنا صديقه الأثير إبراهيم أبا الخيل حين زارنا مع عائلته في عنيزة وقص علينا قصة والدي أول ما فقد بصره في جازان، وكان العم إبراهيم حينها يمسك بيد والدي يقود خطاه، وتعثر والدي في مطب وسقط على الأرض، فانهار العم إبراهيم باكيًا ومتألمًا على حال صديق عمره، فما كان من والدي إلا أن شرع بمواساة صديقه الباكي وهو يذكره بمعاني الصبر على المصاب، وكأن والدي هو السليم وصديقه هو المصاب، كان العم إبراهيم يروي القصة ووالدي يسمع ويبتسم كما لو كان الأمر لا يتصل به، وهذا درس عظيم تعلمناه من والدي الذي لم أسمعه قط يتشكى من عمى عينيه ولا من فقد حياته العملية في العسكرية، وبعض رفاقه وصل لرتبة فريق وبعضهم لرتب لواء وتسنموا مناصب عليا في الجيش، وكنت أعرف بعضهم ممن لهم تواصل مع والدي، وأحدهم كان قائد منطقة جدة، وكان يأتي لمنزلي كلما حضر والدي لزيارتنا في جدة من بعد اعتماره في مكة، وكانا يتحدثان بأحاديث سمرهما المحببة عن حياة فتوتهما، وتذاكرا مرة بحديث عن الطبيب الشعبي الذي تسبب في فقد بصر والدي، وكم أدهشني تسامح والدي مع ذلك الشعبي وقالها مرارًا إنه شريك للكهل الجازاني، ولو لام أحدًا على

ما حدث فلومه لنفسه أولى، وكانت تبرز عليه علامات الرضا بقدر الله وتعمه طمأنينة عجيبة تغشى ملامحه وصوته، ولم يشعر قط بالحرمان مقارنة مع رفاق دربه وما وصلوا له من مراتب ورتب ووجاهات وهو الذي كان مثلهم من الجيل العسكري الأول مع عهد التأسيس الأولي للجيش السعودي، وكل هذا الذي فات على والدي من فرص الوجاهات تعوض معنويًّا بأن عاش حياته سعيدًا وربى أولاده وبناته على معاني المحبة ومعاني الإيمان والزهد بمظاهر الدنيا، وكان أكثر ما يحذرني منه هو المال الحرام لدرجة تدمع عينه وهو يقولها لي: «لن يمحق عملك وعلمك إلا الحرام»، وهذه هي كلمة التبريك التي قالها لي حين عدت من بريطانيا بالدكتوراه عام 1978م وقد كان فرحًا بعودتي، وكشف لي لحظتها أنه كان خائفًا ألا أعود، وأن تغريني حياة بريطانيا وأظل هناك، ولم يقطع بعودتي حقًّا إلا بعد أن عدت فعلًا وتسلمت العمل في جدة.

أعود لقصة والدي مع الشيخ السعدي، حيث تعرف عليه ابتداء عبر أحاديث الشيخ عبدالله بن عقيل في جازان، والشيخ العقيل هو أحد بواكير تلاميذ حلقات الشيخ السعدي، وحين طلبت الرياض من الشيخ السعدي أن يرشح لهم قضاة من تلاميذه رشح لهم عددًا من طلبته ومنهم الشيخ ابن عقيل، وفي أحاديث ابن عقيل وإحالاته الشرعية لشيخه تكونت ذاكرة عن الشيخ السعدي في ذهن والدي وتأسست محبة وشوق لرؤية هذا الشيخ، وهذه الصفات التي يسبغها ابن عقيل على شيخه، وقد فات والدي أن يعرفه بما

أن والدي نشأ في حائل وأخذته المطافات بعيدًا عن عنيزة، وحين عاد لعنيزة كان عمره سبعًا وثلاثين سنة؛ ولذا حرص على مجاورة الشيخ كما ذكرت أعلاه وحرص على حضور حلقاته، ولكنه احتفظ بمهنة التجارة التي اكتسبها وأحبها حين عمله في جازان، ولم يترك التجارة إلا حينما تركته هي، ففي عام 1963م جاء لعنيزة شاب طموح متقد حيوية وطموحًا هو عبدالله المحيميد، وتعين رئيسًا لبلدية عنيزة، وأول شيء عمله هو أن هدم السوق الذي فيه دكان والدي، وكأنه عن غير قصد هدم تجارة والدي، وكذلك هدم سوق أم العصافير وسوق القاع، وهما معًا سوقان للنساء في عنيزة، وكأنما هدم زبائن والدي؛ لأن النساء كن أهم زبائن الوالد وأصدق وأوفى زبائنه اللواتي لا يتخلين عنه حتى وقت أزماته المرضية، وقد مر والدي بثلاث أزمات صحية شديدة وحادة، ولزم البيت في كل واحدة منها لشهور، وظلت النساء يتواصلن معنا في البيت بيعًا وشراء وكأن الدكان مفتوح، وكنت أنا المرسال ووالدتي مديرة المبيعات، وهذا ما وفر لبيتنا دخلًا يعين على المعاش وعلى فواتير الممرضين الذين يكملون العلاجات مع والدي في البيت بعد خروجه من المستشفى ويحتاج إلى عناية لا تتم إلا بإكراميات تجعل الممرض يأتينا بعد الدوام لتقديم الخدمة الطبية اللازمة، ولن يفوتني أن أشير إلى سياسة هدم الأسواق التي كانت من مطامح المحيميد لتأسيس عنيزة الجديدة، وكانت هناك مدرستان لخطة هذا التأسيس، واحدة منها ترى أن تبنى عنيزة الجديدة خارج

السور، والأخرى تخوفت من هذه المغامرة تحت الظن أن أهل عنيزة لن يتخلوا عن قديمهم وسيتجاهلون السوق الجديد تبعًا لتعودهم على القديم ولانتمائهم لذاكرتهم معه وانتظام تواصلهم وتقاطعهم مع ما تعودوه ولن يغيروه لطارئ مختلف يرضي طموح الشباب ولكنه يربك الكبار وأهل السوق والخبرة والتراث؛ ولذا تغلبت نظرية هدم القديم وتأسيس الجديد على أنقاضه، والنتيجة أن عنيزة فقدت ذاكرتها وذكرياتها، وقد تصادفت هذه الأحداث مع فتح معهد النور بعنيزة، وهو معهد للمكفوفين ويدرسهم طريقة برايل للقراءة باللمس والكتابة بإبرة تغرس نقطًا على الورق؛ فتعلم والدي في المعهد هذا، ومباشرة تعين مدرسًا فيه واستمر فيه حتى بعد أن تقاعد، حيث حرصت الوزارة على التعاقد معه للاستمرار في التدريس في المعهد، وظل يدرس حتى كبرت سنه وآثر ترك العمل لصعوبة القيام بواجبات التدريس وقد اقترب من السبعين.

- ج -

في ترحالات والدي بين المدن، حائل، المدينة، ينبع، مكة، جدة، جازان، تكونت عنده ذاكرة عامرة في الحكايات وفي اللهجات، وكلما أخذ بسرد قصة انطلق معها بنماذج لهجوية من البلد الذي كانت القصة فيه، وهذا نوع من التندر والإمتاع لمجالسيه، خاصة مع التقاطه لبعض الصيغ الملتبسة التي تعني في بيئتها غير ما تعنيه في لهجة عنيزة، وتحصل المفارقات حين يكون معناها في عنيزة سلبيًّا ولا يقال في المجالس المحترمة، بَيْدَ أن لها معنى مختلفا في القصة

المروية، ويتحلى والدي بموهبة في السرد والقص حتى ليستولي على أي مجلس يحل فيه ويعمره بالقصص التي غالبًا ما تكون محبوبة ومقبولة بما أنها من بيئات متعددة تعددًا واسعًا، ويضيق صدره حينما لا تتسنى له فرصة الحديث الحر في مجلس ما قد يكون فيه ضيف غريب يحتاج إلى مجاملة، فيضطر الجالسون لتحويل الجلسة إلى جلسة بروتوكولية، وهذا أصعب حالات المجالس عليه، ويخرج منها مكتئبًا؛ لأنه اضطر لحبس ذاكرته التي هي متدفقة طبعًا وضرورة؛ فحبست في مجلس احتلته المجاملة وحولته لمجلس فاقد للحيوية، مع أن علاقة والدي بقصصه وذكرياته كانت مثل علاقة العهد والوفاء، وكأنه يخون قصصه إذا لم يروها على الناس، وستكون في حال الروي متعة له بما أنه صدق في عهده مع ذاكرته، كما أنه لم ينقطع عن الصلة بالعلم الشرعي ولا بالمشايخ، وبعد وفاة الشيخ السعدي رحمه الله عام 1956م وتسلم الشيخ العثيمين لمشيخة جامع عنيزة واصل والدي علاقته مع الشيخ الشاب حين توليه الجامع، والتزم معه بموعد شهري لزيارة منزلنا كما كان نظام الشيخ السعدي مع الجميع من أسر عنيزة، وواظب الشيخ العثيمين على هذه العادة الثمينة معنويًّا واجتماعيّا.

***

ثانيًا: هدية الشيخ

كنت صغيرًا لم أبلغ السادسة بعد، وكان الوقت ما قبل الغروب، حيث جلست على عتبة الباب وحيدًا أهجس بهواجس طفل صغير، وأعرف أن الشيخ سيأتي بعد قليل، وها هو يجيء ويبتسم في وجهي كعادته، ويدخل يده في جيبه وهذا ما كنت أنتظره ويخرج شيئًا أحمر مدورًا له رائحة لا أعرفها ولكنها قوية وزكية، لم أعرف هذه الهدية ولم أر شكلها من قبل ولا أدري ما هي، ولكني جربت أن أقضم منها قضمة فوجدتها طيبة الطعم وحلوة وغضة، فأخذتها للبيت ودسستها وظللت أتردد عليها أخاتل الوقت بعيدًا عن أهلي الذين لم أخبرهم بهدية الشيخ، وظل الطعم الزكي يرن في ذهني وأحلم به متمنيًا تكراره، ومرت السنين حتى إذا ما كبرت علمت أن تلك كانت تفاحة، وقد أهداني إياها الشيخ عبدالرحمن السعدي جارنا الذي تعودت على رؤيته كل مساء، حيث أعطاني اليوم هذه الأعطية العجيبة، لم نكن نعرف هذا النوع من التفاح في عنيزة، فقد كان عندنا تفاح أخضر صغير اللون فيه بعض حموضة وهو تفاحنا، وحينما عرفنا أنواعًا من التفاح صرنا نسمي تفاحنا الأخضر بالتفاح البلدي تمييزًا له عن التفاح الآخر ذي الألوان والمذاقات المختلفة.

كنت أجلس كل مساء على عتبة بيتنا في موعد ثابت مع جارنا الشيخ السعدي الذي كان يخرج قبل أذان المغرب متجهًا للجامع، وهناك له مواعيد مع كل أطفال الحارة، حيث نجد منه الابتسامة وبعض الأعطيات، وكان في الغالب يعطينا نوعًا من الحلاوة لا يخلو منها جيبه أبدًا، وكلما مر على أطفال مازحهم وتلطف بالحديث معهم، وقبل الانصراف يدخل يده في جيبه ويوزع الحلوى عليهم، وكنا نترصد المواقع في طريقه كلما تاقت نفوسنا لشيء من الحلوى، كانت الحياة في ذلك الوقت شحيحة، وكل شيء كان نادرًا؛ ولذا فإن قطعة الحلوى ستكون عيدًا لا مثيل له لنا كأطفال، ولكن التفاحة شيء آخر، شيء لم يكن ليخطر على بال وليس في حسبان الخيال ولا في أقصى تصوراته، ومازلت أجهل كيف جاء ذلك التفاح إلى الشيخ، وإن كنت سمعت أن من عادة أهالي عنيزة أن المسافر منهم كان يحرص على مهاداة الشيخ حين عودته من سفره، ويحرص على أجمل هدية وأظرفها، ولعل أحدًا من وجهاء البلد قد أحضر تفاحًا من خارج عنيزة وأعطى الشيخ منه، وعمم الشيخ الهدية على الجميع - كما هي عادته -.

لم تكن تلك قصتي الوحيدة مع الشيخ؛ ففي عام 1953م جاء عنيزة مطر وفير، والسنوات المطيرة يسمونها سنوات الربيع، ولا يكون الربيع إذا لم يكن مطر، والربيع ليس موسمًا سنويًا بقدر ما هو اسم لسنوات الخير، وفي ذلك العام كثر الخير، فصار الناس يخرجون البقر من البيوت إلى المراعي، وهي عادة لا تكون إلا مع

وفرة الربيع، حيث تخرج الأبقار، بينما المعتاد هو خروج الأغنام مع بقاء البقر في البيوت، خرجت بقرتنا مثل غيرها من بقرات الجيران، ويأخذهن راع يجمعهن من البيوت صباحًا، ويعيدهن مع المساء حيث لا يستطيع الراعي إيصال البقرة إلى حد باب بيتنا، ويتطلب الأمر مني أن أخرج مسافة إلى رأس الشارع كي أستلم بقرتنا من بين سائر البقرات، ثم أقودها عبر الزقاق الصغير المتعرج، وهي مهمة صعبة على طفل في السابعة من عمره وذي جسد ضئيل وقليل، وهي بقرة جموح وعنيدة وشرسة، وكنت أعاني معها، ولولا ضيق الشارع وتقارب الجدران وعدم وجود منافذ جانبية لولا ذلك لفرت البقرة مني ولا شك، وبينما كنت في عنت مع البقرة إذا بالشيخ يطل مبتسمًا عليه المشلح وتفوح منه رائحة دهن العود، وهنا يأتي إلي ويمسك برقبة البقرة ويقودها معي وهو يمازحني إذ تغلبني بقرة، ويعود معي كل المسافة وقد كان في طريقه إلى الجامع، ولكنه يعود معي إلى حد البيت، ويدفع بجسد البقرة إلى أن صارت في الداخل، ثم يطلقها وقد أخذ بيدي ووضعها على رقبة البقرة ثم يقول لي: قل لأهلك إنك أنت الذي أحضرت البقرة، وقد امتلأت عزة وفخارًا حينما راحت أمي تمتدحني ظنًا منها أنني صادق حينما قلت لها إنني قد أحضرت البقرة بنفسي، ورحت استعرض بطولاتي وقوتي مدعيًا عنترية لم أكن أملكها، ولم أكشف لأمي سر مساعدة الشيخ لي التي صارت موعدًا يوميًا لمدة زادت على شهر، وأنا مع الشيخ في لعبة مع البقرة، وكان سني أصغر من أن أدرك

أن الشيخ السعدي هو واحد من أكبر علماء الأمة الإسلامية فقهًا وعقلية، ولكنه كان بالنسبة لي في تلك السن صديقًا وعمًا ومصدر فرح لنا معه موعد كل مساء، أوله الحلوى وليست التفاحة آخره.

كان بعض أقراني مرة يلعبون الكرة، وكنا نسميها في ذلك الوقت (الطابة)، ومر عليهم الشيخ وراح يلامس الكرة بقدمه معهم ويسألهم عن قواعد اللعب، ثم مد يده كعادته إلى جيبه وأخذ في توزيع الحلوى، ولم أكن معهم لحظتها، وجئت وقد فرغ الشيخ من مهمته المعهودة، وانصرف، لكنه بعد انصرافه التفت على غير عادة منه، إذ كنا نعرف أنه إذا سار لا يلتفت، لكنه التفت في تلك المرة ليراني ويقول لي أين أنت يا عبدالله...؟ لماذا لم تلعب معهم بالكرة، ومد يده وأعطاني نصيبي من الحلوى، وقد كنت أحسست بحسرة قبل ذلك على منظر أقراني وهم يمضغون ويسيلون لعابي دون أمل من كرم أحدهم عليَّ، وقف الشيخ وأعطاني، ثم التفت إلى الجميع وقال: «لو كنت في سنكم للعبت مثلكم، ولكن أنا شايب يا عيالي»، ثم انصرف ومشى، وبعد أن مضى قررنا يومها أن نذهب إلى الصلاة معه في الجامع ولم نكن نفعل ذلك من قبل، ولقد صارت تلك عادتنا كل مغرب، حيث نسير خلفه ثم نراه يتقاصر في مشيته لكي نقترن مع مشيته، ويظل يلاطفنا ويتقبل منا كلامنا على سذاجة ما عندنا من كلام.

وكبرت لأعرف أن الشيخ كان أبًا وصديقًا للجميع، وإن مرت سنون لا أعرف أن تلك الحمراء الغضة ذات الرائحة الزكية كانت

تفاحة، فإن مزيدًا من السنين والتعلم كشفت لي أن التفاحة رمز المعرفة؛ تلك هي هدية الشيخ.

***

□□□□□ □□□□□□.indd 168 10/20/20 9:10 AM

ثالثًا: وداع الشيخ

قرر الشيخ إعادة بناء المسجد الجامع بعنيزة، كان ذلك في حدود عام (1945)، وكان الأمر يحتاج إلى مال لإنجاز العمل، ووصل الخبر إلى تجار عنيزة المهاجرين في الهند (بومبي) وفي البصرة وفي البحرين، وتلك كانت مراكز التجارة والرفاه في ذلك الحين، وفيها من أهالي عنيزة بيوتات تجارية تقليدية تكونت عبر السنين، وقد حرصوا على نيل الثواب ببناء الجامع، وراسلوا الشيخ من أجل ذلك، غير أنه رد عليهم بأدب وفير شارحًا لهم أنه يرغب أن يترك بناء الجامع لكل الناس ولا يخص به أحدًا بعينه، وفتح الشيخ باب التبرع لبناء الجامع، فكان يفرد رداءه في المسجد ويستقبل تبرعات الناس، وتسامع الجميع بالخبر، فكانت النساء تأتي بربع الريال وبنصف الريال، وكان الأطفال وكان الفلاحون والعمال كل يأتي بما تيسر له من قطع مالية، وكانت العملات في ذلك الوقت كلها معدنية؛ ولذا فقد كان الرداء يمتلئ ويأتي رجال يساعدون الشيخ على تجميع المال وحمله إلى غرفة في قبلة المسجد، وظل الرداء مفتوحًا لاستقبال التبرعات حتى تجمع مال وفير جاء من عرق الفقراء وكدح المساكين، واشترك أهل عنيزة كلهم في بناء المسجد، وأحس كل شخص أن له في كل سارية وفي كل ردهة وفي كل لبنة من

لبنات الجامع، أحس أن له نسغًا من عرقه ونسغًا من حبه ومن فلذة روحه، وصار الجامع رمزًا للمحبة والخير تجمعت عليه القلوب.

هذا هو الشيخ عبدالرحمن السعدي، صديق الأطفال والفقراء والنساء والبسطاء، وهذا هو رمز حبه وإحساسه.

تلك قصة قديمة سبقت ميلادي، وقد سمعت الكل يتكلم عنها، ثم سمعت قصصًا أخرى منها أن الشيخ كان مدعوًّا مرة عند أحد الناس بعد صلاة العشاء، وهي عادة تعودها كل ليلة، إذ يمر مرورًا خفيفًا على بيت أو بيتين في الليلة، ويجلس جلسة خفيفة فيها حب ومؤاخاة، ويشمل كل طالب لهذه الجلسة، وله جلسة أخرى بعد الظهر يمر فيها على بيوت الناس حسب مواعيد يسجلها في دفتر في جيبه، وفي تلك الليلة المحددة أخطأ الشيخ في باب الدار، حيث رأى بابًا مواربًا وظن أنه باب صاحبه، وقد استأذن بالدخول وجاءه صوت من الداخل يقول له: تفضل، وحينما دخل وجد شبابًا قد تجمعوا يلعبون البلوت وبأيديهم السجاير، وكم كانت دهشتهم إذ رأوا الشيخ السعدي واقفًا على رؤوسهم وقد ظنوا أن الذي بالباب أحد أفراد شلتهم، ولقد هموا بالنهوض خوفًا ومفاجأة، غير أن الشيخ أقسم عليهم ألا يتحركوا من جلستهم وذهب إلى موقد القهوة وصب لنفسه فنجان قهوة، وراح يمازحهم ويسألهم عن بيت صاحبه تاركًا في قلوبهم أنهارًا من الحب والسماحة تفوق كل أطنان العرق الذي تصبب من جباههم وجلودهم حرجًا وهيبة، ولكن الحب أكبر وبسمة وجه الشيخ أبقى.

ومرة جاء رجل كان يعمل في أرامكو على أول إنشائها، وكانوا يسمونها الجولوجية، جاء في إجازة قصيرة وأظهر لزملائه رغبته في السلام على الشيخ السعدي، غير أن زملاءه قرعوه على هذه الرغبة بما أنه رجل معروف عنه الاستهتار وقلة الخير، وقالوا له لو رآك الشيخ فسيضيق منك، وانصاع الرجل لتقريع زملائه، حتى تصادف يومًا أن كان يسير في الشارع فتلاقى مع الشيخ على غير ترتيب، وهنا تقدم بالسلام ورد عليه الشيخ بحفاوة عميقة، وقال له ليتني رأيتك في وقت بعيد عن موعد الصلاة لكنت إذن دعوتك على القهوة معي، كان الشيخ يقول هذا في حين أن الرجل كان يسير مدبرًا عن المسجد، وكان الوقت وقت صلاة، وكان الشيخ ذاهبًا إلى الجامع، ولم يعترض الشيخ على الرجل ولم يكفهر في وجهه مع شيوع اسم الرجل بما أنه لعَّاب ولا يصلي وكان مدبرًا عن المسجد.

يقول من روى لي القصة إن تلك كانت سببًا في هداية الرجل واستقامته بقرار من ذاته وبتجاوب مع خطاب المحبة.

وآخر ذكرياتي مع الشيخ كانت يوم وفاته، في عام 1376هـ (1956م)، وكنت وقتها في السنة الرابعة الابتدائية، ولم أزل وقتها أرى الشيخ صديقًا وعمًا، ولم أتبين بعد أنه عالم عظيم الشأن في أرجاء العالم الإسلامي، كان بالنسبة لي وجهًا جميلًا ورجلًا سمحًا وودودًا، وله في النفوس محبة، وكان علامة على الطلعة البهية والنفس الكريمة.

وفي يوم وفاته كنت مع والدي في الجامع ثم في موكب الجنازة، كان جسمي صغيرًا وضئيلًا؛ ولذا انحشرت وسط جموع من البشر يسيرون بأقدام ثقيلة وبتراص محكم حتى لم أكن أجد طريقًا للهواء كي أتنفس من وسط الجموع، والموكب يسير من الجامع في وسط البلد متجهًا الى المقبرة على أطراف البلد، وبدا لحظتها أن البشرية كلها قد تجمعت في ذلك الحشد، وكانت أصوات الناس مع الاسترجاع والتكبير والترحم تهدر في الجو كهدير الأمواج، وعلى طول الطرقات جلست النساء مستندات إلى الجدران ولهن زفرات ونشيج مدلهم واختلطت الأصوات، وأنا من تحت ذلك كله متشبثًا بيد والدي وقلبي يرجف من هذا الحشد وهذا الحزن وهذا الوجيب، والكل يدمع، والكل محمر الوجه، وفي لحظة ادلهم الجو بصوت يدوي في السماء، ورفع الكل أبصارهم ليروا طائرة تحلق في سماء عنيزة على غير عادة معهودة، وردد الناس الكلمات: هذه طائرة أرسلها سعود لتأخذ الشيخ للعلاج في الخارج.

تأخذ الشيخ...! وقعت الكلمة في نفسي موقع الصاعقة...، تأخذ الشيخ...؟! وهنا لم يكن من جواب، ها هو الشيخ في عنيزة في ترابها وبين يدي محبيه والدموع تزفه إلى الرفيق الأعلى.

هنا النساء تبكي وتنتحب، ولكم رأينا الشيخ ونحن صغار وهو يقف بمحاذاة الجدار في الشارع كلما رأى امرأة تمر متأنية من قربه فيعلم أنها تريد أن تستفتيه في أمر، فيقف ليعطيها الفرصة كي تقف في وقار وتسأل، وكم كان الكلام خافتًا حتى إننا لم ننجح

قط في استراق السمع لما يقال، على الرغم من كل محاولاتنا الطفولية الشقية.

لم تأخذ الطائرة الشيخ، وبقي مع محبيه، وظلت ذاكرته تتجدد وتتبعث في نفوس كل من رآه أو سمع به، وكنت في إحدى زياراتي إلى الرباط في المغرب اكتشفت أن كتب الشيخ السعدي وفتاويه وتفسيره للقرآن وكتابه عن أصول التفسير كلها هناك، وله محبون كثر ومريدون كثر، وهي رحلة الحب من المشرق إلى المغرب، وليس للحب دار وليس للحب احتكار، تلك ذاكرة في المحبة صنعها شيخ كانت التقوى عنده في المحبة والتسامح، ذاك هو عبدالرحمن السعدي، رحمه الله وضيَّفه رضوانه ورضاه.

***

رابعًا: الرمزيات

- أ -

في شتاء 1956م ضربت منطقة نجد كلها موجة أمطار كاسحة، وفيما يخص ذاكرتي عن تلك السنة في عنيزة فقد أفرحتنا الأمطار في البداية بما أننا أطفال سيسعدنا المطر بألا نذهب إلى المدرسة كلما نزلت مطرة شديدة، وأن نخرج في رحلات للنفود، وهي متعة لا توصف حين هطول المطر وظهور نبتات الصحراء وانتشار الخزامى والنفل حتى لتتحول رائحة الرمل وكأنه مرشوش بالعطر، تزينه الروائح الزكية مع صفاء الهواء وأصوات الطيور بكل أنواعها وأشكالها، وهذا موعد شتوي مبهج ومنتظر؛ ولذا نفرح بالأمطار لأنها تمنحنا هذا الوعد الحالم الذي يملأ ذواكرنا برائحة الأرض وطيب الحياة وبهاء الصحراء وكأنها جنان غناء لم تر قبل عطشًا ولا جفافًا ولا حرارة، فتتحول إلى جنة الله في أرضه، غير أن المطر هذه المرة أخذ بتحويل وجوه أهلنا لتغيرات لم نعدها من قبل؛ إذ بان عليهم القلق وتسرب قلقهم إلى خوف في نفوسنا، ونحن الذين كنا نرى أهلنا يستغيثون طلبًا للرحمة وللمطر وللربيع، والربيع كلمة لا تستخدم في معجمنا إلا بمعنى أن الأرض مطرت وأنبتت واخضرت،

فيقولون هذه سنة ربيع، أي سنة خصب ومطر وخضرة، وهي لا تعني فصل الربيع؛ بل إن هذا الربيع يأتي في فصل الشتاء، وكلما بكر كان أزهى وأبهى، وإذا انقطع المطر في عام من الأعوام قالوا: هذه السنة ما جانا ربيع؛ تلك صورة زاهية تتمناها النفوس وتعد به الأمنيات والأخيلة، لكن ربيع شتائنا ذاك تحول لرعب أرجف وأخاف.

وأول مواجهة لي مع الخوف جاءت حين طلب منا المدرسون الخروج من المدرسة والعودة لبيوتنا، وكنت حينها في السنة الرابعة ابتدائي، فانتابني خوف رهيب وأنا الذي كنت أتمنى الغياب عن المدرسة والاحتفال بالمطر كما هو المعتاد في مثل هذه الحال، غير أني وزملائي دخلنا في حالة من التوتر، ونشعر أن المدرسة آمن من بيوتنا وهي بلاشك كانت آمن من الطريق إلى البيوت، والسماء لحظتها كانت مكفهرة، واسود الجو حتى صار كأنه ليل ونحن لما نزل في مطلع النهار، وحين خرجنا للشارع لاحظنا الناس تتسابق نحو البيوت وتدخل داخل المساجد، وزاد خوفنا لأن الكل في الشارع يحثنا على التحرك بسرعة نحو بيوتنا، وعلى وصولي للبيت ضربت صاعقة دوى صوتها في أرجاء الحارة ضاربًا جدران البيوت وكأنه شيء زلزل الأرض من تحتنا، وصرت أسمع النساء في البيوت تتضرع لله خوفًا ورهبًا، وكل واحدة منهن تطل من باب المنزل تتفقد أطفالها لتتأكد أنهم دخلوا للبيت.

دخلت لبيتا وأخذتني أمي بسرعة إلى غرفة داخلية، وكانت قد أوقدت النار ووالدي جالس عند باب الغرفة المطلة على الفناء وكأنه

ينتظر شيئًا، وصوته يجهش بالابتهال لله أن يحفظنا ويردد أدعية وأوردة، وكان صوته يزيد من خوفي حين أرى أبي القوي يضعف أمام اللحظة، بينما تحاول أمي أن توزع نفسها بين أطفالها تضم أختي نورة وأخوي علي وصالح في حضنها، وقد وضعتني بينهم لتصنع لنا نوعًا من الطمأنينة، وفجأة سمعنا صوتًا رهيبا وكأن بيتنا سقط علينا، وتقافزنا كلنا ذعرًا بين بكاء للصغار وارتباك للكبار، ووالدي يتحرك فقط ليعرف هل نحن بخير، وظللنا لدقائق لا نعلم ما الذي حدث، وخرج والدي للفناء ونادى على الجيران من حولنا، وكل جار صار ينادي من جهته، وكل واحد يقول إنه بخير ويسأل عن جاره، وعبر هذه الوسيلة تمكن جارنا الأبعد أن يكتشف القصة، وأكد للجميع أن الذي حدث هو سقوط جدار في البيت المجاور لنا نحن مباشرة، وكان البيت خاليًا من أهله الذين هاجروا لمكة وتركوه مهجورًا دون أي عناية، وكان الحادث خلف ظهر أمي مباشرة ولكن من وراء الجدار، حيث سقط الجدار الفاصل بين البيت الذي جهتنا والذي خلفه، وقد تخثر الطين من تحت الجدار بعد أيام من المطر فسقط الجدار كله قطعة واحدة وكأنه قطعة كعكة سقطت على الأرض بعد أن انسكب عليها عصير جعلها تتهاوى مجتمعة في كتلة واحدة غارقة بالماء، سقط الجدار كله، وهو جدار طيني تشرب مياهًا فوق طاقته، وتخثرت الأرض من تحته، فسقط كله بما فيه من ثقل بسبب المياه المختلطة بالطين، وهذا أحدث دويًّا كأنه قنبلة، وإن كنا لانعرف القنابل ولا أصواتها في ذلك الحين، ولكن الصوت

هو ما صرنا نسمعه حين سمعنا مدفع رمضان في عنيزة بعد سنتين من تلك الحادثة، وخاصة حين يأتيك الصوت عبر ما جمعه معه من صدى صنعته له الجدران والحواجز.

كان الرعب يتشكل أمامنا كل لحظة، ولجأ الناس إلى بيوتهم متحصنين فيها، وبعضهم خرجوا للصحراء ونصبوا خيامًا وسكنوا هناك، وقد قاوم والدي هذه الفكرة وصمم ألا يغادر بيته، بينما كنا نترجاه أن يأخذنا للصحراء، ويزداد ترجينا مصحوبًا بالبكاء كلما سمعنا صاعقة تدوي ويقترب صوتها منا، ولكنه ظل يقاوم ويتصبر، ولن أنسى صاعقة هزت قلوب الجميع في المسجد في أثناء صلاة العصر، وكانت كأنها صلاة العشاء بسبب ظلمة الجو وتجمع سحاب كثيف أسود وكأنه ليل يتغشى البلدة، وفجأة دوت الصاعقة وسمعنا شيئًا يسقط، ثم جاءت روائح احتراق، وحين خرجنا من المسجد تبين أن الصاعقة قد ضربت بستان نخيل مجاور للمسجد، وسقطت نخلة واحترقت، حيث كانت الضربة فيها.

كان أخوف ما يخيفنا هي مصطلحات تواترت في أثناء تلك الجائحة مثل: زلت، ارتدت، والأولى يقولونها بعد أن يتتبعوا حركة السحابة حين تقترب منذرة بالغرق، ويواصلون تتبعها مستقرئين لون الغيم فيها وصوت الرعد وقوة البرق وينتظرون أمرها معهم، فأحيانًا تزل بمعنى تعدي وتتحرك بعيدًا عنا، ولكنها أحيانًا ترتد، وهذه هي أخطر الأحوال، وفهمت حينها أن المصطلح يحيل إلى تغير اتجاه الريح مما يسبب إعادة توجيه مسار السحابة وكأنه تحويل قسري مما يضاعف

من نظام تحرك السحابة، فتتحول من محايدة إلى مستعرة، وحينها تضرب برعود وبروق وصواعق وماء كاسح يكتسح الشوراع ويهز بيوت الطين ويدمر الحقول، وهنا تصبح كلمة (ارتدت)، هي كلمة الرعب التي ترسلنا للاختباء، ولكن أي اختباء والبيوت كلها طين، وظل هذا الطين يتشبع ويتشبع حتى أصبح مهيأ لمصير يشبه مصير جدار جارنا الذي أصبح كعكة سقطت على الأرض كتلة واحدة، كان مصير جدار الجيران هو الرديف الذهني لكلمة ارتدت.

ظلت الحال هكذا أسابيع عديدة كأنها دهور، وكان الناس يترددون على بيت الشيخ السعدي ويطلبون منه أن يبتهل لله ليرفع عنهم، وهذا ما حدث في خطبة الجمعة، حيث خطب الشيخ خطبة أظنها أخطر خطبة خطبها في حياته وحياة الناس في عنيزة، تضرع فيها لله ليرفع عن عباده، وهي الخطبة التي جعلت الناس تتكلم عن بركة الشيخ، حيث انقطع المطر بعد ذلك، وتقول قصص الناس إن المطر انقطع مباشرة بعد الخطبة وعاد الأمان للقلوب، ولا شك أن هذا الكلام قد صدر عن محبتهم للشيخ وعمق طمأنينتهم له ومعه.

والأكيد أن الشيخ ابتهل ابتهالًا شجيًّا وتكسرت الكلمات على لسانه وتدفقت الدموع في عيون الناس كلهم معهم، واهتزت أركان الجامع بالنحيب مكللًا بالخوف ورجفات الرجاء لله، وكل واحد غرق في رعبه الخاص على بيته الطيني الذي تشبع من الماء وشارف على السقوط ودفن أهله تحته، أو على حلاله وزرعه، أو على دكانه وتجارته ومخازن بضاعته، لقد كان كل شيء في خطر

لحظوي قد يداهمه في أي لحظة، والقلوب وجلة ومضطربة، شهدت هذه الفاجعة في البيت والمدرسة والسوق وعلى وجوه النساء وهن يحاولن تفقد دكاكينهن في السوق النسائي المجاور لبيتنا، وكلما فتحت واحدة دكانها فرت هربًا نحو المسجد لتتقي خطر صاعقة تلوح زمجرتها من بين الرعود وسواد السحاب، وهذا الرعب لا شك هو الذي ولد في روح الناس القول ببركة الشيخ؛ لأن المطر توقف بعد مدة وجيزة بعد الخطبة، فربطوه بطهارة الشيخ ونقاء سيرته بأن الله بارك في نيته وتقبل دعوته ونجى الناس من كارثة أطبقت عليهم قرابة أسبوعين من الرعب المتصل ليله بنهاره.

- ب -

للشيخ السعدي رصيد عميق من محبة الناس، وهذه المحبة تعبر عن نفسها بصيغ سأعرض بعضها، فلصديقي الأثير محمد العبدالله السليم موقف يكشف ما تشكل لنا كلنا عن الشيخ وموقعه في مخيلاتنا الطفولية، فقد كان محمد -رحمه الله- يسمع كغيره ما يردده أهله في أي موقف يحتاج لسند شرعي فيقولون قال رسول الله عليه الصلاة والسلام، وتتكرر هذه الجملة على سمع طفل لا يتجاوز فهمه حدود عبارة تتكرر عليه، وفي الوقت ذاته كان مثلنا كلنا يشاهد الناس رجالًا ونساء يستوقفون الشيخ السعدي في الشارع ويستفتونه في أمور دينهم، وهنا تنشأ في ذهن الطفل محمد أن ذلك الشيخ النقي البهي الطيب والمحبب هو رسول الله، وظلت تلك رؤيته إلى أن صحح أهله له النظر ومكنوه من التمييز.

وإن كان هذا خيالًا طفوليًّا ربط بين صورة سمعية يسمعها من أهله وصورة بصرية يشهدها يوميًّا في الشارع، مما جعله يستنبط معناه عبر الصورتين، فإننا سنرى كذلك صورًا ذهنية عند رجال مميزين، وذلك بقصة متواترة بين (مجايلي) الشيخ أنه كان ذاهبًا لزيارة بعض الفلاحين في مزارعهم كعادته في توزيع علاقاته بين الكل، وإذا به يشاهد فلاحًا ومعه حماره، وكان الفلاح يجلد الحمار جلدًا صلفًا، فتحدث معه الشيخ وطلب منه أن يرفق بالحيوان، فرد الفلاح أن حماره عنيد ولا يمشي إلا بالضرب، فما كان من الشيخ إلا أن استأذن من الفلاح ليريه كيف تكون المعاملة مع الحيوان، وأمسك برقبة الحمار وأخذ يمسح عليه ويتكلم معه وكأنه يتحدث مع عاقل فاهم، فاستأنس الحمار ومشى دون ضرب، وقال الشيخ للفلاح ألا ترى...!، ها هو مشى دون ضرب، فرد الفلاح مبتسمًا وقال: يا شيخ، ترى حتى الحيوانات تحبك، لكننا لسنا مثلك، وهذا جواب أشاع القصة وأدام روايتها؛ لأنها تستجيب لرمزية الشيخ في نفوس الناس.

والشيخ يعرف محبة الناس له ويستأنس لها ويشكر الله عليها، وعلامة ذلك أنه في عام 1954م أصدر الملك سعود أمرًا بتعيين ابن سعدي قاضيًا في عنيزة، فصدم الشيخ من الخبر وتأثر جدًّا لأنه لا يريد، وفي الوقت ذاته يخشى ألا يتقبل الملك اعتذاره، وتشكَّى لمن حوله من هذا الأمر، وكان الكل يقترح عليه تقبل الأمر وتجريب نفسه مع القضاء ثم يطلب الإعفاء بعد ذلك، وهذه الطريقة هي الأمثل لتجنب الحرج مع الملك، ولكنه رد برد انتشر وقعه بين

الناس حيث قال: إن أهل عنيزة كلهم يحبونني مثل ما أحبهم، وكل ذلك لله وبالله، فإن توليت القضاء فسيحبني نصفهم ويكرهني نصفهم، ومن يحبني منهم حينها فليس حبًّا في الله، ومن يكرهني فليس كرهًا لله، بل لأني حكمت لهذا ضد ذاك.

ونتيجة لهذه الأزمة دخل الشيخ في حالة نفسية حادة وقلق شديد ثم اختفى عن عنيزة، ولم يعرف أحد أين ذهب سوى قلة من معارفه الموثوقين، وهنا تدخل وجهاء عنيزة وتراسلوا مع الملك سعود وطلبوا منه إعفاء الشيخ وتركه لحبه وأحبائه، وتم ذلك، ولكن أين هو الشيخ ليبلغوه بالبشرى، فعلموا أنه في مكة المكرمة وقد تخفى هناك ولم يظهر نفسه للناس، فقط كان يذهب للحرم متخفيًا ويتعبد الله هناك في الصفوف الخلفية كي يتجنب عيون الناس، وحين راحت البرقيات إلى مكة وأرسلت لعدد من وجهاء عنيزة المقيمين في مكة تحريًّا لواحد منهم يعرف الطريق إلى الشيخ، وفي نهاية المساعي والتحريات وصلت البرقيات الثلاث كلها للشيخ، فظهر للعلن واحتفل به الناس في مكة وكشف عن هويته في الحرم وتقابل مع الكل دون تحرج وارتفعت عنه الغمة، وفي القصة أنه كان يتعرض لحالات إغماء تنتابه حين تأزمه رحمه الله.

تلك رمزيات الشيخ في قلوب الناس ووعي الشيخ أن الدين محبة، وأن العلم محبة، وأن ذلك كله لله.

***

خامسًا: هل الإيمان محبة؟!

- وهل هو معنى ينغرس عبر العلاقات العامة؟!
- وهل السلوك هو معنى التقوى؟!
- وهل المحبة تعدي وتنتقل من قلب كبير لقلب صغير؟!

هده أسئلة أراها تترجم معاني علاقتي مع الشيخ السعدي، وبكل تأكيد لم أك أعي منزلة الشيخ ولا سر محبة الناس له، فهو عندي جارنا الحبيب المختلف عن أي جار وعن أي قريب، والجميع في ذلك الزمن كانوا يمارسون دور الأب ودور الوصاية حتى لكأن كل رجل في عنيزة هو ولي أمرك، يضربك حتى من دون سبب، ربما لمجرد ضحكة لا يراها في مناسبتها، والضحك من غير سبب قلة في الأدب كما هي قاعدتهم التربوية الغاشمة؛ ولذا فكل شيء محسوب عليك ومسجل ضدك، وأهلك يباركون ذلك، فمن لم يربه أبوه رباه الزمن، والزمن هو من لحظة خروجك من البيت حتى عودتك للبيت، والكل رقيب عليك حتى لو إنه لا يعرفك، وقد يكون جاء من خارج البلد وصادف أن كنت قريبًا منه وصدرت منك حركة لا تتصل به، ولكنه لمجرد أن رآها فلن يتردد في رسم كفه على خدك، وليس لك إلا أن

تأكل الكف وتمضي، والشاطر منا هو من يتحمل الكف ولا يتذمر منه أو يتألم.

ولكن الشيخ ليس من هؤلاء، فهو لم يضرب طفلًا قط ولم يعبس في وجه طفل قط، ولم ينهر أحدًا حتى العصاة المشهورين بمعاصيهم كان يتلطف معهم وكأنه يخفف من أوجاع قلوبهم وتأنيب أرواحهم، كما يواسي الطبيب مرضاه ويتلطف بهم، ولا يحاسبهم على مرضهم ووجعهم.

ذاك هو الشيخ السعدي وهذا سر رمزيته للواعين بعمله، ولكننا نحن الأطفال نحبه فقط، ولا نسأل لماذا نحبه بمثل ما تحب تفاحة طازجة تقع في حضنك وتروح تخفيها كي لا يشاركك متعتك بها أحد، فقد كان الشيخ كذلك.

وحين كنت بقرب الشيخ لا يفصلني عنه إلا سنتمترات كان عندي يمثل العم الحبيب والإنساني والودود، وهنا سنرى علاقة الدين بالمحبة، وكل تدين مع محبة سيولد عنه ما نسميه بالتقوى، وكل محبة هي حالة تقوى من نوع ما، فالمحبة تجعل القلب يلين، وتجعل العقل يتنازل عن شغبه وتساؤلاته ويسلم القياد للقلب يفعل ما يهوى دون تشرطات، والإيمان يجد جوه وهواءه النقي في مثل هذه الأجواء في الحب والتقوى السلوكية وفي التسامح والتواد، ولن يطمئن الإيمان في أجواء الشدة والغلظة؛ لأن هذا عمل مناف لنجاعة القلب وسلامة طويته، ومناف للذاكرة الإنسانية حين

تستعيد سيرة الأحداث فتوجعها آلام ذكريات القسوة وتبهجها ذكريات المحبة، والمحبة وحدها تؤسس المعاني وتقوي حسيسها في النفس، وحين يأتي ظرف خصب في حياة الإنسان تعود له معانيه الأولى وتنعشه من جديد لتنتشله من وجع السنين وسطوة الظروف ومطبات المعاش.

إنه عبدالرحمن السعدي الذي كتب سيرته في قلوب من عاشوا قربه وتمثلوا مسلكه، وتبسم لهم جبينه فرسم معانيه في قلوبهم وكتب فيها معاني الرحمة والمحبة والتواد، ولن تتركهم هذه المعاني وحيدين أمام تحديات السلوك البشري الصدامي بالضرورة المعاشية، ومخزون القلب أخيرًا هو الرصيد وقت إفلاس الظروف.

***

□□□□□ □□□□□□.indd 184 10/20/20 9:10 AM

سادسًا: العقل الشقيّ/العقل السعيد

⊙ هل يشقى ذو العقل بعقله ...؟!

يميل البشر للقول بشقاء العاقل، ويجدون في ذلك سلوى عن شقاواتهم، ومن ثم وصف غير الشقي بأنه جاهل، وهذا هو معنى بيت المتنبي المشهور، وعلامة قبوله الثقافي العام هو ترداده والتسليم بمعناه، مما يعطي أفضلية طبقية للشقاء وكأنه خاصية عليا بين عالم عاقل شقي وآخر تنقصه هذه الميزة، ومن ثم هو جاهل ودليل جهله عدم شقائه.

وتبعًا لنظرية (الاستدلال العقلي الوجداني) فإن شقاء العقل يأتي من غرور العقل وتصوره الكمال لنفسه، وأي حالة نقص سينظر إليها على أنها من شقاء العقل الكامل وليست من عجزه، ولكن لو أخذنا بحقيقة أن العقل ليس كاملًا، وأنه يحتاج للوجدان والعاطفة في أمور كثر ومنها الإيمان والمحبة، وهما معا ليستا حقًّا محتكرًا للعقل والعقلانية، ولو أصر العقل على الاستيلاء عليهما فلاشك أنه سيشقى؛ لأنه دخل في منطقة يحتاج فيها لمعين يعينه، وهنا تأتي نظرية روسو في قوله: إن عقله يدله على فطرته، ومن ثم يكتشف حقيقة الإيمان، وقوله هذا يعني أن عقله إذا أدرك

عجزه فإنه سيتحرر أولًا من غروره، وسيتحرر كذلك من سلطة المؤسسة على تفكيره، ومن ثم يعود إلى نقطة البداية الصافية التي لم يخالطها غرور العقل وتعصبه ولا تشدد المؤسسة الدينية واستعمارها لتفكيره، وهنا يتحد عقله مع وجدانه ويصل إلى طمأنينته الخاصة .

وتبعًا لهذا سنتخلص ثقافيًّا من الطبقية الثقافية التي تنسب الطمأنينة للجهل، والشقاء للمعرفة، وكلما كابر العقل في إسكات الوجدان وكتمه فإنه سيشقى بكل تأكيد، ولكن لو حررنا السجين فسيتحرر السجان كذلك، بما أن السجَّان يظل أسيرًا عند المسجون وإن ظن في نفسه الحرية، والطمأنينة ليست أمرًا يتنافى مع العقلنة ولكن بشرط أن يتآلف العقل مع الوجدان وتتحرر المعاني في توازن عادل بينهما.

الفصل الخامس:

حلقات المعاني

□□□□□ □□□□□□.indd 187 10/20/20 9:10 AM

أولًا: حديث المنارة

- أ -

كنت في السادس الابتدائي عام 1958م وتكلم معي والدي بأن الشيخ محمد العثيمين يرغب أن أحضر عنده في حلقات الدروس في الجامع الكبير، أحسست لحظتها أن والدي هو صاحب الفكرة، ولكنه ألبسها لبوس المعنى الخاص بأن الشيخ اختارني وخصني بمزية أكبر من سني ومن اهتماماتي التي لما تزل طفولية، ولكن الأمر كان مغريًا، ووجدت رغبة في أن أذهب لحلقات الشيخ، خاصة أن ابن خالتي عبدالعزيز الحميدي[1] من تلاميذ الشيخ ويكبرني بثلاث سنوات، وهو قريب لنفسي، وتجمعني به اهتمامات القراءة ومحبة التزود الثقافي، وظلت هذه الاهتمامات بيننا لسنين طويلة، وكان لهذه الاهتمامات المشتركة دور مهم في تقوية محبتي للكتب والقراءة، بالرغم من اختلاف توجهاتنا.

نفعني وجود ابن خالتي في الحلقات، إذ تعلمت منه آداب الحضور ونظام الجلوس، وحين دخلت للحلقة أول مرة لم أكن أعرف غير أن

(1) هو الشيخ الأستاذ الدكتور عبد العزيز الحميدي أستاذ الشريعة وأصول الدين في جامعة أم القرى.

أجلس مع الناس، ولكن عبدالعزيز قام من مجلسه وأحضر لي كتابًا كبيرًا ومجلدًا بدا عليه أثر الاستخدامات المتكررة، ووضع الكتاب بين يدي بعد أن فتح على صفحة محددة، وهي موضع درس ذلك اليوم، والكتاب هو (الروض المربع) في الفقه، والحلقة تلك كانت قبل صلاة العصر، وستتلوها حلقة بعد الصلاة وأخرى بعد المغرب، وسيكون في الصباح حلقات تبدأ مع شروق الشمس، ثم تتعاقب بحلقتين مرتبتين في مطلع الضحى وفي منتصفه، لتعود الدورة بعد ذلك في حلقة ما قبل العصر، وهكذا في تتابع يومي باستثناء يوم الجمعة، وهذا هو البرنامج الصيفي، أما وقت الدراسة فتتوقف حلقات الصبح والضحى، وفي كل حلقة درس مختلف عن الأخرى، ويشمل التنويع كل علوم الدين فقهًا وتفسيرًا وتوحيدًا مع علوم العربية نحوًا وبلاغة، وكلها مررت عليها في حلقات الشيخ مع قصص تقاطعت مع هذه الحلقات سأروي بعضًا منها.

حضرت الحلقة الأولى ولم أجد مشكلة مع مادة الدرس، فقد كان الشيخ يحرص على إفهام طلابه المتنوعين سنًّا ومستوى، ففيهم الصبي مثلي، وفيهم الدارس المتقدم وفيهم العامي المحب لمجالس الشيخ، وكان الشيخ يهتم بكل واحد حسب حال ذاك الواحد، ولا يغادر مسألة حتى يتوثق من فهم الجميع لها، وسلاحه في ذلك طرح الأسئلة.

يبدأ الدرس عند الشيخ بقراءة فقرة من الكتاب، ثم يشرع الشيخ بطرح أول سؤال عن أمر في تلك المادة كأن يسأل عن معنى مفردة في حديث، ويدور السؤال على كل واحد من الجالسين، فإذا

اكتملت الدورة أخذ الشيخ في استعراض إجابات الحضور واحدة واحدة إلى أن يحسم جواب السؤال، ولكنه لا يفعل ذلك أبدًا إلا بعد أن يمر السؤال على الكل، وبعضهم يتوقف عن الإجابة، وبعضهم يجتهد بجواب، وفي أول حضور لي كنت آخر من جاءه السؤال لأني كنت جالسًا على الطرف، ومن حسن حظي يومها أن جوابي كان صحيحًا مع أني كنت قلته دون أي ثقة في نفسي ولا في علمي، وكنت حينها أقل من ذلك بكثير، لكن أعانني كوني آخر المحاولين، وقد استبشرت بأني صادفت إجابة صحيحة وكأنها شفاعة لي عند الحضور وأنني أستحق الجلوس معهم.

- ب -

لاحظنا أنا وصبي مثلي تجمعني به حلقة الشيخ والقربى أن الشيخ تعمد إبعادنا عن درس يبدأ بعيد مشرق الشمس، وكان موقعه في السطح تحت ظل منارة الجامع، وهي منارة عملاقة، وأسطوانتها عريضة جدًّا، وتبدأ الأسطوانة من الأسفل متسعة جدًّا، وفيها قاعة تتسع لعدد كبير من الطلاب، وكان الشيخ السعدي يعقد فيها بعض دروسه، وبقيت كتَّابًا لزمن طويل قبل ظهور المدارس الحديثة، وحين تصعد المنارة مخترقة سطح الجامع تنفرد شاهقة تشرف على مدينة عنيزة كلها، وكأنها تحرس المدينة أو تقرأ عليها دعوات الأمان والسلام، وبسبب حجمها الضخم فإن الجلوس في ظلها مطالع يوم صيفي سيكون متعة تجمع بين الهدوء والصفاء وبين الهواء العليل القادم عبر المزارع المحيطة بالجامع، مما يلطف

الهواء القادم ويطعمه برطوبة شفيفة؛ ولذا كان مجلس درس مطلع النهار في ظل المنارة.

كان الشيخ قد قال لنا نحن الصغار إن درسنا سيكون في المكتبة وموعده بعد الشروق بساعة، ولكننا اكتشفنا أن هناك درسًا يسبق هذا الموعد، وهذا حرك الفضول فينا وقررنا أن نحضر الدرس المبكر ذاك، وستشفع لنا المنارة بالحضور؛ وذلك أننا جلسنا بجوار ضلع المنارة الشمالي بينما مجلس الدرس في غربي المنارة وظلها الأكبر هناك حيث تحجب جهة الشروق، وفي أول يوم لتنفيذ مخططنا وقعنا في مغبة حيلتنا؛ وذلك أن الشمس بدأت تقترب منا، وكانت استدارة المنارة من جهة مكاننا تسمح لتسلل الشمس تدريجيًّا نحونا، بينما مجلس الحلقة كله ظل ظليل، وكنا نحاول الالتصاق بجدار المنارة متلمسين ما يتبقى من ظلٍّ، وهنا بدأ طلبة الحلقة ينظرون لنا بتندر وتمسخر، ولكنهم يحاولون إخفاء ذلك عن الشيخ، ويحركون عضلات وجهوهم للتعبير عن تمسخرهم بنا، والشيخ كان مسندًا ظهره للمنارة فلا يرى ما يجري عند ضلعها، لكنه استنكر حركات يراها على وجوه طلابه، ومع استمرار الحركات وانتشارها بين الطلبة سأل فجأة ما بكم؟ ثم نهض فرآنا متلملمين على الجدار وكأننا نريد اختراقه والاختفاء خلفه، هنا رأينا وجه الشيخ يشع نورًا وبهاء، وبدت عليه الشفقة علينا من لحيف الشمس، فقرر دمجنا في الحلقة وهو يتبسم تشجيعًا لنا وكأنه فرح برغباتنا القوية لدخول درس ليس مخصصًا لمستوانا.

كان الدرس في التوحيد، وفيه حديث عن المعتزلة مع مصطلحات وكلمات فوق مستوى أطفال بسننا، وهذا سبب تبكير الشيخ بالدرس هذا كي لا يحضره إلا من هم في مستوى هذه الجدليات العقدية المعقدة، وما هو سوى يوم أو يومين حتى انسحبنا من هذا الدرس؛ لأننا لم نسطع تصريفه في عقولنا. لكن القصة بقيت في ذهني لتعمر مقام الشيخ في نفسي وكيف تعامل مع تطلعاتنا باحترام ومحبة وتركنا لنكتشف بأنفسنا أن الدرس ليس لنا ولن ننسجم معه، وهذه ولاشك واحدة من المهارات التربوية والإنسانية صرت أعرف المزيد منها عن الشيخ وطرقه في بناء علاقات تحبب الناس للعلم وتجعله هو قدوة تربوية كما كان شيخه وأستاذه ابن سعدي، وسأذكر مزيد قصص عن دروس الشيخ التربوية.

- ج -

وتحت المنارة نفسها جاءت قصة أخرى ولكنها قصة شغب وليست قصة علم؛ ففي يوم من الأيام وبعد وقت من تعودي على حلقات الشيخ جاء أحد زملائنا ومعه صيد سمين؛ إذ حصل على بطيخة (خربز) كبيرة بالغة النضج لدرجة أن قشرتها تشققت من شدة نضجها، صفراء تفوح رائحتها وتملأ ردهات الجامع، وتجمعنا عليها تحت عطفة المنارة التي أصبحت مثل الأم الرؤوم لنا، وشرعنا نفكك البطيخة الهشة اللدنة الصافية وكأنها ماء جارٍ فنأكل بمتعة بعيدًا عن درس الشيخ الذي كان لحظتها في مكتبة الجامع، والمكتبة في مستوى فوق الأرض ودون السطح في منتصف انعطاف الدرج في

غرفة مستطيلة وممتدة في العمق، في مدخلها الكتب والمخطوطات ونوادر المطبوعات مع الكتب المخصصة للحلقات الدرسية، وفي طرفها الداخلي مجلس عريض يضم مجلس الحلقات حيث كان درس الشيخ، وفي المقابل كنا متحصنين بحضن أمنا المنارة نستمتع بالبطيخ واللعب والضحك، ومن شدة الطرب صرنا نرمي قشور البطيخ من فوق جدار السطح، ولم نفكر أنه يقع على رؤوس الباعة والمتسوقين في منطقة الحراج المجاورة لحوض المنارة تحتنا، وفجأة رأينا فوجًا من الناس مقبلين عبر الدرج نحونا، ففر زملائي نحو الدرج الآخر الذي يمر من عند حلقة الشيخ، واحترت أنا خوفًا من أن يشاهدني الشيخ حين النزول مسرعًا هاربًا، وإن لم يرني هو فسيراني الطلبة من داخل المكتبة، ذاك حسابي لحظتها، بينما الدرج الآخر هو معبر الرجال القادمين لمحاسبة من رمى على رؤوسهم قشور البطيخ، وهنا وقعت في الشرك، فتظاهرت لهم بالبراءة حين وقفوا أمامي مفردًا بينهم، وصرت أصرخ وأقول لهم: فروا فروا من هناك، وزعمت أني كنت ألاحقهم لأمنعهم من اللعب في المسجد، بدا على واحد من الرجال أنه لم يصدقني، ونظر في وجهي نظرة تقول يا كذاب، وإن لم ينطقها وسلمت لحظتها أو هكذا بدا لي، ولكن...

نزلت ذليلًا ومتخوفًا عبر الدرج الشرقي بعيدًا عن منطقة الشيخ، وهذا بالضرورة يقودني إلى موقع الحراج، وكنت أتظاهر بالثقة في مشيتي ممثلًا دور الشجاع الذي لاحق الصبية قليلي الأدب، ولم أجد من الناس عنتًا، غير أني سمعت رجلًا يتحدث مع آخرين،

ونطق كلمة: ولد الغذامي؛ لم ألتفت نحوه ولكني خفت فعلًا، وزاد خوفي أن تصل القصة لوالدي الذي يظنني في حلقات الشيخ طالبًا نجيبًا يتعلم العلم والتربية الحسنة، ولا يعلم أنني فضحته في عنيزة كلها حين رميت وجهاءها بقشور البطيخ، وكان الرجل الذي عبس في وجهي وظهر عليه أنه كشفني هو ابن عم أمير عنيزة، وقد لاحظت (شماغه) ملطخًا من أثر البطيخ الواقع على هامته، وهنا جزمت أن الأمر سيصل لأبي، وتفتق ذهني عن كذبة أخرى تغطي على كذبتي السابقة، فذهبت فورًا لدكان والدي وهو بعيد عن موقع الحدث، فوصلت إليه وأنا ألهث، وبادرت برواية القصة المفبركة من أنني خرجت من حلقة الشيخ حين سمعت أصوات شغب في سطح الجامع، فرأيت أولادًا شياطين يرمون الناس بقشور البطيخ فلاحقتهم وطردتهم خارج الجامع، وزدت في عيار القول عن الأولاد الذين لم يتربوا ولم يكرموا مقام الجامع ومقام الناس، فأثنى علي والدي ونصحني ألا أغادر مجلس الشيخ ثانية إلا بإذن الشيخ وتوجيهه، وبدلًا عن ذلك تجنبت الذهاب لحلقات الشيخ حرجًا وتخوفًا.

ولكن كان لابد لي من عودة للحلقات؛ فوالدي لن يقبل غيابي، والدراسة الرسمية لم تبدأ بعد لأجعلها عذرًا لي بأني أحتاج للتركيز على دروسي، وعدت.

عدت بين انتظام وشغب، وكلما حانت فرصة للشغب واللعب فإني لا أهدرها، وكثر شغبنا وسط الجامع، وكلما سلمنا ازددنا شغبًا، وكنا نستفيد من تعدد أروقة الجامع واتساعها وكون أجسادنا

صغيرة وضئيلة تسمح لنا في الاختباء خلف السواري كلما لاحظنا وجود شخص حولنا، ومن المعتاد أن يأتي أفراد من الناس من التجار والمتسوقين لأداء صلاة الضحى دون توقيت محدد، وكل لحظة وأخرى يأتي شخص، وكلهم يتفننون في اختيار مواقع صلاتهم بين أروقة الجامع دون نظام يساعدنا في التعرف على مواقع الخطر والخط الأحمر، وفجأة ونحن نتسابق بين السواري والصفوف الفارغة مستمتعين ببرودة الرواق الداخلي وبوقع أقدامنا على رملة الجامع النظيفة والباردة فنجري حفاة عليها لكي يخف صوت ركضنا، ولكن المتنفلين يسمعون وحيف الجري ونغمات الصوت، فيتجهون نحونا، وهنا نمارس مهارات الاختباء وكتم الصوت لنتفجر ضحكًا بعد أن ييأس الباحث عنا وينصرف لدكانه.

كانت متعتنا الأفضل كلما خدعنا واحدًا من المتنفلين وصرنا نخطط للإيقاع بهم بأن يقترب أحدنا من أحد المصلين ويخفي نفسه خلف سارية من خلف المصلي ويصدر صوتًا ثم يهرب قبل أن يختم المصلي صلاته، فإذا تحرك المصلي ليستطلع اختبأنا خلف السواري ونلتصق بها إلى حد يصعب معه على أحد أن يرانا، وهي سوار كثيرة ومتعددة، وإذا احتار الرجل ترك البحث وخرج لشأنه ليبدأ شأننا نحن ضحكًا وطربًا بنصر مؤزر لنا، حتى جاء يوم ختم الحكاية كلها وتبنا توبة نصوحًا من الشغب في الجامع.

كنا في حلقة الشيخ ذلك اليوم، وقبل بدء الدرس أخرج الشيخ من جيبه خطابًا وقرأه على الكل، وفي الخطاب شكوى مكتوبة بقلم

فيه أسى وحرقة عن حال الجامع وصبيان يعبثون فيه وقت الضحى، وكان صوت الشيخ متأثرًا جدًّا وهو يقرأ الخطاب، ونحن كنا نتمنى لو غاصت بنا الأرض فقط لنسلم مما بعد قراءة الخطاب وما قد يفعله الشيخ معنا، وأحسسنا أنه عرفنا وعرف شغبنا، ولكن الشيخ بعد أن أنهى الخطاب أعاده لجيبه وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، بيت الله ليس للعب، ولم يزد على ذاك بكلمة ثم شرع في الدرس.

هنا جاءت الخاتمة وانتهى شغبي كله، وخجلت من نفسي، ووقر في نفسي أن الشيخ كان يخاطبني أنا تخصيصًا، وأنه أرسل لي رسالة.. ففهمتها.. وتأدبت.

***

ثانيًا: حديث القمر

في السنة الأولى في المعهد عام 1959م دخل علينا الشيخ محمد العثيمين في درس غاب أستاذه، وحضر الشيخ بديلًا عنه على غير المعتاد للشيخ؛ لأن دروسه كلها للمستويات المتقدمة وليس للسنة الأولى، وحضرت الهيبة والدهشة مع طلة الشيخ، وتحول الفصل كله إلى حالة صمت وانضباط غير ما هو معهود من سيرتنا مع الشغب، كان الشيخ ودودًا معنا ولطيفًا، وحيانا متأملًا في وجوهنا، وشرع مباشرة بحديث معنا عن القمر، وفي تلك الفترة انتشرت أخبار عن تخطيط أمريكا لإرسال رجل إلى القمر، وهذا أحدث هرجًا كثيرًا كنا نسمعه في المساجد وبين الناس، وكأنما هو نبأ عظيم وخطير، ولكن الشيخ فاجأنا بسؤالنا: هل ترون أنهم سيصلون للقمر...؟!، وأخذ الشيخ يتتبعنا بالسؤال واحدًا واحدًا، وكلنا قلنا لا والعياذ بالله، بتعبيرات تختلف بين واحد وآخر حسب مضمر كل واحد منا، وكنت من الذين قالوا لا، ولكني غير صادق في جوابي، ولكن هيبة الشيخ ومقامه وتوقعنا أنه يريد منا أن نقول لا قادنا لتلك الإجابات، غير أن زميلًا لنا كان في آخر الفصل وهو الأكبر سنًّا بيننا، وسبق له أن سافر خارج المملكة مع عمته، وهذه جعلته يميز نفسه عنا بأنه يعرف ما لانعرف، واستغل هذه الفرصة

ليثبت أنه عصري ومتطور، فقال: نعم سيصلون إلى القمر ولديهم من القوة والعلم ما يمكنهم من ذلك، وهذا هو الرأي الذي كنا كتمناه عن الشيخ وأبداه زميلنا في حركة رأيناها تهورًا منه، وأن الشيخ سيغضب منه، وقد يطالنا نحن غضب الشيخ، وصرنا نتحسب لحظة الغضب، وكيف ستكون، وكيف نخلص أنفسنا ونتبرأ من شطط زميلنا، ولكن الشيخ فاجأنا بهدوئه أولًا ثم بطرحه لفكرته شارحًا القول بأن الأمر له وجهان، فإن كان القمر في السماء فالسماء محروسة من الله ولن يقترب منها أحد، وإن كان القمر يسبح بين السماء والأرض فسيكون كأي جرم كوني مثله مثل جبل شاهق أو جزيرة بعيدة، ومن له سلطان علمي ومادي فهو سيصل للجبل وللجزيرة وللقمر مثلهما، وقد كان الشيخ يشرح هذه الفكرة بينما كنا نتمنى أن لو كنا كلنا مكان زميلنا الذي حقق تميزًا علينا كلنا وحقق انتصارًا معنويًّا كان لنا أن نشاركه فيه لولا تقنعنا بالخوف وحجب رأينا الذي ضاعف من جهلنا وأضاع قيمتنا أمام أنفسنا، أما الشيخ فقد ظهر أمامنا بمظهر ضاعف مقامه في نفوسنا مقارنة بما كنا نسمعه من رجال دين في البلد يعتبرون الحديث بهذه الأمور نوعًا من الموبقات، وكل من حدث نفسه بإمكانية ذلك يلزمه أن يستغفر ويتوب إلى ربه، وبعد عشر سنوات (1969م) من هذا الحديث تطايرت الأخبار في الآفاق كلها عن هبوط نيل آرمسترونج على القمر ومشيه ببدلته الفضائية في صور عرضتها التلفزيونات.

- ب -

ما إن خرج الشيخ حتى تجمعنا نتساءل عن سبب مجيئه إلى فصلنا وما كانت تلك عادته؛ إذ يتم ملء غياب أي أستاذ بأستاذ مثله، أما الشيخ فله الصفوف المتقدمة وليس الصف الأول، ورجح عندنا أنه حضر بقصد تربيتنا، ففصلنا ذاك اشتهر في المعهد بشغبه وسوء سمعته مع كل الأساتذة الذين عانوا كثيرًا معنا، وكانت نتيجة الشغب كارثية على ستين طالبًا لم ينجح منهم سوى ثمانية في نهاية العام، ولعل ذلك كان بقرار متعمد لتأديب تلك الفرقة الضالة تربويًّا، والتي أعجزت كل محاولات الضبط، وما كان الرسوب الجماعي ذاك مبررًا لعدد كبير من الطلبة، وأعرف عددًا منهم باجتهادهم وصدقهم وحرصهم، ومع ذلك رسبوا، وبعضهم بعشر مواد وأكثر، بينما رسبت أنا بثماني مواد، وكنت فرحًا جذلًا بذلك الرسوب، وقد خططت له وتقصدته، وكنت الوحيد الذي فرح بخبر الرسوب؛ وذلك أني في تلك السنة مررت بحال تمرد ضد المعهد، وكنت أريد الذهاب للمتوسطة العامة في التعليم العام، وكان يشوقني ويعمر خيالاتي تصور يسود بين الصغار أن المعهد يخرج مطاوعة، وأن المتوسطة تخرج أطباء ومهندسين وطيارين، وكنت أتوق لهذه الخيارات مع دراسة اللغة الإنجليزية، ولكن والدي لم يك يريدني لهذا الغرض، وكان يخطط لي أن أكون شيخًا يتباهى به ومثاله في ذلك الشيخ السعدي، ولم يك لي من حيلة لفرض موقفي على والدي سوى الرسوب في المعهد؛ لذا انضممت لطائفة الشغب في الفصل، ومع ضآلة جسمي وهزال

بنيتي إلا أني كنت مخططًا ماهرًا في تصميم الحيل وتدبير المكائد، وقد ضاق مني أحد المدرسين فحرمني من استلام مقررات التوحيد والفقه والتاريخ، وكان يظنها عقابًا، ولكني فرحت بذلك لكي يتحقق لي الرسوب فيها، ولم أك أصغي لأي شرح في أي مادة سوى مادة التفسير التي وجدت نفسي مرغمًا على الإصغاء فيها، وكان أستاذ المادة الشيخ علي الزامل رحمه الله، وقد جربنا الشغب عليه وكنا نظن كونه أعمى سيسهل المهمة، ولكنه أول ما حضر لدرسه معنا طلب منا أن يذكر كل واحد منا اسمه، ومضى معنا في ترتيب حسب كل صف وعددنا ثلاثون موزعين على خمسة صفوف، وحين كنا نذكر الأسماء واحدًا تلو آخر كان يتوقف بعد كل ستة أسماء ويصمت هنيهة وشكله يوحي أن يتوثق من ضبط ترتيبنا في ذهنه، ولم نكن نعلم سر هذه الحركة، وفي النهاية أمرنا ألا نغير مقاعدنا في درسه، وكنت قد اتخذت كرسيًّا في وسط الصف تجنبًا للصف الأول لكي أمارس مهنتي المحببة بعيدًا عن مراقبة الأستاذ، وبعد يومين من هذا التنظيم المفروض علينا كنت أحمل معي سلسلة مفاتيح أحاكي بها الكبار وكأني صاحب ممتلكات وهذه مفاتيح مخازنها، ومع سرحاني عن الدرس أخذت ألعب بالسلسلة ويصدر منها صوت ظننته لن يلفت ملاحظة الشيخ، ولاحظت أن الشيخ يحرك وجهه وكأنه يستعرض الفصل، ولم أتصور معنى تقليب وجه وكأنه يمشي بين الصفوف، وتوقفت حركته هذه حين تقابلت تحركاته عند موقعي، وكأنه حدد الهدف، وهذا ما حدث فعلًا إذ نطق بصوت عال وجاد ومركز ليقول: يا الغذامي ضع

المفاتيح في جيبك، ارتعبت وخفت حتى ظننته مبصرًا وليس أعمى، واهتز الفصل كله معي، وسكت الجميع وسكنت الحركات، وأذهلني أن يعجز المبصرون عن السيطرة علينا وها نحن الآن تحت سيطرة تامة من الشيخ علي الزامل، وبقي فصلنا شقيًّا في كل حالاته ما عدا درس التفسير، تمامًا مثل الدرس الوحيد الذي حضره الشيخ العثيمين، لكن هذا الانضباط الذي صنعه الشيخان لم يفلح في غرس التربية الفصلية فينا، التي انتهت نهاية كارثية بالرسوب الجماعي.

بعد إعلان نتيجة الرسوب وطربي لهذه اللحظة التي ظننتها لحظتي المنتظرة للتخلص من المعهد العلمي، ذهبت لوالدي في دكانه لأبلغه عن النتيجة متوقعًا أي رد فعل منه مهما كان إلا الرد الذي نالني منه، توقعت عقابًا ونهرًا وتوبيخًا، وفي النهاية تسليم بمطلبي بنقلي للمتوسطة، ولكن والدي لم يفعل أي شيء من هذا، وإنما قال جملة تشبه جمل القضاة في النطق بالحكم: «اسمع يا عبيد، ترى ليس لك إلا المعهد أو تذهب أجيرًا في مزرعة خالك في الوادي»، قالها بهدوء شديد تعودته منه حين يكون غضبه فعلًا لا كلمات، وتيقنت أنه لا تخفاه حركاتي وحيلي للتخلص من المعهد، وقد سمع مني من قبل كل أنواع التلميح وبعض التصريح، حسب ظروف مزاج والدي، والتي أراوح فيها كيف أمهد لطلباتي وأهمها ترك المعهد، وصرت هذه المرة (عبيد)، وهو الاسم المخصص للحظات الغضب والنهر والتبكيت.

تبكّتُ بما يكفيني لسنة كاملة من القهر والتذمر في ردهات المعهد الذي فُرض الآن علي فرضًا، وقد أعانني على التحمل والتصبر

أنني انهمكت في القراءة الحرة، وكأني أصطنع معهدًا خياليًّا في ذهني أنهل فيه من بطون الكتب، ما يطلق خيالي بعيدًا عن واقعي المفروض عليَّ، ومرت السنة معادة عندي ولم تكن الدروس مكررة علي؛ لأني في عامها الذي مضى لم أكن أدرس بأي معنى من معاني الدرس، ولم أصغ للمدرسين، ولم يثبت في رأسي أي شيء من تعليم تلك السنة المتمردة، ما عدا مادة التفسير التي تشربتها، وكانت في تفسير جزء عم كاملًا، ونجحت فيها بتفوق ومعها الإنشاء والمطالعة، ورسبت في البقية التي كانت سلاحي للخلاص، ولكن تبين أنه من نوع السلاح الخردة.

نجحت نجاحًا عاديًّا من السنة الأولى، وكان ترتيبي الثامن مكرر، وفي السنة الثانية جاءنا الشيخ الزامل في مادة التفسير، ومعه وفي هذه السنة تغير مزاجي مع الدرس، وبما أني أعرف طريقته فإني صرت أميل لدروسه وقربها من جو قراءاتي الحرة في الأدب والشعر، وتمكنت مهارات الشيخ في تفسيره اللغوي للقرآن ومهارات تفتيق المعاني وهو اللغوي والنحوي المتفرد، وكانوا يقولون عنه إنه: أنحى أهل نجد، وذلك لعمق بصيرته في النحو وتخريجاته، ومثلها عمقه في علم العروض، وإن درسنا العروض عند غيره لكننا كنا نلجأ إليه في أي مسالة عروضية شائكة، وكان يفك لنا مسالكها ويعطي تخريجات عجيبة تطرب لها عقولنا مثل تخريحاته اللغوية التي جعلت دروسه في التفسير متعة ذهنية تعلمنا فيها مهارة التحليل والتوجيه اللفظي والدلالي واستنباط كنوز لغة الوحي.

مع هذا التماهي بيني وبين الشيخ الزامل صرت أتقبل فكرة الدراسة في المعهد، وصرت أتعشق اللغة العربية، وخف شغبي، والسبب أني دخلت في علاقات محبة مع عدد من أساتذتي بعد أن عرفوا عن قراءاتي الحرة، فأخذوا بتكليفي بأنشطة المعهد والمشاركة في حفلات النادي، وأقف فيها خطيبًا على منصة مسرح المعهد، وهذا جعلني مفخرة لوالدي بمثل ما جعلني في واجهة الفصل حين يحضر مفتشون من الرياض، وكان أساتذتي يتوسمون بي أن أشرفهم أمام المفتشين، وكنت أقوم بتأدية هذا الدور الذي أحسست أنه متوقع مني، وانتشيت مرة إذ صادف أن أحد المفتشين سأل عن فن المقامات فأجبته، فقال: من أول من كتب مقامة؟ فقلت: بديع الزمان الهمذاني، وسأل عن آخر فقلت الحريري، وكان الموضوع الذي حرك ذلك هو بيت في مقصورة ابن دريد، ولم تكن إجاباتي من معلومات دروس الفصل ولكنها من قراءاتي الحرة، وأتذكر بشاشة وجه أستاذي حينها وهو يلتفت للمفتش وكأنه يفاخر بتلاميذه، وبادله المفتش ابتسامة وقورة كما هو الوقار المتصنع على وجوه المفتشين الذي يعتقدون أن التجهم هو شرط مقام المفتش وتعاليه على المدرس وفرض هيبته على الطلاب، وكنا نستغرب حين نمر على غرفة الجلوس في المعهد ونلاحظ المفتشين يقهقهون مع الأساتذة بينما يمارسون التجهم في الفصل.

نجحت من السنة الثانية بترتيب الثاني بعد أن حرمني مدرس الإنشاء من العلامة الكبرى، وسأقول قصة هذا الحرمان بعد قليل، وكان حقي أن أكون الأول، ولم أضجر من ذلك؛ لأني استكثرت على

نفسي هذا التفوق من بعد (تلكعات) السنة الأولى وسمعتي في المعهد كطالب مشاكس ومتمرد، وبان تذمر مدير المعهد مني إذ بارك لكل الطلاب المتفوقين وهو يسلم لهم الشاهدات إلا أنا، حيث سلمني شاهدتي بوجه لا أثر فيه لأي انطباعات وكأنه يرميها علي رميًا، ولم أغضب من فعلته؛ لأني أعرف كم عذبته وكم أحرقت أعصابه، وقلت في نفسي ماذا كان سيفعل لو أنني كنت الأول على الفصل كما هو حقي لولا قصة مادة الإنشاء، وتصورت أن بقائي الثاني في الترتيب هو وحده الذي سيمرر خبر تحولي من مشاغب منبوذ إلى طالب متفوق، وكنت حقًّا مستغربًا من نفسي هذا التحول وتقبلي للمعهد أخيرًا، وأرى أن تفوقي في النتائج ودمجي في الأنشطة الثقافية في المعهد وعلاقتي العميقة مع الشيخ العثيمين والشيخ الزامل هي مع بعضها ما روض التوتر في نفسي وبناء علاقة مع معهد يسميه بعض صحبنا معهد المطاوعة؛ لأنه لا يخرج أطباء ومهندسين كما تفعل المتوسطة والثانوية.

على أني حاولت في حياتي الأولى كلها أن أنتقل عن المعهد لغيره من أنظمة الدراسة، وتعثرت كل محاولاتي وآخرها بعد أن ذهبت للبعثة في بريطانيا، حيث حاولت تغيير تخصصي إلى علم الاجتماع، فرفض الملحق الثقافي ذلك ومنع الموظفين من استقبال أي أوراق قبول لي في غير تخصصي في مجال اللغة العربية وآدابها، وهدد بقطع بعثتي إن لم ألتزم بما جئت له، وبالرغم من هذا كله فإني أعود بذاكرتي وأستعرض مساراتي فأحمد الله أن تعثرت محاولاتي، وأراني بلغت مطامحي عبر تخصصي الذي سرت فيه، وإن كرهته بداية، لكن بدا

لي أني خلقت لأكون هذا الذي كنته وآلت إليه مساراتي، ولو تغير مساري لربما لم أبلغ غايات رحلتي التي صرتها، والحمد لله رب العالمين على هذه المنة العظيمة التي كنت أفر منها وأقاومها، ولكنها رغمًا عني تشبثت بي حتى أوصلتني لموقع أشعر فيه أنني حققت نفسي وبلغت غاية ما أتمناه، وإن كنت أتمنى غيره جهالة وعنتًا روحيًّا، ومارست فيه شغبي وسلمت من مغبات ذلك الشغب بفضل من الله ثم بفضل رجال عظام تحملوا رعوناتي، وإن ذكرت الشيخين فلابد أن أشيد بشيخ ثالث مر على عنيزة لسنة واحدة فقط أدار فيها المعهد العلمي (عام 1962م) وفتح المعهد كله للنشاط والحيوية، وجعله خلية ثقافية تنير ليالي المعهد وتطرد ظلام الليل فيه بمثل ما توقد النهار بالحيوية والأنشطة، وذلك هو الشيخ سليمان الفالح الذي فجر طاقاتنا غير الفصلية ومنحنا فرصة في الإبداع وممارسة وعينا المختلف حينها وتفعيل قراءاتنا لتكون نشطة على المنصات والصحف الحائطية التي غطت جدران ممرات المعهد حتى تجاوزت عشر صحف حائطية، كنت شريكًا في عدد منها، وتوازع الطلبة على التحرير والنسخ والإخراج الملون برسومات يتفننون فيها، والشيخ العثيمين يشرف على هذا المنشط، وكان يعطينا مساحة من الحركة والتعبير فيما نكتب دون رقابة مسبقة، ولكن حدثت بعض حالات اضطررنا معها لقص بعض المواد، وملء فراغاتها بأي شيء يطابق حجم الخانة المقصوصة، وكنا نفعل ذلك وقت دخول الطلاب للفصول تجنبا لشماتاتهم بنا.

***

ثالثًا: نظرية القلادة / تفكيك المعني

في السنة الثانية درَّسنا مادة الإنشاء شيخ أزهري يلبس جبة الأزهر وعمامة الأزاهرة، اسمه عبداللطيف غباشي، وهو رجل حبيب وبشوش، وتراه يمشي على الأرض مشية القطاة، وكأنه يجس دربه جسًّا ويدب دبًّا، وهو الوحيد غير السعودي من بين أساتذة المعهد، وكلهم من عنيزة من الجيل الأول خريجي حلقات الشيخ السعدي، ومع قيام الدولة السعودية ذهب كثير من هذا الجيل قضاة في مختلف مدن المملكة، ومن بقي منهم وخاصة صغارهم سنًّا أصبحوا معلمين في معهد عنيزة في عهده الأول في الأربعينيات باسم المعهد السعودي، ثم خلفه المعهد العلمي عام 1953م، ولعل كون الأستاذ غباشي هو الوحيد المتعاقد زاده اهتمامًا وتمدد بقاؤه؛ لأن الكل يحبه بالرغم من أن مادته يستطيع تدريسها أي واحد من أساتذة المعهد.

كانت طريقة الأستاذ في تدريسنا أن يأتي وقد حضر نفسه في موضوع يكتب عناصره على السبورة ثم يلقيه كخطبة علينا، وبعدها يدير الخطابة علينا فردًا فردًا، بأن نتتبع العناصر ونستعيد ما سمعناه شفاهة منه، وهو يتتبعنا ويرقع في هفوات كلمنا وأخطاء لغتنا وتلعثم

بعضنا، وإذا فرغنا من هذه الدورة أمرنا أن نكتب الموضوع في بيوتنا ويصححه لنا بعد ذلك، وهذا ديدننا معه على مدى العام الدراسي.

وفي واحد من الموضوعات جلب لنا موضوعًا عن رحلة برية، وفي هذه الرحلة سترى غزالة تركض على نبت الصحراء، وهنا ستتذكر بيتًا لمجنون ليلى يخاطب الغزالة حين لمحها فذكرته بليلى بقوله:

فعيناك عيناها وساقك ساقها

ولكن عظم الساق منك دقيق

وهكذا تعاقب علينا الموضوع نخطب فيه في الفصل مرددين البيت الخاطرة، والذي حدث أن سؤال الامتحان النهائي جاء يطلب منا أن نتخيل رحلة برية قمنا بها ونذكر انطباعاتنا عن الصحراء وقت الربيع، وهذه مصادفة عجيبة؛ فالأسئلة تأتي من الرياض ولا تفتح من ظرفها المختوم بالشمع الأحمر إلا في قاعة الامتحان، ولا دور لأستاذنا في اختيارها ولا معرفتها سلفًا، وهنا جاءت حيرتي مع ما يلزمني كتابته، وهل أستعين بفكرة بيت المجنون أم أتجنبها، فوقر في نفسي أن الأستاذ لن يستسيغ تصرفًا كأنما هو تغشيش، ولا بد أن أثبت أني قادر على الإنشاء بقول من تصوري وتخيلي، واجتهدت في صناعة منظر من خيالي عن الصحراء، وخرجت من القاعة منتشيًا بأنني سأثبت للأستاذ أني صاحب قدرات إنشائية استفدتها من قراءاتي التي كانت في معظمها من المدونات التراثية كالعقد الفريد ونفح الطيب وكتاب الأغاني ودواوين الشعراء الأوائل، مما يعمر نفسي بلغة الكتب ولغة

التعابير المتنوعة وتقليب الجمل باستطرادات تنوعها صياغة وإيقاعًا، ولكن الذي صدمني أول ما خرجت هو اكتشافي أن كل زملائي كتبوا قصة ليلى ومجنونها كما حفظوها عن الأستاذ، وكانوا طربين مبتهجين بتلك المصادفة والهدية الثمينة دون وجع رأس في نبش الكلام وضياع بوصلة اللغة بحثًا عن جمل ترقع النص، وهنا خامرتني الشكوك عن نجاعة تصرفي ووقر في نفسي أن الأستاذ لن يرسب كل الفصل لكي يحتفل بشذوذي عنهم، وهذا هو ما حدث فعلًا، إذ أخذ الطلبة كلهم علامات متقدمة وأنا وحدي أخذت علامة النجاح فقط وحصلت على 16 درجة من أصل ثلاثين، ونقص المجموع الكلي عندي أربع عشرة درجة، وجاء ترتيبي الثاني على الصف بعد ظهور كافة النتائج بفارق كلي ميز الأول عني بخمس درجات، وكانت نتيجته في الإنشاء ثلاثين كاملة، وهنا أحسست بالغبن، ولكني لم أحس بالظلم لأني أولًا أحب ذلك الأستاذ الأزهري، وثانيًا أن زميلي الأول يعرف تفاصيل الحكاية وكان منصفًا لي إذ ظل يردد بين الزملاء أن الأول هو عبد الله لولا قصة ليلى ومجنونها، وظل يردد علي كلمة شعبية تقول: «لا تكبر راسك ترى الطواقي غالية»، فعلًا كبرت رأسي وكان علي أن أتصاغر لحظة الامتحان، وزميلي هذا هو محمد العلي العامر شاب عاش حياته بالمروءة، وكان مثالًا مذهلًا في رقي الخلق وحبه لمساعدة الناس والبر بهم، وتوفي رحمه الله في حادثة وهو يقوم برحلة في المروءة والفزعة.

بعد ثلاث سنوات من قصة ليلى ومجنونها جاءنا الشيخ محمد العثيمين ليدرسنا في السنة الخامسة في المعهد مادة (أصول

الفقه)، وكان الكتاب المقرر لهذه المادة هو كتاب (شرح الورقات في أصول الفقه)، وهو كتاب مركز ودقيق لا يزيد عن 32 صفحة، ولكن هذه الصفحات القليلة استغرقت عامًا دراسيًّا كاملًا ليقوم الشيخ بشرح مصطلحات الكتاب ومفاهيم أصول الفقه ومناهج الاستدلال والاستنباط وتمييز المصطلحات بين القياس والاجتهاد وشروط الاجتهاد وفروقات القياس ومنهجية الترجيح، وكلها علم في المنطق وفي المنهجية، والشيخ مبدع في هذا المجال وهو ميدانه المحبب، ونحن أخذنا عنه هذه المتعة منذ دروسه لنا في مادة النحو في السنة الثالثة، حيث درسنا حينها شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، وصنع لنا في أثناء الدروس شرحات رديفة منه على مسائل النحو ووجوهها، ولما يزل الكتاب عندي محتفظًا به منذ عام 1962م وعليه تعليقات الشيخ بخطي وإملائه، وكذلك أحتفظ بكتاب شرح الورقات وعليه تعليقات بخطي من إملاء الشيخ، وقد انتهت تلك التعليقات بكتاب دسم للشيخ في شرح موسع ومدقق ومعمق للورقات وأصول الفقه صدر عن مؤسسة العثيمين البحثية.

في درسنا مع الشيخ وصلنا قرابة نهاية العام لمبحث عن مفهوم التقليد، وهو الدرس ما قبل الأخير، وتعريف المؤلف للتقليد هو: قول القائل بلا حجة، وفي تعريف آخر «فالتقليد هو قبول قول القائل وأنت لا تدري من أين قاله»[1]، ولكن الشيخ وكعادته ومنهجيته طلب

(1) أبو المعالي الجويني الشافعي: **الورقات في أصول الفقه**، ص: 31، المكتبة السلفية، القاهرة، 1959م.

منا أن نعطي تعريفات من عندنا عن مفهومنا للتقليد وعن مفهومنا للحجة وكيف تكون الحجة قوية تسند القول وتقنع السامع، ودار السؤال علينا كلنا وعددنا 22 طالبًا، وهذا رقم يترجم حال المعهد العلمي ومصفاته العلمية، حيث كنا ستين طالبًا في السنة الأولى موزعين على فصلين وانتهينا بثلث الرقم في السنة النهائية، وفي كل سنة تمر على رحلتنا متصعدين بين الفصول يسقط رقم، وبعضهم يتخلف ثم يلحق، وبعضهم يرسب مرتين فيخرج من المعهد.

في نقاش الشيخ معنا لم تخرج تعريفاتنا عن المعنى العام لما ورد في متن الكتاب، وكنا نعرف أن فعلنا لن يشفي رغبات الشيخ المتطلعة لما هو غير ذلك، وإحالته السؤال لنا يعني أن للأمر وجوهًا أخر يحاول أن يستلها من عقولنا، وهذه دربة علمية فذة تفتح الفكر وتمتعنا بسردية طريفة حين يتعجب أحدنا من جواب غريب لزميله أو يستنكر أحدنا شطحة واحد منا، والشيخ يمنحنا ابتسامته كلما مرت حالة تقاطع بيننا ولا يمنعنا من هذه الفسحة المعنوية في أن نختلف دون تحفظ، وهذا مختبر عقلي كان يدربنا عليه ويدفعنا له دفعًا عبر أسئلته الافتتاحية لنا وتجنبه للتدخل إلا بعد أن تنضج النقاشات ويتوقف ما لدينا لنسمع ما لديه، وهنا نبهنا مكررًا ما ظل يقوله دومًا بأن نقف على المداليل اللغوية قبل أن ندخل للمصطلحات والتعريفات الاصطلاحية، فأشار للأبعاد اللغوية لكلمة تقليد مع الاستخدامات العامة لها في علوم اللغة عبر مقولة السماع وإحالتنا مرة أخرى لاستحضار شروط القياس، وأن المجتهد إذا قارن بين قولين أو أكثر

فهذا هو أول تحرره من التقليد كي لا يقع تحت تأثير قول واحد، وهكذا راح يشرح التقليد عبر شرحه لمعنى الإبداع وهذا يعاكس ذاك.

والذي أطربني حينها في شرحه هو إحالته لمعنى أن التقليد في أصل معناه هو «وضع القلادة في العنق»، هنا حضرت قصة مادة الإنشاء في السنة الثانية وتصورت نفسي وفي رقبتي قلادة ويجرني عبرها أستاذي غباشي كي أكتب في ورقة الامتحان قصة حفظتها عنه، ولكني نزعت القلادة وحررت رقبتي وانطلقت حرًّا في لغتي وعقلي.

فرحت بما قاله شيخي وكأنه جاء ليعالج مرارة كانت في نفسي وأزاحها الآن لتتحول المرارة إلى حالة انتصار معنوي، وظللت أتلمس رقبتي حتى نهاية الدرس وانصراف الشيخ، ولم أفش ذلك لزملائي مكتفيًا بالفرحة لي وبالاحتفاظ بتعريف الشيخ لغويًّا لمعنى التقليد، وقد كتبته على هامش كتابي ولما تزل نسختي نفسها عندي مرفوعة في رف يخص كتبي القديمة، ويقع كتاب الورقات محشورًا بين المجلدات وشكله غريب بينها، هو كتيب لا يزيد عن 32 صفحة من الحجم الصغير، وغلافه ورقي داكن بين الأصفر والأبيض، لكن مقامه في قلبي وعقلي يفوق أي كتاب عندي، وكلما وقعت عيني عليه لمست رقبتي لأتأكد أنها حرة ولا قلادة تطوقها ولا يد تقودها.

***

رابعًا: رحلة الختام

في منتصف عام 1988م كنت في رحلة من جدة لعنيزة لزيارة والدي، وفي المطار تصادف مساري مع مسار الشيخ العثيمين على بوابة الحافلة التي تنقل الركاب من صالة المطار إلى الطائرة، فسلمت عليه سلام الابن على أبيه مقبلًا رأسه، وقابلني ببشاشته التي لا أجهلها، وحين لاحظ أن بطاقة سفري على الدرجة السياحية بينما بطاقته على الدرجة الأولى هو ومرافقوه بادرني بالقول: تذاكرنا ليست منا، أرسلوا لنا تذاكر درجة أولى ولم نطلبها ولا نودها، قالها وكأنه يعتذر مني عن لحن ثقافي، أو هي رسالة ضمنية بأنه لم يتغير عن عهدي به، ولقد تألمت إذ أرى شيخي ورمز ذاكرتي يضطر أن يقول لتلميذه إنه لم يخن معاني الرقي الإنساني، وهي المعاني التي عرفناها عنه بأنه لا يميز نفسه عن الناس، ويعيش معاش الناس، ويلبس لباس البسطاء، ويعاشر البشر كل البشر، وبكل مستوياتهم بوصف الكل سواسية لا طبقية ولا تراتبية.

كنت أعي ذلك دون أي شك، وتأكد لي ذلك عمليًّا وليس لفظيًّا حين تشاركت الذكريات مع إبراهيم العثيمين، ابن الشيخ، واستطرد الكلام ليقول إن والده الشيخ ظل يحرج من تذاكر الضيافة التي

تضعه في الدرجة الأولى دون خيار منه، وأنه قرر أخيرًا أن ينتقل من كرسي الأولى ويبحث له عن كرسي في السياحية في كل مرة تجبره الظروف على الدرجة الأولى عبر نظام الاستضافات والدعوات، فيقاوم طلبات المضيفين وقائد الطائرة حين يتدخلون لإقناعه بالبقاء في المكان الذي يرونه يليق بمقامه، ويرد عليهم أن مقامه بين الناس، ويبرر ذلك عمليًّا بأن الناس تعودوا إذا رأوه أن يأتوا إليه ويسألوه في أمور دينهم، وأنهم لن يروه إذا جلس في الدرجة الأولى، وأن جلوسه في السياحية سيجعل الكل يراه ويسهل عليهم أن يطرحوا ما يشاؤون عليه دون حرج.

ذاك هو الشيخ الذي عرفته والذي تحمَّل شغبي وفتح لي صدره وأشركني في محبته وكأنه صديق حميم يحب ويعطف ويتسامح ويعرف أن خطاب المحبة يفتح القلوب، ويعمر المحبة.

الختام
بين كتابين

كتابي الأول (**العقل المؤمن/العقل الملحد**) وقف على سؤال كيف لعقول البشر أن تؤمن أو تلحد، واستعنت بسبعة نماذج لعلماء وفلاسفة ما بين مؤمن وملحد، ممن دخلوا في نقاش فيما بينهم حول أسئلة ثلاثة:

- **هل للكون خالق؟**
- **وما معنى وجودنا؟**
- **وما مصيرنا بعد الموت؟**

على أن دخولهم في نقاشات فيما بينهم هو شرط منهجي للكتاب لكي تستبين حجج الطرفين وتعامل المؤمن مع حجج الملحد، وهو إذن كتاب في الفلسفة المقارنة، وتظهر فيه الحجج جلية وتتكشف الحجة الأقوى من خلال ضعف الأخرى.

أما هذا الكتاب -وهو توأم الأول- فقد وقفت على حال القلب وكيف يؤمن أو يلحد، والقلب بمثل ما يحب ويكره فإنه يؤمن ويلحد، وفيهما قد يؤمن باعتدال أو يلحد باعتدال، وقد يتشدد أو يتطرف

في أي منهما، وهنا يأتي السؤال عن وظيفة العقل الذي هو أيضًا يصاب بالغرور العقلاني، بمثل ما تصاب العاطفة بالجموح غير العقلاني، وما حال الأفكار هنا هل هي عقلانية أم شعورية، ولاشك أن هناك نوعين من الأفكار، نوع شعوري وآخر عقلاني، وفصول الكتاب في تعاقبها توضح هذه الفروق، والإيمان شعوري قلبي ابتداء، ثم يدخل العقل لتعزيزه بالبرهنة بعد أن تنضج الفكرة وجدانيًّا، وكذا هي أيضًا حال الإلحاد الذي لا يبدأ عقلانيًّا، ولكنه يتحول إلى العقلنة تبعًا لهوى القلب الذي لم يؤمن ابتداء، فالإيمان لا يبدأ من العقل متجهًا للقلب، ولا من العقل متجهًا للعقل، وإنما من القلب، وإذا تجاوب معه العقل حضر الاستدلال العقلي مضافًا للاستدلال القلبي، وقد قامت فصول الكتاب على طرح شواهد واقعية من قصص شهدتها أو شهدت عليها، تلك القصص التي تختارنا وتعترض طريقنا وتتشبث بنا وكأنها تحمل لنا رسائل شعورية ترسلها قلوبنا لنا وتتطلب منا قراءة ناقدة واعية، وهذه منهجية استخدمت لها مصطلح (الاستدلال العقلي الوجداني).

وكمثال على ذلك نستعيد تجربة كولينز الذي ابتدأ حياته ملحدًا كسليل عائلة ملحدة في بيئة اجتماعية وعلمية ملحدة، وتشدد عنده الحس الإلحادي مع مطلع حياته الجامعية، ثم بدأ يدخل في مرحلة من اللامبالاة ونظر لنفسه بوصفه agnostic (لا أدري)، لكن سؤالًا بدأ يشاغله عما إذا كان ملزمًا بخيار قسري بين أن يؤمن بالله أو يؤمن بالعلم، وهل له أن يجد طريقًا يجمع الخيارين دون تناقض

بينهما، وهذه حالة لحضور الأفكار الشعورية، وإن تجاوب معها العقل فإن العقل سيفتح حيزًّا للتفكر العقلاني متوسلًا بالعلم نفسه، وهذا نموذج دقيق لتمثل نظرية (الاستدلال العقلي الوجداني) وهذا ما حدث فعلًا؛ إذ شرع كولينز في بحث في النظريات العلمية، وهي تخصصه ومجاله الذي بلغ فيه مبلغًا عظيمًا بالمقاييس العلمية، ورأس الفريق البحثي الذي وصل لكشف خارطة الجينوم البشري، وتشارك مع الرئيس الأمريكي في الإعلان عن هذا الكشف العلمي العظيم، وهو لحظتها كان على مشارف ذروتين، إحداهما علمية وقد بلغها فعلًا وإنجازًا، وبقيت ذروة أخرى طاف حولها ما بين نظرية الجاذبية ونظرية الانفجار الكبير ولم يجد فيهما ما يتعارض مع الإيمان بالخالق، ولكن اعترضت طريقه (نظرية التطور)، وهي التي تتأكد عنده كما تتأكد علميًّا مع مضي الأبحاث والاكتشافات، كما يؤكد كولينز، وليس من شك عنده بمصداقية هذه النظرية، والحل هنا يجب أن يكون لدى الدين نفسه وليس العلم، وهنا راح يفحص النصوص الدينية وخرج منها بفهم يجعل نظرية التطور ممكنة ويرتفع التعارض المزعوم بينها وبين نظرية التطور.

وفي تراثنا الإسلامي وجدت في تفسير القرطبي والطبري ما يعزز مستخلصات كولينز ويرفع مظنة التعارض، وذلك في تفسير كل واحد منهما للآية الكريمة ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ (الإنسان: 1)، وقالا معًا إن الإنسان هنا هو آدم عليه السلام وإنه آخر خلق الله، وإن خلقه امتد على مراحل، وكلمة

(حين) تعني الزمن المبهم الذي لا نعلم مدته ولا طوله، وهذا تفسير قديم منذ العصر العباسي، ولم يك تحت ضغط تحديات النظريات، وإن كان كولينز قد كشف عن نصوص في الإنجيل تسمح للتوافق بين الدين والعلم فإن تفاسير القرآن أشد وضوحًا، وقد جاءت عبر تفسير لغوي لمعاني الآيات وليست إقحامًا لما يسمى بالتفسير العلمي للقرآن الذي يجري تحت ضغط تحديات الرغبة في جعل القرآن لا يعارض العلم، وهذا بالنسبة لكولينز كشف عظيم يضاف لمنجزاته العلمية؛ إذ وجد حيزًا يرفع اللبس الذي ظل يشاغل الناس حول تعارض العلم والدين في مسألة الخلق، وقد وقفت على ذلك مفصلًا في (**العقل المؤمن/العقل الملحد**)[1].

وهنا تجب الإشارة إلى ما طرحته في الكتاب الأول عن تصور جوهري يؤكد أن العلم والفلسفة محايدان بوصفهما خطابين بشريين، أي منتوجًا بشريًّ، وهذا يعني أن العلم نفسه والفلسفة نفسها ليسا ملحدين ولا مؤمنين، ولكن المؤمن أو الملحد هو العاقل ذو الإرادة الحرة وهو الإنسان، وإن تحركت الإرادة الحرة في مطلع أمرها لأحدهما فلن تعدم وسيلة من العلم أو أخرى من الفلسفة لكي تتوسل بها للبرهنة لتعزيز ما ترسخ بإرادة حرة؛ على أن مبحث الإيمان فلسفيًّا حينها سيكون عن قناعة أولية اتخذت لنفسها استدلالات وجدانية ثم عقلية، أي تجمع بين الوجدان المتولد عن

(1) لتفصيل ذلك كله وتجليته أرجو العودة لكتابي **العقل المؤمن/العقل الملحد** الفصل الثالث، العبيكان للنشر، الرياض 2020م.

القلب وبين العقل المتجاوب مع المحرك الوجداني، فإذا التمس برهنة فلسفية للإيمان فلن يعجز عقله عنها، وأبرز مثال على ذلك هو روسو، وقد عرضت له في الفصل الخامس من كتاب العقل المؤمن، أما علميًّا فإن مثاله كولينز، وهنا تكتمل رابطة التوأمة بين الكتابين، حيث تتوجت بحال القلب مع الإيمان قبولًا أو انصرافًا، وبهذا نكون على بينة من نظرية (الاستدلال العقلي الوجداني) فيما يخص سؤال الإيمان مقابل سؤال الإلحاد، على أساس أن للقلب حججه المختلفة عن حجج العقل[1]، وأن القلب ينتج أفكارًا شعورية تختلف عن الأفكار العقلانية، وفي حال الإيمان فإن الأفكار الشعورية القلبية هي المصدر الأول لتحرك الإيمان، وإذا تقبلها العقل دخلت الأفكار العقلانية في صف الأفكار الشعورية لتؤسس لتصور يجمع بين الوجدان والعقل.

وأشير لمسألة حرجة لدى المؤمنين تصنع حاجزًا بين الإيمان والعلم، واستخدمت ثقافيًّا لإقامة تعارض بين الدين والعلم، لدرجة الدعوى بانحياز العلم ضد الدين، وسبب ذلك هو نظرية التطور التي تحولت إلى عقدة ثقافية، وهذه معضلة حلها عالم راسخ في علمه كان ملحدًا ثم تحول إلى مؤمن، وبحث في أسئلة العلم والإيمان وهل تتوافق أم تتصادم وانتهى بالقول: «نظرية التطور Evolution ستكون ويجب أن تكون صحيحة، ولكنها تقف عند حد

(1) انظر عنها الفصل الثاني، مبحث هل الأفكار شعورية. وفيه عرض لآراء باسكال وكانط وروسو.

لا تتجاوزه، وهي أنها لا تعطي جوابًا عن الخالق»[1]. وفي المقابل فلسفيًّا سنرى راسل الذي قال صراحة إنه غير قادر على نفي وجود الخالق فلسفيًّا، وقرر أنه على مذهب (اللاأدري agnostic)[2]، وهذا موقف قديم في العلم وفي الفلسفة، وقد مر داروين بمرحلتين؛ أولاهما أنه توقف عند سؤال الخالق دون جواب، ووصف نفسه بأنه على مذهب (اللاأدري)، ثم عاد أخيرًا ليقول وبحيرة شديدة: إن هذا الكون العظيم من المحال أن يكون وليد صدفة عمياء[3].

وهذا يعني أن الإثبات أو النفي ليس عند النظرية وإنما هو عند من يوظف النظرية لاتجاه أو لآخر؛ ولذلك تمنَّع راسل عن الدخول في سؤال عن الخالق؛ لأنه وجدانيًّا لم يجد في نفسه ما يحرك السؤال، في حين تحرك وجدان كولينز ودخل في بحث معمق وصل به لدرجة من الإنصاف المنهجي للإيمان وللعلم معًا، وعزز فرضية أن العلم محايد بحد ذاته، وأن الانحيازات عند البشر وليست في العلوم فلسفةً كانت أو علومًا طبيعية.

وفي أساليب القرآن الكريم جمع بين آيات تخاطب العقل بأدلة كونية تقوي حاسة الاستلال العقلي عند المخاطب، وبجانب ذلك

(1) Francis Collins: The Language Of God. A scientist Presents Evidence For Belief. 107. Pocket Books. London 2007

ولمزيد عن كولينز انظر كتابي: **العقل المؤمن/العقل الملحد**، الفصل الثالث.

(2) عن راسل انظر الفصل الرابع من كتابي **العقل المؤمن/العقل الملحد**، وحواره مع كوبليستون حيث قال إنه agnostic

(3) انظر كولينز المرجع المذكور سابقا ص107.

آيات تخاطب الوجدان وتبعث على الخشوع القلبي لروح المؤمن، وهذه تجربة يمر بها كل مؤمن في كل رحلة له مع كتاب ربه، وفي ذلك دراسات موسعة، أشير إلى اثنتين منها بوصفهما من أحدث الدراسات؛ فالدكتور حمد المرزوقي وقف على ذلك بتعمق في كتابه: (أفي الله شك)[1]، وبحث حالات عدم التعارض بين العلم الحديث والقرآن الكريم معتمدًا على آيات الأدلة الكونية واستنباط ما فيها مما يعزز مقام القرآن الكريم في عصر العلم، ودراسة أخرى عن الخطاب القرآني وجمعه بين الاستدلال العقلي والتسليم الوجداني لتوجيه خطاب يشمل الناس كافة من متعلم ومن أمي بتحريك للعقل والوجدان في تقوية أثر القرآن على النفوس والعقول معًا، وعنوان البحث (معجزة التوازن في الخطاب القرآني بين الاستدلال العقلي والتسليم العاطفي)[2].

***

وأخيرًا أقول: إن الكتاب يعتمد نظرية (الاستدلال العقلي الوجداني) منطلقًا من قصص حياتنا التي تختارنا وتتشبث بنا لنقف عليها متبصرين بدلالاتها، وهي تختلف عن قصص سيرتنا العامة بما أنها نوع من الأفكار الشعورية أو الرسائل القلبية وتسير

(1) حمد المرزوقي: **أفي الله شك**، مكتبة بيسان، بيروت 2004م.

(2) The Miraculousness in the Balance of Qur'anic Discourse Between Mental Deduction and Emotional Submission Prof. Dr. Khalil Ibrahim Taha, Prof. Ahmed Manaf Hassan. Journal of College of the Great Imam University 2019, Volume, Issue 27 part 2.

حسب مسارات الأسئلة الوجودية ومرحلة انبثاقها المبكر مع تساؤلات الطفولة بدافع محاولة التعرف الفطرية، وهذا نوع من التساؤلات يذوب مع الوقت ويختفي، ولكن يقع كثيرًا أن تحضر الأسئلة تبعًا لنضج العقل والمعرفة مع مراحل العمر واتساع المدارك، وتتحرك عادة بفعل أحداث تقع دون تخطيط منا، وهي قصصنا الخاصة التي تجبرنا على التفكر في مغزاها وعن ماهيتها، وهنا تأتي الحاجة للاستدلال ابتداء من الأفكار الشعورية ومصدرها القلب ولكن العقل قد يتجاهلها أو يتعالى عليها، أما إن استجاب العقل لدواعي الأفكار الشعورية وآلفها مع تفكره العقلاني فستنشأ هنا حال من التوازن بين العقل والقلب وميله الأولي، وهذه هي الحالة التي تجعل الإيمان ينبثق وجدانيًّا وعقليًّا معًا في نظام استدلالي متوازن يسلم من غرور العقل ومن جموح العاطفة، كما هي مقولة روسو، وهنا تحضر حال من الطمأنينة الوجدانية والعقلية.

المحتويات

المقدمة 5

كلمة شكر 10

الفصل الأول: أحاديث الروح 11

أولاً: نظام الاستدال العقلي الوجداني 13

1. الهارب من إيمانه 14
2. حكاية الركب 19
3. إيمان العجائز 24
4. مجاورة النبي 37

ثانيًا: الأفكار القلبية 40

1. الخشوع/فإن لم تكن تراه فإنه يراك 40
2. هل يخشع العقل...؟! 44

الفصل الثاني: تفسير الحياة 53

أولاً: ميلاد المعنى 55

1. المواجهة الأولى 55
2. وصية جدتي 64
3. خارج الوجود 69
4. أبواب الرحمة 72
5. قصة البنكي 75

ثانيًا: تفسير الحياة 82

1. سلطة المعاني 82
2. هل الأفكار عقلانية أو شعورية؟! 87
3. هل أيام الحياة معدودة بمعنى محدودة...؟! 92

الفصل الثالث: مواقيت الأسئلة، وهل القلب يلحد؟! 95
أولاً: سؤال الوجود 97
1. دعاء الكروان 97
2. إكسير الحياة 104
3. رحلة البحث 106
4. حوارات الشباب 118
5. هل تحب الآثم؟! 127
ثانيًا: هل يلحد القلب؟! 134
1. القلب وحرية الإرادة 134
2. العدالة العاطفية 139
3. تعطيل الحجاج 140
ثالثًا: العدالة الثقافية 144
الفصل الرابع: في صحبة المعاني 149
أولاً: الجوار 151
ثانيًا: هدية الشيخ 164
ثالثًا: وداع الشيخ 169
رابعًا: الرمزيات 174
خامسًا: هل الإيمان محبة؟! 182
سادسًا: العقل الشقي/العقل السعيد 185
الفصل الخامس: حلقات المعاني 187
أولاً: حديث المنارة 189
ثانيًا: حديث القمر 198
ثالثًا: نظرية القلادة/تفكيك المعاني 207
رابعًا: رحلة الختام 213
الختام: بين كتابين 215

***